يصدرها حلمي مراد

مطبوعات كتابي

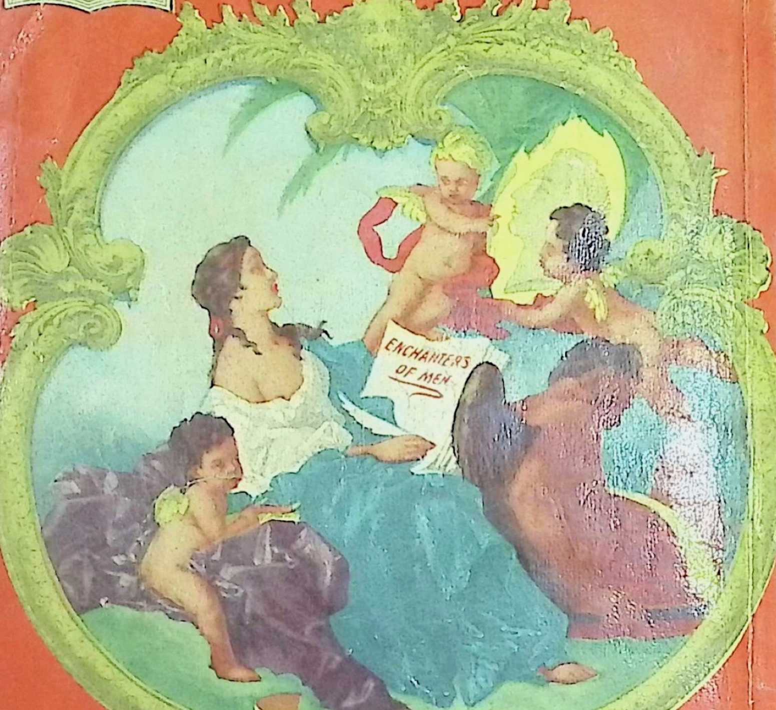

نساء غيّرن وجه التاريخ !

١٠ قروش

فاتنات الرجال

باقة منوعة من قصص حياة أشهر فاتنات الرجال في مختلف العصور والبلاد

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار « كتابى »

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب الثامن عشر

فاتنات الرجال

تأليف : مارجورى كورين
ترجمة : محمد بدر الدين خليل

الادارة : عمارة الجندول - ١٤ شارع ٢٦ يوليو - بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة « كتابى »
(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن خمسة وخمسون كتابا ، يضاف إليها كتاب جديد اول كل شهر .. وفيما يلى قائمة الكتب التى صدرت :

خطايا الحب وكتب أخرى • قلب عذراء • الهاربة من الجنة • حواء الجديدة • احدب نوتردام • جريمة حب • عشيقة نابليون • مذكرات كيوبيد • صنم تحطم • حديقة الله • عندما تحقد المرأة • لعبة الحب والموت • توبة خاطئة • ايها الربيع ترفق • الشيطان على الارض • ليدى هاملتون • الارملة المرحة • حياة جورج صاند • حياة سارة برنار • رباعيات عمر الخيام • حياة بيتهوفن • حياة موسولينى • كوخ العم توم • الزوج والعشيق • البوهيمية • فتاة لها ماض • ترويض النمرة • فن الحب • الجريمة والعقاب • المنافق • اميرة مصر • الامطار • أفروديت • أقنعة الحب السبعة • سالومى • الاعداد : ٣١ ــ ٣٧ ــ ٣٨ ــ ٣٩ ــ ٤٠ ــ ٤١ ــ ٤٢ ــ ٤٣ ــ ٤٤ ــ ٤٥ ــ ٤٦ ــ ٤٧ ــ ٤٨ ــ ٤٩ ــ ٥٠ ــ ٥١ ــ ٥٢ ــ ٥٣ ــ ٥٤ ــ ٥٥

◆ وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الاول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندرمة) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص اجر البريد المسجل ، ماعدا العددين العاشر والعشرين ، وثمن كل منهما ٢٠ قرشا • والاعداد ١٣ ، ١٦ ، وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، اما الاعداد الستة الاولى فقد نفدت ، والادارة مستعدة لشرائها •

◆ الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز : مايوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا : قيمة الاشتراك ١٦٠ قرشا (عن سنة) خالصة اجر البريد ، وفى المانيا ١٦٠ قرشا بخلاف اجر البريد الجوى •

◆ ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على احد بنوك القاهرة او تحويلات عليه • واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بان الكوبونات الدولية فئة الاربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الابيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امراة (جزءان) ، الخطيئة الاولى ، أوديب ، مدام بوفارى (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظمأ للحب ، جين اير (ثلاثة اجزاء) ، وثمن كل من الاول والرابع والسابع ٢٠ قرشا ، والثانى والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر ١٢ قرشا ، والثانى عشر ١٤ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص اجرة البريد المسجل)

عزيزى القارىء :

عندما بدات فى اصدار « مطبوعات كتابى » ، وعدتك بان اضمنها الترجمة الدقيقة الامينة للكتب العالمية الممتازة ، قصصية وغير قصصـــيه .. فى كل موضوع ، ولاعظم المؤلفين . وتنفيذا لهذا البرنامج ، اقدملك اليوم هذا الكتاب غير القصصى : « فاتنات الرجال » ، الذى يشتمل على عرض رائع ، وتحليـــل بديع ، ودراســة دقيقة ، لعدد من النساء اللاتى سيطرن على عقــول الملــوك والحكام ، وكانت لهن آثار فى التاريخ خلدت اسماءهن . ومع انك قد تكون قرات عنهن ـ او عن معظمهن ـ من قبل ، الا انك ستجد فى هذا الكتاب ،الذى وضعته كاتبة من جنس اولئك الفاتنات،مادة طريفة ، جديدة ، تجمع بين الثقافة التاريخية ، والاسلوب القصصى ، والتسلية ..

ولكى احقق لك طرافة المادة و جدتها ، عنيت بتنقيتها من شوائب التكرار ، ومن المعلومات المعادة التى لاتزيد فى ثروتك الثقافية شيئا .. واحسب انك تقرنى على هذا ، وترى معى انه كان اجراء لازما لاعفائك من التكرار الممل ، ولتجنب معلومات لن تكون جديدة عليك ، وهى معلومات كانت تضطرنى ـ لو ابقيت عليها ـ الى اصدار الكتاب فى جزءين . واعتقد كذلك انك تقرنى على ان هذا لايعتبر خروجا على الرســالة التى آلت « مطبوعات كتابى » على نفسها ان تحمل عبئها،وهى تقديم الترجمة العربية «الكاملة» الامينةلشوامخ الكتب العالمية .. فان هذا الكتاب فى مادته تاريخى ، وليس من كتب الادب الخــالص التى التزمت بتقديم نصها الحرفى الكامل اليك . فضلا عن ان « الغـربلة » التى اجريتها ، لم تعف المترجم من التزام النص الدقيق فى نقل المادة « المغربلة » المنتقاة بالامانة المعهودة !

بقى ان اذكر لك السر فى اختيار هذا الكتاب ..

من الممكن ان نشـبه النساء ـ امهات كن او زوجات او عشيقات للرجل ـ بكواكب فى مجموعة فلكية،تدور حول كوكب رئيسى،كما يدور القمر والارض حول الشمس .. فهى مهما تتالق لاتشع نورا من ذاتها ، وانمــا هى تعكس نور كوكبها الرئيسى : الرجل ! .. وكما ان بين الكواكب شهبـا تتمرد على النظام الفلكى ، فتخرج عليه ، وتندفع فى الفضاء مرسلة وميضا ثاقبا ، الا ان هــذا الضوء الوقتى لاينبعث فى الواقع الا من احتراقها ، فلا تلبث ان تفنى وتتبدد

رمادا فى الفضاء .. كذلك نجد بين النساء « شهبا » ينتهين عادة الى الاصطدام بقانون اقوى من تمردهن - هو قانون الحظ - فيتحطمن !

ولقد عرفنا سير بعض اولئك النسوة من قبل ، ولكن . . باقلام رجال !.. والرجل مهما يحاول الانصاف ، يكون - فى الغالب - احد اثنين : اما مفتونا بالمراة ، فهو يرقى بها عاليا ، واما حاقدا عليها فهو يجحد محاسنها . اما هذا الكتاب فمؤلفته امراة تنتمى الى جنس الشخصيات التى يضمها .. وليس أقدر على فهم نفسية المراة ، وتحليل نوازعها ، وتبرير عواطفها وتصرفاتها من امراة مثلها !.. ومن ثم فان المؤلفة قد اختارت « كليوباترا » لتكون أنبل « فاتنات الرجال » فى التاريخ ، وبينت كيف انها استطاعت بدهائها ان تهز روما وان تنتزع منها اثنين من أعظم قادتها .. وصورت المؤلفة « آن بولين » فى صورة فتاة طموح ، تعتبر مثالا للحذق ، اذ وضعت جسدها البكر - فى ميزان ضمير ملك ! - فى كفة ، تقابلها فى الكفة الاخرى ملكة البلاد الشرعية .. وسلطان البابا .. ونفوذ اثنين من رؤساء الوزارات !.. فكان ان رجحت كفتها هى . بل وغيرت تاريخ انجلترا ، بفصلها عن كنيسة روما . وعلى العكس منها مدام « مونتسبان » التى تسببت فى اندفاع ملك الى الاضطهاد الدينى والتعصب عندما تخلص ضميره من تاثير جمالها الفذ . اما مدام « دى ستايل » فقد خلقت لنفسها كوكبا رئيسيا - من وحى خيالها - راحت تدور حوله حتى اصطدمت بالحقيقة الواقعة فتحطمت . واستطاعت « نيل جوين » ، فى دورانها فى فلك ملك شهوانى ، ان تنفذ الى ركن محرم من نفسه العابثة ، وحاولت ان تجعل الملك تابعا لها ، فاذا بها ترتد وتقنع بان تحوم حوله . وهناك « لولا مونتيز » ، الفاتنة الضارية الكاسرة ، التى ابتاعت بعواطفها ملكا لتتخذه سيفا تحرر به وطنها ، فلم تفز بغير سخرية قومها حين انقصم السيف فى يديها !

وفى براعة ودقة تصوير ، حللت المؤلفة نفسيات أولئك الفاتنات ، فكشفت عن الطموح النبيل فى بعضهن ، والجشع الخسيس فى البعض الآخر ، والحب الذى يرمى الى هدف ، والحب الذى يفنى فى الشهوة الوضيعة لمجرد الشهوة .. نفسيات ونفسيات ، اتركك الآن لتغوص فى اعماقها مع المؤلفة !

حلمي مراد

(من سنة ٦٩ الى سنة ٣٠ قبل الميلاد)

ما عرفت روما الخوف يوما من اية امة او اى شعب .. ولكنها عرفته فى حياتها من مخلوقين آدميين : كان احدهما « هانيبال » ، والآخر .. امراة !

« و . و . ترن »

فاتنة النيل !

كان سحرها ينفذ الى قرارة نفوس الرجال !

« بلوتارك »

• كانت الشمس تضفى صبغتها على كيانها كله .. ففى حمرة شعرها النحاسية يتجلى وهج الشمس ، وفى زرقة عينيها الداكنة تتمثل الظلال المتخلفة ، وفى سمرة بشرتها تتبدى آثار الحرارة الحامية . وكانت بقوامها الصغير ، النحيل ، الاهيف - وقد ائتزرت من كعب قدمها الى خاصرتها بمئزر من الكتان المصرى انحسر عن ثدييها الصغيرين المستديرين - أشبه بتمثال من تلك التماثيل الصغيرة الرائعة، التى كان صناع الاسكندرية من اليونانيين يبتدعونها للشراة من عملائهم !.. على ان هذه لم تكن تمثالا ، وان جلست بلا حراك على الحشيات الناعمة فى سرادق على النمط السورى . كانت .. كليوباترا ، ملكة مصر، التى وقف بسببها أربعون ألفا من الرجال المسلحين فى الصحراء ، وقد انتظموا فى صفين متقابلين امتدا من (بلوزيوم) - القائمة على الساحل - الى بحيرة (سيربونيس) فى الجنوب!

كانت ابنة بطليموس اوليتس ، سليل بطليموس المقدونى

الذى نصب نفسه ملكا على مصر ، عندما مات مليكه الاسكندر الاكبر . ومع أن جذور الاسرة المالكة الجديدة امتدت وتغلغلت، الا ان خصالها الغربية وفضائلها تقلصت ، حتى قدر لمملكة الفراعنة ان تحكم من مدينة الاسكندر على يدى عاهل بلغ من ضعفه أن أقصى عن عرشه ، وبلغ من ضعته ان اضطر الى أن يرشو روما كى ترده الى هذا العرش !.. **ولهذا الحاكم ولدت « كليوباترا » ، التى بدا أن الاصلين العريقين قد بلغا فيها - بسحر خفى - أوج ازدهارهما ، فتجلى العنصر الاغريقى فى ذكائها اللماح الجرىء ، والعنصر المصرى فى نضوج حكمتها.. واذا بها « افروديت » فى ملاحة وجهها ، و « ايزيس » فى جمال قسماتها الوادعة ! .. ولقد أيقظت فى أبيها - «اوليتس» البائس - ماكان راكدا فى نفسه من عوامل الزهو ، فلم يتردد فى ان يغتال ابنته الكبرى ليفسح السبيل لهذه الصغرى الى العرش ، وعمد الى تلقينها كل فنون وأساليب الحكم الذى اخذ يعدها لتتولاه ، ثم وضعها تحت حماية روما ليضمن بقاء هذا الحكم فى حوزتها .. وكانت فى السابعة عشرة حين اعتلت العرش وقد غدت أقدر بنات عصرها وأكملهن استعدادا لممارسة السلطان ، بوصفها « ملكة الملوك » ، و « ايزيس الحية » ، و « الملكة الربة على مصر العليا والسفلى » !**

ولكن الحاشية الاغريقية التى كانت تتألف من رجال دهاة، حاذقين ، حكموا مصر خلال عهد اوليتس ، كانوا قد عقدوا العزم على أن يستمروا فى الحكم عن طريق أخ كليوباترا وشريكها فى وراثة العرش .. « بطليموس ديونيسوس » آ.. وكان من السهل أن يثيروا غيرة صبى فى الثانية عشرة من عمره ، وان يقنعوه بأن ذلك الوقت كان أنسب الاوقات . فقد كانت روما نهبا للشغب، وقد راح قائداها العسكريان العظيمان « بومبى » و « يوليوس قيصر » يتصارعان على السلطان ،

فاوعز المتملقون الى « بطليموس » أن فى وسعه ان يتخلص من الاثنين ، وان يجعل الاسكندرية عاصمة لامبراطورية اغريقيه ، كما كان الاسكندر الاكبر يريدها !.. ولقد كانت كليوباترا تحلم هى الاخرى بأن تجعل من الاسكندرية عاصمة لدولة تسود العالم كله ، ولكنها لم تكن تريدها دولة اغريقية ، اذ كانت ترى ان رجال القصر من الاغريق أعجز الناس عن انشاء دولة !.. وما كان من المحتمل ان تربط بين الاهالى الاغريق والرومان واليهود والارمن والعرب والسوريين والقبط أية رابطة وطنية ، أو وحدة فى الغرض !.. حتى الروح الدينية فترت على أيدى العلماء والفلاسفة المتباينى الجنسيات ، الذين ضمتهم جامعات الاسكندرية ، ولم تبق فى الامة سوى روحها التجارية ، اذ ظلت الاسكندرية معبرا بين الشرق والغرب ، ومستودعا لتجارة الدنيا وذهبها . فلو آن روما بددت قواها العسكرية فى توسيع امبراطوريتها ، لانتقلت القوة من تلقاء نفسها الى الاسكندرية .. أغنى مدن العالم وأكثرها ثقافة وازدحاما بالوافدين من كافة البلدان !

* * *

• **هكذا** كانت كليوباترا تمنى نفسها ، لولا ان أطلق الاغريق عقيرتهم يتهمونها بأنها كانت تخون مصر من أجل روما ، ومن ثم لم يناصبها أخوها وحده العداء ، بل ثار الشعب بأسره ضدها ، فأقصيت ـ كما أقصى أبوها من قبل ـ عن العرش!.. ولكنها لم تعول مثله على روما ، وانما عولت على شجاعتها ، فلم ينقض عام حتى كانت قد جمعت جيشا من السوريين والعرب. وكان من المحتمل ان تنازل أخاها فى (بيلوزيوم) ، لو لم يمسك حوض البحر الابيض المتوسط كله أنفاسه فجأة، ليرهف السمع الى الانباء التى تتابعت عليه . فلقد اصطدم القائدان

الرومانيان فى (فارساليا) ـ ببلاد اليونان ـ فهزم « قيصر » غريمه ، وفر « بومبى » الى مصر حيث طلب الحمى . ولـكن « بطليموس » دبر اغتياله على شاطىء (بيلوزيوم) أملا فى أن لايجد « قيصر » بعد ذلك حجة فى القدوم . على انه لم تنقض سوى ثلاثة أيام ، حتى اقبل قيصر فهبط فى الاســكندرية ، واستقر فى القصر الملكى فى هدوء.. كل هذه الاحداث تلاحقت فى شهر واحــــد ! ثم أمر « قيصر » عاهلى مصر بأن يكفا عن تناحرهما وان يمثلا بين يديه !

وأطاع بطليموس أول أمر أصدره سيده الرومانى ! أما هى .. أما كليوباترا ، فقد راحت تستعرض الموقف : او انها لبت دعوة قيصر فمن المحتمل أن يقضى عليها ، وان يقيم بطليموس على عرش مصر ، لقاء رشوة !..ولو انها أبت أن تلبى الدعوة، فقد يعلن انهـا عدوة لروما ، ولســوف يغتبط بطليمــوس اذ يساعده فى القبض عليها واعدامها !..**ولم تر بدا ـ فى النهاية ـ من ان تواجه الخطر مادام ماثلا فى الحــالين ، ولكن .. كيف تصل الى قيصر وجيش أخيها يقف فى الطريق الى الاسكندرية، والمدينة ذاتها تعاديها ؟**

وأخذت تفكر : كايوس يوليوس قيصر .. من يكون هــذا الرومانى ؟.. لم تكن قد سمعت عنه قبل عام ، ولم يكن هو اذ ذاك أكثر من مغامر متهور .. ولقد قيل لها الكثير عن فتوحاته، وانه كان فى الخامسة والخمسين من عمره ، أصــلع ، تتخلل حياته صفحات من الفجور ، وان فترت شهوته بحكم السن !. واختلجت شفتها العليا ، غير المنتظمة ، وهى تفكر : **كهل فى الخامسة والخمسين .. شيخ شهوانى !.. ما كان لهــا ان تخشاه ، وهى ابنة العشرين !..** ومن ثم أرسلت فى المســاء تســـتدعى « ابولو دورس » ـ وكان صقليا توفر يوما على تعليمها ، كما كان موفور القوة ، متين البنيــان ـ ثم تسللت

برفقته من معسكرها خلسة فى جنح الظلام ، وسار الاثنان على أقدامهما نحو شاطىء (بيلوزيوم) • ولم يأت اليوم التالى ، حتى كان الرجل قد تسلل الى مرفأ الاسكندرية فى زورق صغير ، وانساب ـ خلال شوارع المدينة ـ الى القصر الملكى ، وهو يحمل حزمة من الابسطة ، دون أن يعترضه أحد ، اللهم الا حين بلغ باب حجرة قيصر ، وكان بوسعه ان يسلم «حمله» الى الحراس الرومان وهو مطمئن ، ولكنه تشبث بأن الاوامر التى تلقاها تحتم عليه أن لا يسلمه الا الى قيصر بشخصه •• وهكذا نفذ الى الحجرة !

ولم يشهد قيصر هدية كهذه تلقى عند قدميه من قبل ، اذ انتصبت من بين الابسطة حورية !•• حورية مهدلة الشعر ، ولكنها كانت فى سن تتهدل الشعر فيها فتنة !•• وكانت الخصلات كعناقيد الكروم ، والاهداب ذهبية تحف بعينين زرقاوين مكحولتين ، والاطراف فى لون الشهد ، تزينها أشرطة من فضة !•• وراحت الحورية تحدق فى انشيخ الذى كانت ترجو ان توقظ ـ بهذا اللقاء المبتكر ـ أحاسيسه ، فماذا تراها ظنت فى الرجل ؟•• كان فارع الطول ، عريض المنكبين ، بادى الصلابة ، لوحت الشمس والرياح بشرته بسمرة قاتمة • وكان منتصب القامة ، تلوح عليه مخايل من اعتاد أن يأمر فيطاع • أما وجهه النحيل ـ الذى تركت عليه الافكار آثارها ـ فقد كان يشرق تحت وهج عينين سمراوين ، كما كان فمه الواسع ينطق بالشهوة وحب اللهو • وكان الرجل على قدر من اللطف ، يخالطه حذر المستريب ، وبساطة مفتعلة فى الزى ، مما جعله ـ فى المدينة المسرفة الترف ـ أشبه بالخبز على مائدة زخرت أطباقها بالتوابل الحريفة !

* * *

• لا •• لم يكن هذا بالفاتح الضارى الذى يخشى بأسه ،

ولا كان بالشهوانى الهرم الذى يسهل استثارة أحاسيسه !٠٠ على أن كليوباترا استطاعت أن ترى وراء تحفظه وعبوسه ، شخصية الرجل السريع العشق ، ومن ثم أجابت عيناها على نظرته المتحدية بنظرة معتدة مظفرة !٠٠ **وهكذا ، لم تذهب اليه فى مساء ذلك اليوم ذليلة كما لو كان فاتحا منتصرا ، ولا خلسة كما لو كان عاشقا ، وانما ذهبت علانية ، وفى جرأة ، وكأنها كانت ذاهبة الى ٠٠ زوج !٠٠ ولم تلبث فى الصباح التالى ان وقفت الى جواره فى جلال الملك ، وقد أمسكت بالصولجان ، وأحاطت رأسها بالحية المقدسة ، بينما راح هو يعلن تنصيبها ملكة حاكمة على مصر ، وفقا لوصية أبيها ، وتحت حماية روما !**

ومرة أخرى ، أوغر الاغريق ــ من رجال الحاشية ــ صدر بطليموس الصبى ، وزينوا له محاربة الرومانى الذى كان شبه محاصر فى القصر ، بين قوات الصبى فى (بيلوزيوم) وأسطوله فى ميناء الاسكندرية ٠٠ وسرعان مادار القتال ٠ وأدرك قيصر خطر موقفه ، اذ استطاع غريمه أن ينفذ الى القصر الملكى نفسه ، فلم يستعص عليه سوى الجناح الملكى الذى استبسل الجنود الرومانيون فى الذود عنه ٠ ومرة أخرى ، رأت « كليوباترا » أن تواجه الخطر ، وآثرت أن تفقد حياتها على أن تفقد قيصر ، بعد ان لمست وراء عاطفته الهوجاء روحا أقوى وأعتى ٠٠ روح نابغة ، خلاق ، ليس أقدر منه على أن ينيلها الامبراطورية التى كانت تحلم بها ، ومن ثم وقفت الى جواره ٠ ولعله ــ من ناحيته ــ وجد فيها الشخص الذى لم يلقه من قبل ٠٠ الشريك الذى يشاطره انشاء امبراطورية !

واستمر القتال طوال الخريف والشتاء ٠ وتنكرت روما لقيصر حين رأت أن حربه هذه لن تعود عليها بأسلاب ولا بأراض جديدة ٠ ولكنها عادت فأمدته بتعزيزات فى الربيع ٠

وبعد قتال مستبسل فى دلتا النيل ، هزم جيش بطليموس ، ولاقى الملك الصبى مصرعه فى ثوب الحرب الملكى المصنوع من الذهب !٠٠ **ولم يعـــد يقف بين المنتصر الرومانى وزمام مصر وثروتها الطائلة ، سوى فتاة فى العشرين من عمرها ٠ وقنع قيصر بالفتـــاة ، وترك الزمام والثروة !٠٠ كانت « الملكة » بالنسبة له ـ كسياسى ـ بيدقا على رقعة شطرنج ٠ وكانت بالنسبة له ، كطامح فى حكم العالم ، قطعة من الواقع تطمئنه الى أن الحلم فى طريق التحقيق ٠ وكانت بالنسبة له ـ كعاشق ـ وليمة شهية لا تنضب لذتها !**

وكانت ـ كملكة ، وحليفة ، وعشيقة ـ تشده اليها بثلاثة خيوط ، عزمت على أن تجدلها حبلا لا انقطاع له ، بأن تنجب طفلا للرجل الذى لم يوهب أولادا من قبل ٠٠ ووريثا لمنشئ الامبراطورية ، وبذلك لا تصـبح روما أكثر من تراب عتيق منبوذ لسيف مسلول ، وتغدو الاسكندرية مهدا لاسرة تحكم امبراطورية تحت التكوين !٠٠ فلا يلبث ان يتحـد الشرق والغرب تحت تاج واحد ، وان يجلس قيصر وكليوباترا معا على عرش العالم !٠٠ وكان قيصر يدرك ان الوقت ضيق ، فقد سكب عصارة نبوغه فى حروب مدمرة ، ومن ثم فلا بد له من أن يتعجل العمل فى انشاء امبراطوريته قبل ان يفرغ النبوغ والعمر معا !٠٠ ولكنه راح مع ذلك يتلكأ ريثما يتلقف ابنه بين ذراعيه ٠ وظل فى تلكؤه هذا حتى بداية الصيف ، والملكة ـ فى هذه الاثناء ـ تعرض على الرجل الذى لا عهد له بغير جمهورية روما ، ألوانا من العظمة والامجاد التليدة ، والثروة التجارية الطائلة ، التى تجعـــل الاسكندرية أهلا لان تغدو عاصمة امبراطورية جبارة !

وفى باكورة الصيف ، وضعت كليوباترا طفلهـا الموعود ، فأسمته « قيصريون » ، وبذلك وسمته منذ أولى لحظات حياته

بخاتم قيصر • واذ ذاك فقط ، رحل قيصر الى روما ليعد العدة للحملة على (بارثيا) ، بعد ان عاهدته على أن تتبعه الى رومافى العام التالى • و برت بعهدها فعلا • ولا بد انها وجدت روما - عاصمة الجمهورية - زرية كئيبة ، وهى التى ألفت العظمة والاشراق فى الاسكندرية عاصمة مملكتها !•• كانت الحياة هناك جافة ، وعلية القوم غير متمدينين ، وروما ذاتها فى شغل شاغل بالمال !•• حتى نساؤها انحدرن الى حد ان أصبحن يتناوبن الزواج والطلاق السياسيين !••ومع ذلك فقد هيأت كليوباترا نفسها لتتمشى مع الحياة التى كانت تحيط بها هناك ،وارتدت الزى الرومانى ، وتجنبت كل مظاهر الملك وألقابه ، لما بدا لها من كراهية روما لمثل هذه الامور ، ولان الحكمة كانت تقتضى ان تظل على وئام مع روما !

وأفرد لها قيصر داره - على الجانب الاقصى من نهر التيبر- تحيط بها الحدائق الغناء ، وأخذ يتردد عليها فى ليالى الصيف وهو مزهو بما كان يحققه من أعمال •• كما كانت تستقبل أصدقاءه ، فتبهرهم •• لا بجمالها الفذ فحسب ، وانما بسعة علمها ، وقوة ذكائها أيضا •• بينما كان الذين لايجرؤون على أن يتهامسوا بنقد قيصر - من أهل المدينة - يسلقون « الغولة المصرية » بألسنة حداد ، ويتهمونها بأنها أضلت « الرومانى » عن طريق الفضيلة !

★ ★ ★

• **وكان** من الطبيعى ان تلاحظ كليوباترا بين الزوار شابا من الضباط الفرسان ، لم يجتذب اهتمامها بضخامة بنيانه ، ووفرة حظه من جمال الرجولة فحسب ، وانما لانه كان أيضا أصدق الاعوان وأقربهم الى قيصر ، وكان يليه مقاما وشهرة فى روما • وكانت قد رأته فى مصر - قبل ذلك بعشر سنوات-

عندما جاء مع الرومانيين الذين ردوا أباها الى عرشه!٠٠ وليس من شك فى أن الشاب بدوره قد أولاها قدرا كبيرا من عنايته، فما كان يملك ان يوجد فى حضرة امرأة مشتهاة دون أن تراوده الرغبة فى اختطافهـــا !٠٠ كانت تلك عـــادته ، وكان نادرا مايقوى على كبح هذه الرغبة !٠٠ غير ان تطلعه الى «كليوباترا» بالذات ، ما كان ليتجاوز تطلع الكلب الى طعام سـيده ، فهى رغبة ليس للوفى ان يوليها مجرد التفكير ، فما بالك بالارضاء والاشباع !٠٠ وقد كان الشاب وفيا لقيصر ، قانعا بأن يسير فى ظله !٠٠ وكان يزعم انه من سلالة « ديونيسوس » ــ الجد الاكبر للبطالسة ــ فبذل قصارى جهده ليتشبث بهذا الزعم٠٠ ذلك هو « مارك انتونى » !

وكان الشاب مثالا رائعا للشباب فى روما ، ولكنه ولا بد قد بدا الى جوار قيصر ــ فى عينى الملكة ــ مجرد فتى يافع ٠٠ فقد كان ، بالرغم من شجاعته وجرأته كمحارب ، نزقا متهورا، يستمرىء ان يذهل أهل روما بأن ينطلق فى الشوارع مستقلا عجلة تجرها الاسود ، وبأن ينشد أكثر أغانى الهوى فجورآ ، تحت نوافذ الآمنات من الحسان !٠٠ على ان شيئا من هـــذه النزوات لم يستهو كليوباترا ، اذ كان بصرها لا يعلق بغـير قيصر ، الذى راحت ترقبه ــ وطفلهما فى حجرها ــ وهو يمر بموكبه الحافل ، فى طريقه آلى الحرب ، وفى عودته منهـــا مظفرا ، وقد خفت روما بأسرها لاستقباله ٠ وكانت كليوباترا ترى الى جوار قيصر فى عربة النصر ، ذلك الشـــاب الضخم الجسم « انتونى » ٠٠ وفى عربة تتبعهما ، كانت الملكة ترى فتى شاحب الوجه فى الثامنة عشرة من عمره ، ذآ جبين عريض، وذقن دقيقة ٠٠ ذلك كان « أوكتافيوس » ابن أخت قيصر٠٠ والذى كان السخط يملأ جوانحه لانه وضع فى المكانة بعـد انتونى !

وكانت كليوباترا تمضى فى مراقبة الموكب : قيصر ، ثم انتونى ، ثم أوكتافيوس . ولعله لم يخطر ببالها قط انها كانت تشهد ـ خلال ذلك الموكب ـ فجر ، وضحى ، وغروب حياتها !.. لا ، لم يخطر ببالها ذلك ، اذ لم تكن تشعر بوجود أحد سوى قيصر ، ملك دنياها ، وأب طفلها !.. وكان ملكا فى الواقع ، لا ينقصه غير اللقب ، فى فترة لم يبق فيها لروما من الجمهورية سوى اسمها . فلما أقيم مهرجان النصر، اندفع « انتونى » فجأة من وسط حشد المحتفلين ، وقدم اليه ـ على مرأى من الملأ ـ تاجا رمزيا ، وهو يقول : « ان الشعب يمنحك هذا على يدى ! » .. ولكن الشعب جمد صامتا ، فلم يصفق الا عندما ألقى قيصر الرمز البغيض بعيدا ، وقال فى اقتضاب : « لست ملكا .. ولكننى قيصر ! »

وكان اذ ذاك فى السادسة والخمسين من عمره ، وقدواصل ارتقاء سلم المجد رويدا وفى تؤدة طيلة السنين التى انقضت من عمره ، فلم يكن من الغباء بحيث يضيع كل جهوده فى تسرعه للوصول الى القمة ، لاسيما وقد كان لايفصله عنها سوى عام واحد . اذ كان مقدرا ان يشن قيصر ـ فى ذلك العام ـ حملته الاخيرة على (بارثيا)

وظلت كليوباترا فى روما ترقب وتنتظر .. لقد ظفرت بالهدف الظاهرى لزيارتها للعاصمة الرومانية ، اذ اعترف المجلس النيابى (السينات) بها حليفة للجمهورية . وبقى الهدف الحقيقى .. بقى ان تعترف بها روما زوجة رسمية وبابنها وريثا شرعيا لقيصر !.. ولكن القانون كان يحرم على أبناء طبقة النبلاء الزواج من أجنبيات . وكان قيصر قد حمل (السينات) خلال ذلك العام على وضع والغاء كثير من القوانين، فقوبل عمله بتأييد من الشعب . ولكنه كان يدرك ان أى تشريع يقرب بينه وبين العرش ، كفيل بأن يثير عليه نقمة

روما ٠٠ وكان مضطرا الى الاحتفاظ برضاها ! وبنفس الروح والتقـــدير ، آثرت كليوباترا ان تنتظر ، فى صبر حكيم ، وبايمان وطيد بعشيقها !

ولكن أناسا آخرين فى روما توقعوا عين ما كان العاشقان يتوقعان ، وأدركوا ان انتصار قيصر على (بارثيا) برفعه فوق متناول غيرتهم ، ومن ثم أضمروا فى أنفســـهم أمرا ٠ وكان اليوم التاسع عشر من شهر مارس من سنة ٧١٠ رومانية ، قدحدد موعدا لرحيل قيصر ، فقرروا أن يعملوا قبل ذلك الموعد ، **وفيما كان قيصر يلج دار (السينات) فى الخامس عشر من الشهر ، اعترض طريق صـــديقه وحارســه « انتونى » أفراد عاقوه عن مرافقة القائد ، فواصـل هـذا سيره الى الداخل وحيدا ٠ وان هى الا لحظات ، حتى اندفع من المبنى فريق من الرجال المذعورين ، وهم يصيحون وقد ابيضت وجوههم : « لقد اغتيل قيصر !٠٠ مات قيصر ! »**

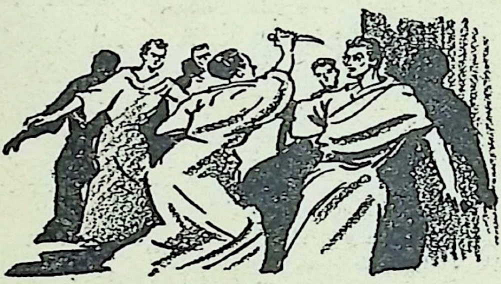

وران على روما صمت رهيب كذلك الذى يرين على غابة اذا ما هوت شجرة ضخمة ٠٠ حتى القتلة أنفسهم أحسوا بالوجوم والحيرة ، فى اللحظة التى خضبت دماء الفوز أيديهم !٠٠ ثم رفع « انتونى » عقيرته يدعو الشعب الى أن يثأر للمحارب الذى

اغتيل وهو أعزل !٠٠ واذ ذاك أفاقت روما من وجومهـــا ، فاندفعت تنشد الانتقام ، وقد استولى عليهـــا غضب جنونى جعل السفاكين ينشدون الفرار كالاغنام أمام الذئب الكاسر !

* * *

◆ **ولم** تشعر الملكة بلوعـة طاغية لفقد حبيبهـا ، وانمـا استولى عليها ذهول وفزع ، كاللذين يستوليان على شخص‌هم بأن يلج بيتا وطيد الاركان ، ففوجىء به ينهار بفعل صاعقـة مباغتة !٠٠ **أجل ، لم يكن حزنها على حبيبها بقدر حزنها على الامبراطورية التى ضاعت عليها بموته !٠٠ وكان أول ما اتجه اليه فكرها ـ حين أفاقت من الصدمة ـ ان السفاكين لن يدعوا ابن قيصر يعيش بعده ، ومن ثم أسرعت تحمل « قيصريون » عائدة به الى الاسكندرية ٠ واذا كان قيصر قد مات ، الا انه خلف شيئين لم يلحقا به : نفوذه وسلطانه فى روما ، وابنـه فى الاسكندرية !**

ولكن ، من ذا الذى يختطف السلطان فى روما ليصونه ، كما اختطفت هى الطفل لتحميه ؟٠٠ أهـو كاسيوس ، قاتل قيصر ؟! أم انتونى ، طالب الثأر له ؟! أم أوكتافيوس وريثه الشرعى ؟!٠٠ وظلت كليوباترا ترقب وتنتظر فى صبر ،والايام تمر ، والصراع من أجل الحكم ينقلب الى حرب أهلية ٠٠ فان كلا من كاسيوس وانتونى واجه الآخر متحديا ، بينما احتمى أوكتافيوس من الخطر ، فى انتظار سقوط المهزوم !٠٠ ولكن انتظاره كان أهـون من انتظار كليوباترا ، اذ راح كـل من الغريمين يطالبها بالعـون ، باعتبارها حليفـة لروما ٠ وكان انتونى قد أعلن على الملأ اعترافه بقيصريون ابنا لقيصر ، ولكن كاسيوس كان أقوى الغريمين ٠ ومن ثم حارت الملكة فترة ، لا تدرى أيهما تناصر ٠ ثم أمرت أسطولها فى النهاية بأن يخف

الى مساعدة انتونى ، ولكنه ارتد أمام أنواء عاتيه ، غريبة ، هاجت على غير موعد ٠٠ وأرسلت جنودها لمناصرة انتونى ، فاذا قائدها ينحاز الى كاسيوس ، دون ما مبرر ٠٠ ومن ثم أصبح فى وسعها ان تبرر موقفها للمنتصر فى أى الحالين !

وانقضى عامان قبل ان يستوى انتونى على قدميه فى النهاية ، وحمل الجواسيس الى كليوباترا أن كاسيوس قتل نفسه ، باليد التى طعنت قيصر ، فحققت الآلهة عدالتها !٠٠ ولكن أحدا لم يفكر فى قتل أوكتافيوس ، فكانت هذه حماقة الحماقات ! فقد تقدم الفتى يطالب بميراث خاله ، فزجره انتونى فى ازدراء ، ثم قبله — فى احتقار — كعالة أو عاطل يسير فى ركابه ٠٠ أفما خطر ببال انتونى اذ ذاك ان الحليف المهين المزدرى أشد خطرا من العدو المنتصر ؟٠٠ أفما فكر فى ان أوكتافيوس هو الوريث الاوحد لقيصر ، فى نظر القانون الرومانى ؟

وقبعت كليوباترا ترقب انتونى وقد تحول يقسم ما خلفه قيصر من سلطان ، فأعطى روما لاوكتافيوس ، وخص نفسه بالشرق ٠٠ حلم قيصر الخرافى !٠٠ وازداد اهتمامها بانتونى ، وهى تسائل نفسها : « أتراه ألقى للفتى بروما لانه أضمر فى نفسه ان لا يجعلها أكثر من عاصمة مغمورة فى ملك واسع ؟ » ٠٠ وخيل اليها آن انتونى اعتزم ان يربط خيوط القدر التى جمعها قيصر ، بعد ان قطعها خنجر الغدر ؟٠٠ **وبالفعل ، لم يلبث انتونى ان سار بجيوشه الى الشرق ، ولكنه لم يتقدم جائحا مظفرا — كما فعل قيصر من قبل — وانما سار فى موكب مترف ، محمولا على محفة ، محوطا بالممثلين والراقصات !٠٠ كان يتصرف كفتى غرير ، ورث أبا صارما قاسيا ، فما ان تخفف من سورة الاسى ، حتى انتشى بتحرره ، فاندفع وراء الملذات !٠٠** ومع ذلك ، فقد كانت قوة قيصر العسكرية فى

حوزة انتونى • واذا كانت تعوزه القوة العقليـة ، أفليس فى وسع كليوباترا ان تمده بها ؟

وظلت ترقبه وهـو يتقدم نحـو الشرق ، ثم يحط فى (طرسوس) ، ويدعو ملوك الشرق وأمراءه ليقدموا له فروض الطاعة والتكريم ، بوصفهم تابعين لروما • ولكن كليوباترا لم تشأ أن تذهب اليه ، فقد كانت عاهلة مملكة لم تخضع لروما يوما ، ولو خضوعا اسميا •• كما أن انتونى لم يكن - لقيصر - أهلا لطاعتها ، لا كملكة ولا كامرأة !

وأرسل انتونى يستدعيها ، فلم تلب ، وانمـا طلبت الى جواسيسها أن يوافوها بأنباء عن « فولفيا » ، زوجـة انتونى الثانية • وما لبثت ان عرفت انها كانت شابة لا مطمح لهـا سوى « ان تحكم من كانوا يحكمون ، وان تمسك بأزمة قادة الجيوش » !•• وقالوا انها كانت تعامل انتونى كمـا لو كان حزبا سياسيا ترجو ان ترقى على أكتافه الى الحكم ، وانهـا كانت تزجره فى خشونة اذا أخرجه الهـوى عن اتزانه !••

وأيقنت كليوباترا انه لم يكن على شاكلة قيصر • فلمـا كرر دعوتها ، أصرت على موقفها • وكانت منـاورة خطرة ، اذ كان انتونى يملك من القوة الحربية ما يمكنه من خلعها عن عرشها ، ولكنها كانت تشعر بأنه غير واثق من قوته الى الدرجـة التى تمكنه من الاقدام على استغلالها • وكانت معتدة بأنها الحاكم المطلق لمملكة عظيمة ، فلا ينبغى ان تحفل لزئير قنصل رومانى ، بل ان الاعراض لن يلبث ان يلين قناته !•• وصحت نظرتها ، فلم تنقض ستة أشهر ، حتى انقلبت أوامر انتونى الى رجاء ، وأوفد لها رسولا من النبلاء ، قال ، عندما احتجت بأنها ليست تابعة لانتونى : « تابعة ؟ •• من قال آنك - ياملـكة الملوك ، وياسيدة نساء العالمين ! - ذليلة عند قدمى منتصر ؟•• انما ينتظرك مارك انتونى فى اجلال ، وفى شوق ، لبستقبلك ••

لا كتابعة ، ولا كملكة ، بل كربة من الربات ٠٠ إذ لن تكتمل سعادته ، رغم ظفره ، الا اذا شرفته بمقدمك ! »

وتلكأت كليوباترا شهرين ، ثم أبحرت الى (طرسوس) ٠ وفى ذات أصيل ، فرغ مارك انتونى من « اقامة العدل الرومانى » فى سوق طرسوس ، — على مشهد من الامراء ، وعلية القوم — واذا بهمسة تسرى فى القوم ، فيتسللون فرادى ، ثم زرافات ، ليهرعوا الى الميناء ٠ وتناهت الهمسه الى مسمع انتونى هو الآخر : « فينوس !٠٠ ان فينوس قادمة بنفسها على البحر فى سفينة من ذهب ، تحف بها غلالة من عطر وموسيقى ! » ٠٠ **ولم يتمالك ان تبع القوم الى الميناء ، فاذا سفينة صنع مقدمها من ذهب مطروق — انعكست عليه أشعة الشمس الآفلة — وأشرعتها من حرير أرجوانى ، ومجاذيفها مكسوة بالفضة ٠ وكانت تتهادى وكأنها طيف من سحر الشرق !٠٠ وعلى أريكة من عاج ، تحت مظلة من الديباج ، استلقت — على حشيات متعددة الالوان — امرأة كأنها تمثال مرصع بالجواهر ٠٠ تلك كانت فينوس !٠٠ ايزيس المصرية، فى ثوب أبيض ، وعلى رأسها تاج من ذهب صيغ على شكل أوراق اللوتس ، وقد حفت بها عذارى فى ثياب بيضاء هفهافة كأنها زبد البحر ، يلوحن بمراوح من ريش النعام والطواويس، ليبددن الهواء المثقل بالعطور ٠٠ بينما جثمت عند قدميها عازفات من الجوارى السود ، يوقعن على المزامير والقيثارات !**

* * *

٭ وبهر الجمال بصر انتونى ، فكأنما كان يرى معجزة !٠٠ وازداد لغط القوم على أرصفة الميناء ٠٠ وهتف واحد أو اثنان فى سمعه : « هذه أفروديت تصعد من البحر ، وتفد فى جلالها الى ديونيسوس ! »

« أفروديت » و « ديونيسوس » ! ٠٠ وسرت رعشه انفعال خلال عضــلاته التى استرخت فى غمرة العجب ، ثم فطن الى كرامة مركزه ، فعاد الى القصر ، وراح يصدر الاوامر محموما ، كى تتناول « الربة » عشاءها عـلى مائدته فى تلك الليلة !٠٠ ولكن كليوباترا لم تكن ترى رأيه ، وانما شــاءت أن يسعى القنصل الى الملكة بنفسه ٠٠ وسرعان ما صرخ فى عبيده كى يلفوه فى أجمل ثياب القادة الرومان ، وان يعنوا بزينته حتى غدا فى أبهى آيات الجمال ، ثم اتخذ طريقه الى الميناء !

وكانت السفينة قد انسابت الى الميناء ووقفت فى جلال ، تنبعث أنوارها من مصـابيح انبثت فى آرجائها ــ من القـاع حتى الصارى ــ فبددت الظلمة التى رانت حولها ٠ وكانت ثمة أضواء تنبعث فى الجو كالشهب ، فتختلط بأضواء النجوم ٠ وتحت مظلة متلألئة الانوار ، أقيمت مائدة من الخشب النفيس، حملت أطباقا ذهبية وكؤوسا مرصعة ٠٠ وفرش سطح السفينة بأكداس من الورود الحمراء

وهكذا التقى انتونى وكليوباترا ، فأخذ كل منهمـا يرمق الآخر والاضواء الباتقة تنبعث حولهما ، فيعكس بريقها حمرة الورد المكدس عند أقدامهما ، لتتصاعد كأنها وهج اللهب !٠٠

وكان كل منهما قد رأى الآخر مرارا من قبل ، ولكنه لم يبصره قط فى الشكل الذى تجلى به اذ ذاك ٠ فبالنسبة لانتونى ، لم تعد كليوباترا الملكة المحرمة عليه ، التى كان يرمقها يوما خلسة من وراء قيصر ، وانما كانت امرأة مشتهاة دون كل النساء !٠٠ أما كليوباترا ، فلم تر فيه الشاب النزق ، الماجن ، الذى كان ينطلق فى شوارع روما عارضا مباذله ، وانما رأت فيه جنديا عظيما ، ورجلا فوق كل الرجال ٠٠ لا فى روعة الجسد فحسب، وانما فى خشونة الجندى المحارب أيضا !

وكانت كليوباترا امرأة شرقية ، فى أوج نضوجها العاطفى،

ولكنها كانت ملكة كذلك !٠٠ ولقد أحست ان جسدها ينجذب الى انتونى فى شوق أعتى من الذى كان يجذبها نحو قيصر ٠ ولكنها ـ كملكة ـ كانت قادرة على أن تسيطر على مشاعرها ، وان تتبين ان انتونى لم يكن من نوع قيصر ٠٠ كان الاستسلام لقيصر يعنى الحمى والامان ، أما الاستسـلام لانتونى فقد لا يجعل منهـا أكثر من محظية جديدة تضم الى متاعـه فى أسفاره !٠٠ ومن ثم نأت عنه ، لتستدرجـه الى قصرها فى الاسكندرية ، حيث تستقبله كملكة ، فتريه من مظاهر الثرا والترف ما لم تحلم به روما يوما ، ولتعرض عليـه من مظاهر السلطان المطلق ما يفوق كل ما يطمع فيه « قنصل » رومانى !

ووافاها الرجل فى الاسكندرية ، فى ذلك الشتاء ، فطاب لها أن تفرض سلطانها عليه ، بأن تذيقه حبـا أشهى من كل ما ذاق من قبل ٠ ومن ثم أسلمته نفسها !٠٠ ولم يكن انتونى يعرف المكر والدهاء ، وانما كان ـ برغم قوته ـ ساذجا ، فاذا سذاجته هذه تغلب دهاءها ومكرها ، واذا مقاومتهـا تتداعى بعد أن طوى جسده الضخم القوى عودها الاهيف النحيل !٠٠ **وما لبثت كليوباترا « الملكة » ان أصبحت فى أحضان «انتونى» مجرد خليلة ٠٠ بل محظية تفتن فى ابتداع ألوان الخلاعة كى ترضيه ! ٠٠ ونسيت طموحهـا وكرامتها فى دفء الشـهوة العابثة ، وأصبحت لا تبرح جانبه فى النهار ، وهى تتيه زهوا بأنه عشيقها ٠ فاذا جن الليل ، شاركته ما كان يروق له من ألوان اللهو الصاخب ٠ فكانت تنطلق معـه ـ متحجبة ـ فى شوارع المدينة ، فيدق الاثنان أبواب النائمين ، ويترددان على حانات الملاحين ، ويشربان ويصخبان ، ويهيمان فى حدائق (سيراميكس) حيث كانت الف وخمسـمائة غانية يبذلن أنفسهن تقربا الى ربة الحب !**

وفى تلك الاثناء كانت ثمة مأساة تنشر أهوالها فى روما ٠

فان « فولفيا » ـ زوجة انتونى القوية الشخصية ، الطموح ـ رأت أن الفرصة قد نضجت لتحقيق أطماعها ، فعولت على أن تشاطر « أوكتافيوس » سلطانه . ولما كان انتونى بعيدا ، فانها لم تتردد فى أن تعمل بنفسها على تحقيق مطمعها ، لاسيما وان « أوكتافيوس » لم يكن ذا مكانة شعبية ، فضلا عن انه كان يتخبط فى المتاعب ، بين جنود لم يكونوا يحصلون على مرتباتهم ، ورعايا يتنكبون دفع الضرائب .. كانت الظروف مواتية لفولفيا ، لا لتتسلط على « أوكتافيوس » وحده ، بل لتوقف جموح انتونى أيضا . فما دربته على الطاعة من قبل ، لتترك امرأة سواها تجنى ثمار خضوعه !.. ومن ثم جمعت فرق زوجها فحاربت بها أوكتافيوس ، وانتزعت منه ثمانى عشرة مدينة ، واذ ذاك ضجت روما ، وألحت على انتونى أن يعود ليضع حدا للحرب الاهلية . وكان خليقا به ان يتهالك على ما كان فيه من ترف ولهو ، لولا ان كليوباترا رأت انه قد نال ما يكفى لضمان عودته الى النبع ، فراحت تستحثه على العمل ، ليحقق ما كان قيصر يصبو اليه !

ولما كان انتونى قد اعتاد الصدوع بأوامر النساء ، فانه بادر الى ارضاء الملكة التى كانت تحمل ـ فى تلك الآونة ـ ثمرة حبهما فى أحشائها !.. ومكثت كليوباترا فى الاسكندرية تنتظره ، لا يراودها قلق ما من ناحية أوكتافيوس ، وان تملكتها المخاوف من ناحية « فولفيا » المسترجلة التى حذقت فنون السيطرة على الرجال ، برغم خلوها من الفتنة . بيد ان هذه المخاوف سرعان ما تلاشت ، اذ أن فولفيا ماتت قبل ان يصل انتونى الى روما . ومن ثم اطمأن بال كليوباترا . وان هى الا أشهر قلائل ، حتى وضعت توأمين : الاسكندر ، وكليوباترا !

* * *

◆ وفجأة ، انقلب أوكتافيوس الشاحب الى غريم خطر ، اذ

طرح عنه استخذاءه وحياءه ، وغدا - وقد بلغ الرابعة والعشرين - قادرا على مقاومة ضعفه وتخاذل رجاله . فلما التقى بانتونى ، بسط له يده فى ود ، وابتسم فى رياء ،ودعاه للانكباب على العمل معه . أفلم يكونا شريكين فى ميراث قيصر ؟.. بل انه أضفى عليه ألوان التكريم ، وترك له الامجاد العسكرية ، قانعا بأن يظل فى المؤخرة ، يمده بالعون من روما . وابتسم أوكتافيوس - فى عطف الرجل الذى يدرك أسرار البشر - حين ورد ذكر الساحرة المصرية ، وراح يذكره بأن للرومانى ان يعاشر النساء كما يشاء ، ولكن .. ليس لرومانى ان يتزوج من أجنبية ، أو أن يضفى صبغة شرعية على أبناء سفاح أنجبهم وقيصر منها !.. ثم ، ألا يجوز ان يكون ثمة خير أراده القدر ، اذ توفيت زوجة انتونى ، وتوفى زوج أخت أوكتافيوس - ابنة أخت قيصر - فى آن واحد ؟.. ومن أجدر من انتونى وأوكتافيا وأوكتافيوس بتأليف الثالوث الذى يحق له ان يخلف قيصر فى حكم امبراطورية روما !

وأشرق ذهن انتونى الساذج بحلم جديد ، رأى فيه نفسه يخلف قيصر فى أمجاده ، وينجب أسرة حاكمة يمتزج فيها دمه بدم قيصر .. أسرة انتونى وأوكتافيا ! أما أوكتافيوس ، فله معه حساب آخر اذا ما انتصر فى آسيا الصغرى ، واستحق من الشعب تمجيدا يفوق ما حظى به قيصر نفسه

وجاء تخليه عن كليوباترا طعنة أحدثت فى قلبها جرحا أقسى مما أحدث موت قيصر .. جرحا سممته الذلة والغيرة ! .. فهو لم يزح عن طريقه ابن قيصر فى سبيل زهوه الخاص فحسب ، وانما استهان أيضا بكل المباهج المشبوبة التى حظى بها كل منهما فى أحضان الآخر ، وتنكر فى غير اكتراث للعهد الذى قطعه بالزواج منها !.. ولزمت الملكة مخدعها مريضة ، سقيمة ، تعاف الاكل ، وتأبى الكلام ، وتحترق كمدا وغيظا .

ولكن عواطفها المكدودة ما لبثت ان خضعت لقوتها الذهنية ٠٠ لقد كرهت انتونى بكل ما أوتى جنسها من قدرة على الحقـد الاسود ، ولكنها كانت لاتزال تعجب بشجاعته وقوته وحيويته، فلماذا لا تفيد من هذه الخلال ؟! ٠٠ ان أوكتافيا الرقيقـة ، الناعمة ، الذلول ، لايمكن ان تسيطر عليه ، كما ان أوكتافيوس لا يستطيع ان يقف فى وجهه ٠ ومن ثم فهنـاك أمل فى ان انتونى لن يلبث أن يعود الى الشرق ، حيث يغدو سيدا على كل فرد الا نفسه ! ٠٠ ومن ثم نفضت كليوباترا عنهـا سقامها ، وأوفدت « سوسيجينس » ـ العالم الفلكى الذى كان يستقرىء النجـوم طالع الملكة ـ الى انتونى الذى كان كمعظم الرومان يؤمن بالطوالع والخرافات !

وكان انتونى قد بدأ يمل مفاتن أوكتافيا ـ بعد اذ عاشرها ثلاث سنوات ـ وبدأ يضيق بأوكتافيوس الضعيف ، الجبان، الذى كان يتقدمه فى الاوضاع الرسـمية ، ويكسب ماله فى الرهان ٠ واسـتطاع الفلكى المصرى ـ الذى كان منهمكا فى رصد النجوم ـ أن يجد نجمين أحدهما باهت الضوء ، فأوعز الى انتونى بأنهما يشيران الى أن عبقرية أوكتافيوس تهـدد عبقريته ، ومكانة أوكتافيوس تنافس مكانته ٠ ورأى انتونى النجمين بعينيه فآمن ! ٠٠ وتأرجح بين الاقدام والتردد ، الى أن قدر لاهل (بارثيا) أن ينتقضوا من جديد على سلطان روما ، فصدهم قائد من رجال انتونى ٠٠ وهنا تكشف لبصيرة انتونى طريق المجد ٠٠ انه فى (بارثيا) ، حيث تأهب لاخضـاع المتمردين ٠ ووعده أوكتافيوس بأن يوافيه بالامدادات ، ولكنه لم يكد يستقر فى (انطاكيه) حتى أدرك ان العون الموعود من أوكتافيوس لن يصل ، كما أنه لم يجد أملا فى الحصول على عون من الاهالى ، اذ كانت روما قد امتصت مواردهم ٠ واذ ذاك تذكر الاسكندرية وترفها الباذخ ، فغالب حمرة الخجل ، وكتب

الى الملكة يسألها ان تمده بالمال ، ولكنها رفضت فى اقتضاب ٠٠
فقد كان انتونى أشبه بسفينة بديعة ، ولكنها تفتقد الربان الذى يتحكم فى اتجاهاتها ، ومن ثم جرفتها ريح الغرور !٠٠ وما كانت كليوباترا لتأتمن سفينة كهذه على شحنة حبها وطموحها ، الا اذا أمسكت دفتها !

وفطن انتونى ـ عند هذا الرفض ـ الى أن كليوباترا لم تكن خاضعة لروما ، وانما كانت ملكة ناصرت قيصر ووقفت الى جواره فى المعركة ٠٠ وانها كانت ـ كامرأة ـ ندا لسليل « ديونيسوس » فى فجوره وعواطفه المتأججة !٠٠ وجرفته ذكريات « فاتنة النيل » ، فما لبث ان اختار ـ بعناية ـ رسولا ذا دهاء ولباقة ٠ وكانت كليوباترا على استعداد لان تصغى الى ضراعات الهوى ، بعد أن بلغت ـ فى الثالثة والثلاثين ـ أوج بهائها البدنى ، وذروة دهائها الفكرى ٠ ولما كانت تدرك ان انتونى لن يلبث ان ينسى أوكتافيا وأوكتافيوس وهو معها ، فقد خفت اليه فى (انطاكية) ٠ ولم تصطحب ابنه وابنته ، وانما اصطحبت قيصريون ، الذى كان قد بلغ الثانية عشرة من عمره ، وبدا انه ورث عن أبيه نحوله وانتصاب قامته ٠ وهكذا ذهبت اليه كأم قيصريون ، أكثر منها كعشيقة قائد رومانى .

* * *

* ولم ينقض يومان على وصولها ، حتى صفع انتونى زوجته الرومانية ، بأن تزوج من الملكة المصرية ، وسجل الاثنان زواجهما على عملة مصرية تحمل رسميهما ٠ وقدم الرومانى للمصرية ولاية فينيقيا وشطرا من سوريا صداقا ، فقدمت له امدادات عسكرية هدية زواجهما ٠٠ ولكن رباطهما هذا كان خليقا بأن يسوق أسلاب حرب (بارثيا) الى الاسكندرية بدلا من روما !

وكان انتونى قمينا بأن يكسب الحرب ، لولا ان الجذوة التى أذكتها كليوباترا فى نفسه بهرته بدلا من ان تستحثه٠٠ فقد أضرمت العودة سعار شهوته ، فراح يتعجل سير الحرب ليسارع الى فاتنته !٠٠ ولم يمهله التسرع حتى يدرس فنون رماة العدو الفرسان ، الذين استدرجوا جيشه الى أرض لا عهد له بها ، ففقد خيرة جنوده ، وعتاده ، وثقته بنفسه ٠ ولكن كليوباترا ردت اليه كل هذا ، اذ كان أوكتافيوس قد فاز فى حرب ضد أبناء « بومبى » فى روما ، ففطنت كليوباترا الى الخطر ، وراحت تجند كل قادر فى مصر ، وتنفق عن سعةفى تجهيز الجيوش ٠ وحفزت انتونى على أن يوقع بملك ارمينيا هزيمة ساحقة ــ لانه لم يعاونه ــ قبل ان تبلغ روما أنباء ما ما انتهت اليه حرب (بارثيا) ٠٠ **وانتصر انتونى ، وأسر ملك ارمينيا نفسه ، واذ ذاك رأت كليوباترا ان الفرصة سانحة لتنبه روما الى أن مجدها أوشك على الافول ليشرق على الاسكندرية ، ولهذا أعدت لانتونى استقبالا على غرار استقبال روما للمظفرين ، فبهتت العاصمة العجوز ٠٠ ومع انها لم ترهب رجلا منذ عهد هانيبال ، الا انها بدأت ترهب هذه المرأة !٠٠** ولم يتمالك أحد أعصابه ، اللهم الا أوكتافيوس الذى مضى فى بناء السفن وحشد الجنود ٠ ولكنه فوجىء بعد أيام بأربعة رؤوس تتوج فى آلاسكندرية ٠ فقد تلقى قيصريون اليافع تاج مصر المزدوج كشريك لأمه فى ملك مصر ٠ وتوج ابنا انتونى ــ اللذان لم يتجاوزا السادسة ــ ملكا لارمينيا وملكة لليبيا ، كما توج بطليموس ــ ثمرة اجتماع انطاكية ــ ملكا على فينيقيا !٠٠ وامتلأ قلب انتونى غبطة اذ أصبح أولاده الثلاثة ملوكا ، بينما انتشت كليوباترا وهى ترى قوة رومافى اضمحلال ، ونواة امبراطورية جديدة تتبلور فى الاسكندرية !

ولم يخرج أوكتافيوس عن ثباته أمام أهل روما، وان راح يعطر

انتونى بخطابات العتاب . ولكنه ما لبث ان فطن الى أن روما عادت تستريب فى رجولته ، فكف عن العتاب ، وتحول يفكر فى القضاء على مكانة انتونى فى روما !.. وكان يعلم ان القائد أودع وصيته خزائن معبد (فيستا) قبل رحيله الى الشرق ، فطلبها ، ولكن كاهنات المعبد العـــذارى أبين ان يفرطن فى الامانة ، فمـا كان منه الا أن تجاسر واقتحم المعبد وانتزع الوصية عنوة !.. ونهض فى مساء اليوم نفســـه فى مجلس (السينات) ليتكلم لاول مرة ، فقرأ الوصية التى اعترف فيها انتونى بابن ســفاح أجنبى ووريثا شرعيـــا لقيصر . ثم ذكر أوكتافيوس كيف ان انتونى، المواطن الرومانى ، اعترف بأجنبية زوجة له ، ووزع الولايات الرومانية على أبنائها ، منتهكا بذلك حرمة قوانين بلاده . ولم يقصر أوكتافيوس اتهامه على انتونى، بل رمى « الساحرة المصرية » بأنها أحالت ـ بفنون السـحر الشرقى ! ـ مواطنا رومانيا الى وحش مصرى !

وهكذا جرد أوكتافيوس غريمه من أمجاده ، واتجه الى معبد (بيلونا) ، فانتضى رمح الحرب الاكبر ، وطوح به فى اتجاه أرض مصر !.. وطربت كليوباترا ، فقد آن لها ان تتخلص من الانتظار الطويل الممل ، والقلق الممض . وتأهبت أكبر دولتين متحضرتين فى العالم لصراع لابد من ان تهلك خلاله احداهمـا حتى تهدأ حدته . وبينما انصرف انتونى الى اعداد الجيوش، ابتاعت كليوباترا كميات هائلة من المؤن والعتـــاد ، وجهزت أســطولها المؤلف من مائتى بارجة ثقيلة ، ومئـــات البوارج الخفيفة !

وأبحر الاسطول الهائل بعـــد عام الى ميناء (افيسوس) اليونانية ، ليلتقى بأسطول روما . وكانت كليوباترا الى جانب انتونى على سفينة القيـــادة !.. وكان مقررا ان تبدأ عنـد (افيسوس) معركة الســيادة والسلطان بين الاسكندرية

وروما ٠٠ بين الشرق والغـــرب ! وما ان رأى قادة انتـونى معسكر كليوباترا بخيامه الحريرية ، ومارك انتونى مســتلقيا بين الحشيات والوسائد ، حتى قلبوا شفاههم امتعاضا ٠ فلما عقدوا مجلسهم عارضوا فى وجود كليوباترا ، ولكنها ثارت فى وجوههم تذكرهم بأنها أدارت حكم مملكة كبيرة سنوات طويلة، وبأنها تولت تمويل الحملة ٠ واقترحوا الزحف على ايطاليا ، مستغلين متاعب أوكتافيوس المالية ، ولـكن كليوباترا أصرت على انتظار الغريم اذا ما بلغوا (افيسوس) ، اذ كانت تخشى أن يفلت انتونى من قبضتها اذا ما وطأت قدماه أرض روما ، لاسيما وان أوكتافيا كانت هناك !٠٠ **ولكن انتوني شــاء ان يثبت لها ان أوكتافيا لم تعد ذات مكانة لديه ، فأوفد رسـلا الى روما يطردون زوجته المهجورة من داره ٠ واذ ذاك ، فقــد انتونى آخر صديق له فى روما ، كما أعرض عنه قادة جيشه استهجانا ، وهجره منهم كثيرون !**

وهكذا كانت الفرقة قد دبت فى صــفوف جيش انتونى ، حين اتجه مع الملكة ومن بقى فى صفهما من القادة الى اليونان، حيث كانت قواتهم تحتشد على الشاطىء الغربى ٠ وزاد الطين بلة ، انهم وجدوا أوكتافيوس قد بدأ زحفـــه ، ففوت عليهم فرصة غزو ايطاليـــا ٠ ثم دب الخـــلاف بين جنود انتونى الرومانيين ، والقوة البحرية المصرية ، اذ راح الرومان يصرون على أن تدور المعركة فى البر ، بينما أصرت كليوباترا عـلى أن يدور القتال فى البحر ٠٠ وبات انتونى بين الفريقين حائرا ، مشتتا ، تعسا !٠٠ وازداد شقوة وقنوطا ، حين اكتشف ان أتباعه وأصدقاءه غـــدوا جواسيس لاوكتافيوس عليـــه ، أو غادرين يقودونه الى الدمار ، أو استغلاليين يطمعون فى انتزاع القيادة ! ٠٠ ثم تولاه شك اسود قاتم ، وسوس اليه ان الملكة ذاتها كانت تبيت الغدر والخيانة ، وتعتزم أن تشترى الصلح

مع أوكتافيوس برأس انتونى !٠٠ واستبد به الشك حتى صور له انها تعتزم أن تدس له السم ، لتخطو على جثته الى أوكتافيوس ، كما خطت على جثة قيصر اليه هو ٠٠ انتونى ! ومن ثم راح يرقب حركاتها كلما ضمته واياها مائدة ،وأصبح يرفض أن يمد يده الى طعام أو شراب حتى تصيب هى من نفس الطعام أو الشراب أولا !

★ ★ ★

• **وقرأت** كليوباترا مخاوفه مسطورة على جبينه ، فأدركت الخطر ٠٠ لاسيما وانها كانت تدرك ان ليس فى معسكرهامن لا يصدع بأمره اذا هو أراد أن يتخلص من ملكة مصر ٠ولكنها كتمت الامر فى نفسها ، حتى اذا اجتمع القادة على مائدتهما ذات مساء ، اقترحت أن يشرب الجميع نخب القائد ، ثم تناولت زهرات من شعرها فأسقطتها فى كأسه وهى تقول باسمة : « لنشرب فى حبنا خمرا وزهرا ! » ٠٠ واذ رآها

تشرب من الكأس ، اطمأن ورفعها الى شفتيه ٠ ولكن كليوباترا أمسكت بذراعه ، وأمرت باحضار سجين دفعت اليه بالكأس، فلم تستقر الخمر فى جوفه ، حتى هوى ميتا ٠ واذ ذاك ابتسمت

الملكة لانتونى قائلة : « أرأيت كيف ان من السـهل على ان أقضى عليك ·· لو اننى شئت ؟ » ·· وبهذا عرضت شكوك انتونى فيها على قادته ، وأقنعتهم - برغم كراهيتهم لها - بأن يقروا ببراءتهـا من كل ريب !·· أما أنتونى ، فبدا كأنه استيقظ من كابوس فظيـع ، واستسلم لسلطانها كما لم يستسلم من قبل !

ولم يأت شهر أغسطس ، حتى كان أوكتافيوس قد اتخـذ معسكرا عند خليج (امبراشيا) ، بينما عسكر انتونى جنوبا عند (اكتيوم) · واستقر الاسطول المصرى الضخم فى الخليج، بينما راح أسطول روما يحوم حول الخليج دون ان يحـاول محاصرة مدخله · ومع ذلك أبت كليوباترا ان تدور المعركة على البر ، اذ كانت تخشى أن يبعد انتونى عن عينيها ، فيخضـع لنفوذ ضباطه الرومان ، الذين كانت رومانيتهم تغالبهم · وما لبثت البوارج المصرية الضـخمة ان تسللت الى عرض البحر تاركة « انتونياد » - سفينة القيادة - فى الخليج تحمل الملكة، وتحرسها السفن الخفيفة · ولم يكن فى وسـع كليوباترا ان تتبع المعركة بسهولة من مرسى السفينة فى الخليج ، ولكنها كانت تسمع ارتطام القذائف بالسفن ، وترى النار ، وتشم الدخان ورائحة اللحم الآدمى المحترق !

ومرت الساعات وهى تنتظر ، ولا أحد يحمـل اليها أنباء المعركة · وأخذ القلق يفرى فؤادها ·· ساعة وراء سـاعة ، وهى لا تدرى أكان انتونى حيا أو ميتا !·· ساعة وراء ساعة وهى تجلس كالحبيسة ، لا ترى من المعركة سوى دخان اسود أخذ ينعقد فى كبد السماء · وطافت بخاطرها صورة الدخان الذى تصاعد من المحرقة المقدسة ، عندما أحرق جثمان قيصر، فتداعى جلدها واذا بها لا تحفل أعاش انتونى أو قتل ! فقـد اتجه كل همها الى أن ابن قيصر غـدا مهددا من أولئك الذين

كانوا يستغلون اسم قيصر ، كما كان مهددا ممن أراقوا دماء قيصر منذ سنوات ٠٠ كان قيصريون وحيدا فى الاسكندريه ، وليس ثمة من يحميه !

ولم تنتظر حتى تنتهى المعـــركة ، بل نشرت « انتونياد » قلاعها فجأة ، وتسللت من الخليج منطلقة نحو الجنوب ،تتبعها سفينة المال والعناد ٠ ولاحظت البوارج المقاتلة الاخرى الامر، فدب الاضطراب فى صفوفها ٠ ولمح انتونى سفينة قيادته تفر، فأحس بالامل يفر معها ، ولم يعد يحفل بشىء سوى انلايمكث وحيدا فى المعركة ، فقفز الى احدى السفن الخفيفـــة ، وترك المعركة ليلحق بانتونياد !٠٠ ولم تخفف السفينة الضخمة من سرعتها فى البداية ، ـ وكأنما لم يصدق من كانوا عليهـــا عيونهم ! ـ ولكنها ما لبثت ان انتظرت حتىلحقت بها السفينة الصغيرة ، وصعد انتونى الىسطحها ، فسار متعثرا الىمقدمتها، وارتمى على أحد المقاعد وهـــو مشتت الحواس ٠٠ لقـد ذاق الهزيمة من قبـــل ، ولكنه لم يعرف قط الفرار من معركة لم يتقرر مصيرها بعد ، ولا أقدم يوما على التخلى عن الرجالالذين كانوا يحاربون من أجله !

وظل فى مجلسه طوال الليل والنهار التالى ، وقد اعتمـد رأسه بين يديه ، وعزف عن كل حركة أو كلام أو طعام ،بينما كان اللهب يتصاعد خلفه من أعظم أساطيل العالم ٠ وانتبهفى الليلة الثانية الى الشىء الوحيد الذى تبقى له ٠٠ الى اليـــد التى أيقظته ـ قبل المعركة ـ من كابوس الشك ٠٠ ولكنـه أفاق هذه المرة من واقع أليم كان هو السبب فيه !٠٠ وبينما كان جيشه ما يزال ينتظره فى اليونان ليقوده فى المعركة ـ غير مصدق انه فر وتخلى عنه ـ لجأ هو ، فور وصــوله الى الاسكندرية ، الى حصن على الشاطىء ، حيث افترش الارض وهو يشـعر بأن قوته الحربيـة كانت تتسلل من بـين يديه وتتبدد فى الرمال !

أما الملكة ، فقد اطمأنت الى أن أوكتافيوس لم يؤت الشجاعة على أن يتبعها الى المياه المصرية فى فصل الشتاء ٠٠ الا أنهـا أقبلت تحصن العاصمة التى كانت تدرك انها لن تدافـع عن نفسها ٠٠ وأهابت بولاة الاقاليم التابعة لها كى ينضموا اليها، ولكنهم ولوا وجوههم شطر أوكتافيوس !٠٠ وحاولت انقـاذ ماتبقى من الاسطول ، بجر السفن على عجلات الى البحر الاحمر، ولكن القبائل الصحراوية أغارت على تلك السفن ٠ وأدركت كليوباترا ان النهاية قد حانت ، وان مملكتها كانت تتحطم بين يديها ، اذ أن كراهية الناس لها طغت على كل شعور وطنى لديهم ! **ومن ثم أمرت ببناء صرح لها ، وعهدت الى أطبائها باعداد سم ينقلها من الحياة فى رفق ، ويبقى على جمالها ٠ فما كان ينبغى أن يراها أوكتافيوس ذليلة فى الحياة ، ولا مشوهة فى الموت !**

كانت النهاية تقترب ٠٠ نهاية كل شىء ٠٠ حتى ذلك الغرام الاهوج الذى ربط بينها وبين انتونى !٠٠ فقـد احتقرت قوته بعد اذ تبينت أنها مجرد قوة بدنية ، كما كره هو أنوثتها التى كانت أقوى من رجولته فأخضعته لسلطانها !٠٠ وعاد الشك يراوده فى ان طموحها كان أقوى من حبها له ، كما استبانت هى ان حبه كان أضعف من عزيمته !٠٠ ومن ثم تجاهل كل منهما صاحبه ٠ ولكن الهم واليأس ثقلا على نفس انتونى ،حتى اضطراه الى أن يسعى مرة أخرى الى المرأة التى أسلمها قياده ٠ وكما لقى كل منهما الآخر فى الحمرة المنبعثة من الورود ،وقد انعكست عليها الاضواء ـ فى بداية هواهما ـ التقيا هذه المرة فى لهب الغضب الذى ما لبث أن صهرهما ، فعادا من جديد٠٠ رجلا وامرأة ٠٠ يواجهان النهـاية معا !٠٠ واذ أدركا انهـا النهاية ، راحا ينشدان العزاء فى الضحك والخمر والموسيقى والحب !

* * *

• وفى أوائل الربيع ، أقبل أوكتافيوس يغزو الشرق ، فاستجمع انتونى شتات شجاعته ـ رغم فوات الفرصة ـ وألقى بنفسه فى المعركة على رأس من تبقى له من رجال . وراح يجرب فنون القتال التى يعرفها ، ولكن الهزيمة كانت تلاحقه، حتى اضطرته فى النهاية الى أن يلتمس من غريمه ان يدع كليوباترا على عرشها ، فى مقابل ان يعيش هو منفيا مابقى من عمره . ولكن رغبة أوكتافيوس فى الثأر لم تدع له سبيلا الى الرد !

وسقطت (بيلوزيوم) ، فأرسلت الملكة الى الغازى تعرض عليه قدرا كبيراً من الذهب ، وتقترح ان تنزل عن العرش وتعيش منفية مع انتونى ، على أن يظل تاج مصر لقيصريون . وقبل أوكتافيوس الذهب ، ثم ارسل يقول : « لتسلم الملكة انتونى حيا أو ميتا ! » .. ولم يبق للملكة سوى أمل واحد ، فنقلت كل كنوزها الى سفينة ، أجلست عليها ابنها الفتى فى ثياب قيصر ، وأرسلتها فى النيل الى الحبشة !.. **وما لبث أوكتافيوس ان بلغ أسوار الاسكندرية ، فأقدم انتونى على عرض أخير ، اذ دعاه شخصيا الى منازلته .. رجلا لرجل .. وكان انتونى قد شاخ وتهدم ، بينما كان أوكتافيوس لايزال فى الثانية والثلاثين ، ومن ثم كان جوابه : « ليبحث انتونى لنفسه عن ميتة أخرى ! »** .. واذ ذاك نقلت الملكة مجوهراتها ونفائسها الى الضريح الذى شيد لها ، واحتفلت وانتونى بآخر لياليهما !

وفى الصباح التالى ، ودع كل منهما صاحبه ، وكأنه يودع الحياة كلها .. فقد أيقنا أن لم تعد أمامهما سوى مغامرة واحدة .. تلك هى ان يجمع انتونى فلول فرسانه ويتصدى

لأوكتافيوس ورجاله ، فيلقى ميتة الابطـــال ، بينمـــا تأوى كليوباترا الى ضريحها ، وتغلقه بباب من الجرانيت لا سبيل الى فتحه !٠٠ وفى القـــاعة العليا من الضريح ، وقفت مـع وصيفتيها المقربتين « شرميون » و « ايريس » الى حوار نافذة مرتفعة ، يرتقبن ساعة اندحار انتونى ، لتلحق به كليوباترا فى العالم الآخر !٠٠ ولكن الانباء جاءت بأن انتونى كان عـلى قيد الحياة ، وقد لاذ بالقصر ـ بعد ان تخلى عنه من تبقى من جنوده ـ وطعن نفسه بالسيف ، ولكنه لم ينجح الا فى اصابة نفسه بجرح ٠٠ واذ ذاك نادت كليوباترا فى رسلها من أعـلى النافذة بأن يبادروا بحمل انتونى اليها ، بعد ان بدأت طلائع العدو تظهر فى الطرقات ٠٠ فما كان ينبغى أن تترك «زوجها» ليظفر به غريمه ويمثل بجثته ! وهكذا حمل انتونى على محفة ، ثم رفع الى داخل الضريح بحبال أدلتها الملكة ووصيفتاها من النافذة ، وجاهدن فى جذبها لترتفع المحفة اليهن

وما ان أسلم انتونى الى أريكة ، حتى تحرك وطلب خمرا ، فلما شرب ، أخذ الدم ينبض بعنف فى شرايينه ، حتى انبثق من الجرح فى نزيف ، فولولت الملكة وراحت تخدش صدرها بأظافرها حتى أجرت دمها ليمتزج بدمه وهى تصيح : « انتونى! ٠٠ مولاى ، امبراطورى ، زوجى ! » ٠٠ وفجـــأة ، صرخت وصيفتاها مرتاعتين :« أواه أيتها الملكة ٠٠ سيأسرونك حية !» ٠٠ فقد قفز من النافذة ـ التى غفلن عن اغلاقها ـ احد ضباط أوكتافيوس ٠ **واختطفت الملكة الخنجر الذى كان فى حـــزام ثوبها ، ولكن الفرصة كانت قد ضاعت ، واقتيدت أسـيرة الى حيث سجنت فى جناحها الخاص بالقصر الملــكى ٠ وتمنت لو قضت عليها جراحها ،ولكن أوكتافيوس أوفداليهاطبيبا يعالجها، لتسير فى موكب نصره مصفدة باغلال من ذهب !٠٠** وكانت فى التاسعة والثلاثين من عمرها ، وفى أوج فتنتهـــا ، فطلبت الى

وصيفتيها آن تعنيا بزينتها ، ثم استلقت على فراشها، وأرسلت تدعو أوكتافيوس اليها ٠٠ وتلطف الغازى المظفر فى الحديث اليها ، ولم يبح بكلمة تنم عن وقوع قيصريون بين يديه ،ولكنها قرأت فى أساريره ما قتل فى نفسها كل أمل ٠ وراحت تفكر مستبسلة فى طريقة تتفادى بها عار السير فى موكب النصر٠ وما لبثت ان نهضت فجثت عند قدميه ، وتوسلت اليـــه ان يسمح لها بزيارة قبر انتونى لتذرف عليه دمعة أخيرة ٠ ولم ير أوكتافيوس ضيرا فى اجابة مطلبهـا ٠٠ فذهبت الى القبر و غطته بالزهور ، و جثت تندب صاحبه ٠ ثم عادت الى القصر تعد عدتها للرحيل ، فاطمأن أوكتافيوس الى أنها ستسير فى موكبه ، وأمر بتخفيف الحراسة عليها ، استجابة منه لرجائها !

واذ لم يبق على السفر سوى أيام ثلاثة ، جاء الى القصر فلاح يحمل هدية من التين للملكة ، فلما اطمأن الحارس الى وجود التين داخل السلة ، سمح له بالدخول ، وركع الرجـــل أمام الملكة رافعا سلته ، وتمتم : « انها هنا ! »

* * *

ه جلس أوكتافيوس بعد العشاء ــ فى تلك الليلة ــ يقرأ، واذا بهاجس خفى يثير الانقباض فى نفسه ، فأمر أحد أعوانه بأن يتفقد حال الملكة ٠ وأسرع الرجل فدفع باب المخدع الملكى، ثم جمد عند المدخل ، وأمسك أنفاسه ٠٠ فقد كانت كليوباترا ــ ملكة مصر ــ مستلقية على أريكتها الذهبية ، فى أبهى ثيابها، وقد أحاطت جبينها الحية المرصعة بالجواهر ــ رمز ملكة مصر ــ وبدا جمالها فى أروع مظاهره ، فلم ينل منه الموت شيئا ٠ وعند قدميها ، كانت « آيريس » جثة هامدة ٠٠ والى جـوار الملكة ، كانت « شرميون » تتحامل وهى تنسق الشعر تحت التاج ٠ وهتف الضابط مأخوذا ، مروعا ، فالتفتت اليه الوصيفة

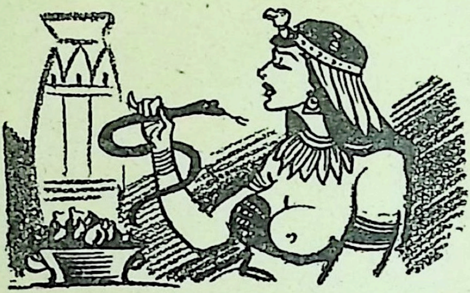

بعينين يثقلهمـــا نعاس الابدية ، وتمتمت : « **هــذه هى الميتة اللائقة بالملكة ٠٠ سليلة الملوك !** »

ولم يجدوا أثرا ينم عن طريقة الموت ، اللهم الا لدغتين من حية ، فى ثنية ذراع الملكة ، عند المرفق ٠ ولم يجد أوكتافيوس سبيلا لقسوة ـ أمام الموت ـ فاستجاب للوصية التى تركتهـا كليوباترا ، ودفنها الى جوار انتونى ٠ ولقد أمر بعد ذلك برفع تمثال انتونى من المدينة ، ولكنه ترك تمثـــال كليوباترا ٠٠ **ولعله أراد ان يتركه ليكون شاهدا على أنه تغلب عـــلى الفتنة التى كانت تنفذ الى سويداء قلوب كل الرجال ٠٠ الا قلبه !!**

هل تذكر أيام شبابك ؟٠٠ كل انسان كانت له فى شبابه نزوات ، وحماقات ، يشعلها الطيش فى دمائه الحارة !٠٠وكل منا كان فى فترة من حياته - الى حد ما - « ابنا ضالا » ٠٠ ولكن ، الى اى مدى يمكن ان يقودنا ضلال الشباب ؟!

مطبـــوعات كتابى

تقدم لك فى منتصف نوفمبر القادم
القصة الخالده من قصص الأدب الواقعى

الابن الضـــال

أعظم ما كتب الروائى العالمى ٠٠٠؟
تحفة ستقرأها مرارا ، وتهديها لأولادك

(ولدت سنة ١٥٠٧ وماتت سنة ١٥٣٦)

« انما انا لقيصر .. وانى لعسيرة المنال ، بقدر ما ابدو وادعة ! »

من شعر « توماس ويات »

الكل ٠٠ أو لا شيء !

ان رقصاتها تدور برؤوسنا كما لو كانت هذه الرؤوس كرات ٠٠ ولكن الوقت لن يطول قبل ان ترقص ٠٠ بلا راس !
سير توماس مور (سنة ١٥٣٥)

◆ **لم** تؤت ميزة ترفعها على من عداها من الفتيات اللاتى كن يقمن بخدمة الملكة كاترين ٠٠ فلا جمال فذ ، ولا ثقافة واسعة ، ولا أصل عريق ٠٠ لاشيء سوى وميض يلمع فى عينين سوداوين مائلتين ، وخفة راقصة فى قدمين رفيعتين متناسقتين ، وضحكة معبرة تنم عن مزاجها فى كل حال : فهى أحيانا خفيفة كرنين أوتار قيثار مستها ريح عابرة ، وهى فى أحيان أخرى مجلجلة كدوى أبواق فضية تعلن النصر ، ثم هى فى أوقات ثالثة مهتاجة ضارية كصيحة طائر بحرى !٠٠ وكان انبعاث الضحكة المجلجلة الصافية من وراء سجف مخدع الملكة ، هو الذى سمر الملك فى مكانه ، فوقف مصغيا ٠٠ **فقد كان هنرى ـ ملك انجلترا ـ مشغوفا بالاصوات الموسيقية كلها ! وغمغم : « آن ٠٠ نان بولين الصغيرة ! » ٠٠ انها لم**

تكن فى جمال أختها « مارى » ، ولا فى امتلاء جسمها ، ونعومة بشرتها ، ومع ذلك فقد أوتيت فتنة الغزال البرى النافر ٠٠ فهى ، بعد « مارى » ، كالنبيذ المعتق بعد وجبة تثقل المعدة٠٠ ولقد « شبع » الملك من مارى واكتظت نفسه منذ زمن طويل !

وأرسل بصره ليرى من الذى كان يضاحك الفتاة ، ثم عبس عندما رأى « بيرسى » الشـــاب ، ابن « دوق نورثمبرلند » ، وأحد السائرين فى ركاب كبير الوزراء « ولسى » ٠ وزم الملك شفتيه ، اذ رأى وجه الفتى المستدير مضرجا بالحياء والوجد ـ وعهده به شاحبا ـ فقد كان الفتى مسوقا الى الزواج من ابنة « دوق شروزبرى » ، فضلا عن أن « الغزا ل النافر » لم يكن مما يباح مطاردته واقتناصه ، فمن الواجب تنبيه ولسى كى يتدبر الامر ٠ وما كان ولسى ـ كبير وزراء انجلترا ، والكاردينـال الذى كان ابن قصاب ـ ليأنف القيام بمهمة كهذه ، فهـو لم يقطع الطريق من حانوت القصـــاب الى الوزارة ، الا بتخليه للملك عن كل كبرياء وكرامة وسلطان ، فكانت يدا القصـــاب الحمراوان ، فى قفازيهما المخمليين الاحمرين ، تمسكان زمام الحكم فى الظاهر ٠٠ أما الحـاكم الحقيقى ، فكان الملك !٠٠ ومن ثم بادر رئيس الوزراء الى استدعاء « بيرسى » ليؤنبه ـ على مسمع من الخدم والاعوان ـ بأنه يقحم نفسه فى علاقة مـــع فتاة رعناء من فتيات القصر ، وهو تصرف لا يرضى عنه الملك ولا والد الشاب ٠ وتوسل اليه بيرسى ـ وهو يكاد يبكى ـ ان يشفع له عند الملك ٠ ولكن الكاردينال عمد الى استدعاء والد الشاب ، فوضع هذا خاتمة للمسألة بأن أقصى ابنه عن موطن الغواية !

ولم تذرف آن دمعا ، وانما اتقـد فى نفسها غضب متأجج ضد الكاردينال العظيم ، فلم تتورع عن المجاهرة بأنهـــا اذا أوتيت يوما نفوذا ، فلن تفلتـه من عقاب يعادل ماسببه لها من

أسى !٠٠ ولعل الكاردينال ضحك كما يضحك القط اذا ما تحداه فأر !٠٠ على ان كل ما أجداه عليها غضبها ، هو ان تناهى الامر الى أبيها الذى كانت له آمال بشأن زواجها ، فأشفق ان تفسدها فضيحة مبعثها شاب يعلو مستواه على كل مطمع شرعى لآل بولين ، ومن ثم نقل ابنته الى داره الريفية ! ٠٠ وكانت « آن » فى البلاط واحدة بين كثيرات ، أما فى (هيفير) ـ مقر الأب ـ فكانت وحيدة فريدة !٠٠ لذلك بدأت رحلات الصيد والقنص تحمل الملك صوب (هيفير) شيئا فشيئا ، وباطراد ٠ ثم ، أى شىء غير طبيعى فى ان ينزل الملك فى دار سير توماس بولين ينشد شيئا من المرطبات ؟!٠٠ كان هذا شرفا وتكريما لسير توماس ، ولكنه كان ـ فى الوقت ذاته ـ هما ثقيلا ٠٠ فمع انه أفاد من وراء علاقة ابنته الكبرى بالملك ، الا أنه لم يكن يرجو لابنته الصغرى علاقة مثلها ، ومن ثم كان يتعمد حبسها فى غرفتها ، زاعما انها مريضة !٠٠ ولكنها كانت تختلس النظر خلال ستائر النافذة الى الملك ٠٠ ولعله كان يبدو لها مسنا ، اذ كانت فى السادسة عشرة من عمرها ، فى حين أنه كان فى الثانية والثلاثين ، وقد بدأ شبابه الوسيم وقوامه الرياضى يتحولان الى تضخم وسمنة ٠٠ ولكنه مع ذلك ، كان ذا رجولة رائعة ، وكان ـ فوق ذلك ـ ملكا ! وأى شىء أكثر استثارة لعواطف فتاة غريرة ، من ان تشعر بأن ملكا يجرى وراءها ، ولو فى فترات عابرة ؟٠٠ على انها ـ مع ذلك ـ لم تكن النزقة التى حسبها أبوها ، ولا كانت غريرة كأختها « مارى » يشتريها الملك بحفنة من المجوهرات ٠٠ وانما كانت « آن » معتزة بنفسها ، لا تبيعها الا بأغلى الاثمان !

وعين سير توماس بولين ـ بعد فترة من الوقت ـ سفيرا فى فرنسا ، فصحب ابنته الى البلاط الفرنسى ٠ ولكنها لم تخلف أثرا فى تاريخه اللهم الا قصيدة قصيرة أرسلها اليها ملك

فرنسا !٠٠ وعندما عادت الى انجلترا ـ فى سنة ١٥٢٧ ـ كانت فى العشرين من عمرها ، وقد أضحت على دراية وثيقة بفنون الفرنسيات فى الملبس والسلوك ، مما زاد من اشعاع جمالها ٠٠ فلم تعد « واحدة بين كثيرات » فى أرقى الاوساط ، وانما غدت « مثالا ومرآة لاعضاء البلاط الملكى » ٠٠ مثالا تحتذيه الاناث ، ومرآة يرى فيها الشبان صورهم كما يخالونها ! ٠٠ **حتى الملك ، رأى فى « آن » ـ اذ ذاك ـ ما بهره !٠٠ رأى فيها كل ما لم يعد يراه فى الملكة ٠٠ رأى فيها نضارة ، وشبابا ، وأملا لم يتحقق ، ومتعا لم يسبق لاحد ان تذوقها ٠٠ ولكن هذه النعم كلها لم تكن له !٠٠ أما الملكة فلم تر شيئا سوى تلك « الشهية المتفتحة » لدى الملك ، فأشاحت بوجهها وأغمضت عينيها ، فقد طالما رأتها من قبل ، حتى انها لم تعد تكترث لها ٠ فقد كان زوجها نهما كالطفل ، يختطف ما تهفو اليه نفسه ، ويزدرده ازدرادا ، ثم ترتبك معدته ، فيعود الى أمه لتمرضه وتعالجه وتحنو عليه !٠٠ وقد كانت كاترين بمثابة أم للملك ، اذ كانت تكبره بست سنوات !٠٠** وكان أبواها ـ ملكا أسبانيا ـ قد أوفداها الى انجلترا فى سنة ١٥٠١ لتزف الى الامير « ارثر » ولى العهد ٠ ولكن القدر فجعها فى زوجها ولما ينقض عام على الزفاف ، فقضى عليها أن تعيش غريبة فى بلاد لا تجيد لغتها ٠ وانصرمت ثمانى سنوات وهى فى عزلة ، ووحشة ، ثم اعتلى شقيق زوجها العرش ـ باسم هنرى الثامن ـ فلم تلبث ان دعيت الى مشاطرة أروع وأبهى شاب عملاق ، عرشه ٠٠ وكان من السهل الحصول على اذن من البابا !

* * *

٭ ولقد احبت كاترين زوجها الشاب عرفانا بجميله ، وانسياقا لشعور الأمومة نحو شاب يصغرها !٠٠ وظلت ست

عشرة سنة تحترم رباطها بزوجها ، وتحاول كبح جماح نزواته، وتغفر له زلاته ، وتندب الحظ العاثر الذى لم يبق على ولد من الاطفال الستة الذين أنجبتهم ، وانما أبقى على ابنة ، هى الاميرة مارى ، التى كانت اذ ذاك فى الحادية عشرة من عمرها· ولم تكن كاترين قبيحة المنظر ، رغم انها كانت ذات قامة ضئيلة ، وقد أضفى عليها الحمل والولادة والركون الى الدعة شيئا من السمنة · وكانت من أكثر النساء تقوى واستقامة ، ومن أنبلهن نفسا ، وأطيبهن قلبا ·وكان هنرى شديد الاعتزاز بها ، ولعله كان على شىء من التوقير لها والخوف منها ! وكان يعوض ما يفتقده لديها من فتن بدنية ، بالاقبال على « عبثه الملكى » ! وهكذا استمرأ السعادة بين زوجة متسامحة وعشيقات مستسلمات · **وبهذا الاطمئنان ، سعى الى « آن » · ولكنه بهت اذ وجدها تروغ من قبضته فى براعة ولباقة وخفة**

ولم يعد يرى سواها · فقد كان هنرى يحتفظ بشىء من أنانية الطفولة ، التى تبالغ فى تقدير الشىء المشتهى – مهما يكن ضئيلا – حتى يملأ أفق الرغبة على سعته !·· وهكذا راحت آن الرواغة تملأ خيال هنرى الثامن وتسيطر عليه ، حتى لم يعد يشعر لاحد سواها بوجود ، وتحولت رغبته فيها الى حمى متوقدة تستعر فى كيانه !·· وكان كلما ألح عليها ، ازدادت تلطفا ، ولكنها فى الوقت ذاته كانت تزداد إصرارا على ردها : « **لست أملك ان أغدو زوجة لك : أولا لاننى لا أليق بمقامك ، وثانيا لان لك زوجة على قيد الوجود ·· كما اننى لن أكون قط خليلتك !** » ·· ولعلها فى ذلك كانت وفية لدرس ألقاه عليها عدوها « ولسى » بصدد الملك ، اذ قال لها : « دعينى أنصحك بأن تكونى دائما على حذر فيما توحين به اليه من أفكار، لانك لن تستطيعى قط أن تستلى من ذهنه أية فكرة أوحيت بها اليه ! » ·· ومن ثم تخيرت المادة التى أرادت أن ترسخ فى

باله !٠٠ « لست أملك أن أغدو زوجة لك » !٠٠ فلماذا لا ، اذا كانت متعته فى ذلك ، واذا لم يكن من سبيل اليهـا سوى الزواج منها ؟ ٠٠ لقد كان رجلا متأجج الشهوة ، فى أوج القوة والرجولة،وقد شد الى زوجة تكبره ٠٠ وكان ملكا بلاوريث ٠٠ كان لابد له من ولى عهد ، ذكر ، اذا اريد لمملكته ان تنجـو من حرب أهلية بعد موته ٠٠ ولى عهد من صلبه ـ لا بالمصاهرة اذا ماتزوجت ابنتــه ـ ومن علاقة شرعية ، اذ كان له فى الواقع ابن غير شرعى ، هو « ريتشموند » الشاب ! ٠٠ وكانت « آن » كفيلة بأن تنجب له هذا الابن ٠٠ آن ، المشتهــاة !٠٠ وهكذا أخذت الافكار تتبلور فى ذهنه !

وفى خلال تلك الاثناء ، كانت عينا آن تجيبان غزله بنظرات تكاد تصرخ : « نعم ! » ، بينما كانت شفتاها العذراوان تصدانه بقولة : « لا ! » ٠ فقد عرفت كيف تستغل عفتهـا فى دهاء ، حتى انها كانت كلما أوسعته صدا ، زادته تعلقا بها ! ٠٠ وبلغ من وجده وهيامه ، انه لم يتمالك نفسه ـ فى احـــدى مرات غيابها المصطنع عن البلاط ـ فأمسك القلم ، وكتب اليها معالجا الموضوع فى صراحة :

« ٠٠ اننى أناشدك من كل قلبى ان تبينى لى فى جلاء كل ما فى ذهنك بصدد الحب القائم بيننا ، لان الضرورة تدعونى الى تعرف هذا الامر ، بعـد ان ظللت أكثر من عام معـذبا بسـهم الهوى ، دون ان أطمئن الى فشلى ، او أجد مكانا لى فى فؤادك وعواطفك،مما حال بعض الوقت بينى وبين تعيينك رفيقةلى!٠٠ فاذا كنت تولينني حبا عاديا ، فلن تصلح لك هــذه المكانة ، لانها تتضمن مركزا فريدا ، يفوق بمراحـل كل مركز عادى ٠ أما اذا راق لك أن تضطلعى بواجب الرفيقة والصديقة الصادقة الوفية ، فتسلمى نفسك وجسدك وقلبك لى ، أنا الذى كنت وما زلت خادمك الوفى ـ اذا لم تشأ قسوتك أن تحرمنى هذا ـ

فاننى أعدك بأن التعيين لن يقتصر على اللقب ، وانما سأتخذ منك خليلتى الوحيدة،وأنبذ كل من عداك من فكرى ومن هواى، فلا أكون لسواك ! »

وهكذا عرض عليها « مركزا فريدا ، يفوق بمراحل كل مركز عادى ، فى مقابل « جسدها وقلبها » ٠٠ ولا بد انها أرسلت اذ ذاك ضحكة انتصار ونشوة ، ولكنها لم تكن من الحماقة بحيث ترفع الطعم قبل ان ينطبق باب المصيدة !٠٠ انها على استعداد لان تمنحه قلبها ٠٠ أما جسدها ، فلن يكون له حتى « ينبذ كل من عداها » بالفعل !٠٠ وتلقى هنرى هذا « التفضل الكريم » بلهفة وتحرق ، فبادر يكتب اليها قائلا : « ٠٠ اؤكد لك ان قلبى سيغدو منذ الآن وقفا عليك وحدك ، كما أرغب صادقا فى أن يكون جسدى كذلك ، اذا شاء الله ، الذى أضرع اليه فى كل يوم ان يحقق هذا ، وانا آمل ان يكون الوقت قد حان ليستجاب دعائى ! »

☆ ☆ ☆

• **وبهذا** ، أبرم الاتفاق ، ولم يبق سوى ان يتخلص هنرى من الطرف الثالث الذى يقف فى طريق التنفيذ : الملكة !٠٠ ولم يكن الامر بالسهولة التى تبدت لهنرى وهو يكتب ، فقد ظلت كاترين ثمانية عشر عاما وفية له ، لم تغضبه خلالها بكلمة أو اشارة ، ولا صدر عنها أتفه خطأ ، ومن ثم ، فلا خلاص له منها الا اذا اراد « الله » ٠٠ « الله » !٠٠ وتعلق بالكلمة القدسية ، وقد قفزت الى ذهنه عبارة لم يدر كيف غفل عنها كل هذا الزمن ٠٠ عبارة وردت فى سفر اللاويين بالتوراة : « ٠٠ **واذا أخذ رجل امرأة أخيه فذلك نجاسة ٠ قد كشف عورة أخيه ٠ ويكونان عقيمين** » ! وما كان هنرى يوما بالشجاع الذى يتحمل تبعة خطاياه ، بل كان لابد له من مبررات تبرئه ،

لافى أعين العالم فحسب ، بل وأمام نفسه أيضا !٠٠ ومن ثم بدأ ضميره يخزه ، وكأنه لم يفطن قبل اليوم الى انه تزوج من « امرأة أخيه » ٠ وبدأ يرى ان عدم حظوته بوريث لعرشه هو العقاب الذى أوقعه الله به لانه « أخذ امرأة أخيــه » ، فهرع بهذا الكشف الجديد الى « ولسى » وزيره الاول ومستشاره!٠٠ ولكن « ولسى » ـ رجل السياسة والحكم ـ لم ينح فى تفكيره نحو الملك العاشق ، فان انفصال هنرى عن كاترين لن يقتصر على شخصيهما ، بل انه يقود الى انفصال اسبانيا القوية عن انجلترا ، والى تحالفها مع فرنسا ٠ ومن ثم رأى « ولسى » ان يستعين بملك فرنسا على خلع كاترين ، وهو يبحث بين الاميرات الفرنسيات عن واحدة تخلفها !

على ان « ولسى » لم يكد يرحــل الى فرنســا ، حتى بادر « هنرى » الى ايفاد رسول سرى الى البابا يحمل اقتراحا يثير الذهول ٠٠ ذلك هو أن يسمح له البابا بأن يتخذ ملكة جديدة، قبل ان يفرغ من التخلص من القديمة !٠٠ لاليتعجل انجاب ولى للعهد ، ولكن ليظفر بغانية مراوغة لاسبيل الى اجتنــاء شــهد مفاتنها دون منحها تاجا !٠٠ ولكن ولسى التقى بالرسول فى طريقه ، فما ان ادرك سر مهمتـــه ، حتى اسرع بالعــودة الى انجلترا ، أملا منــه فى ان يصد مولاه عن حماقتــه قبل فوات الاوان ٠٠ ولكنــه وصل متأخرا ، اذ ان الرســول الذى اوفده ليلتمس من الملك تعيين المكان الذى يمثل فيه بين يديه ، عــاد يقول ان « السيدة المدعوة آنا دى بولين » ـ التى وجدها مــع الملك ـ قالت له : « وأين يتوقع ان يقابل الملك الا حيث يوجد الملك ؟ » ٠٠ ان الملكة نفسها لم تكن تجسر على ان تجيب بمثل هذه القحة !٠٠ وادرك الكردينال ان قد حيل بينه وبين الملك لاول مرة ، وان الشخص الذى وقف بينهمــا شــخص يكن له كراهية شخصية قاتلة ، وان مهمته أصبحت تتمثل فى ان يقصى

عن العرش سيدة فاضلة ، ليرفع الى مكانها غانية من أصل أدنى من أصول الملكات ..غانية ستذيقه الامرين .. فهو اذا اخفق باء باسوأ غضبات الملك ، وان وفق دفع الى يد آن بسلطان تستخدمه فى الثار منه !

أجل ، ايقن الكردينال ان القضاء قد حل به . وان نهاية نفوذه قد حانت،ولكنه أبى ان يسلم هذا النفوذ العظيم بسهولة، لاسيما وهو يعرف ان الملك سريع التقلب والملل فى علاقاته بالنساء . ومن ثم آثر ان يرضى نزوات الملك الى حين . ومع ذلك ، فما ان مثل بين يديه بمنأى عن عينى « المدعوة آنا دى بولين » الساخرتين - للمرة الاولى - حتى ركع امامه وراح يضرع اليه زهاء الساعتين ان يتحول عما اعتزم . ولكنه لم يفز بطائل ، فقد أجابه الملك فى عناد : « لقد اوتيت هذه السيدة ذكاء الملائكة ، فهى أهل للتاج ! »

وعكف الرجل - مضطرا - على تنفيذ رغبة الملك ، فكتب الى البابا يسأله أن يأذن بتحقيق تلك الرغبة ، قائلا انها لم تكن منبعثة عن « نقص أصاب الحب الاخوى الذى يكنه الملك لكاترين » ، ولا عن نزوة طارئة نحو « سيدة » ، وانما .. لان « الفضائل الجليلة التى اتسمت بها هذه السيدة ، وطهر حياتها ، وعفتها النقية من كل شائبة ، وما يبدو من مقدرتها على انجاب الذرية ، جعلت رغبة الملك صادقة وضرورية » ! .. وما كان أقسى على نفس ولسى من ان يصف آن بتلك الاوصاف وان يكتب بقلمه عبارة « عفتها النقية من كل شائبة » !.. ومع ذلك ، فان « آن » نفسها لم تشأ ان تدع الملك يطمئن الى آن هذه « العفة » تخضع لحدود الصبر ، فما لبثت ان تظاهرت بتقريب شاعر شاب مليح يدعى « توماس ويات » اليها ، ومع ان الملك لم يكن يخشى منافسة جدية من الشاعر ، إلا ان هذه الخطوة دفعت الملك الى ان يسعى لاكتساب والد السيدة فى

صفه .. ولم تكن فرحة الاب بالنبأ قليلة !.. على ان ثمة أناسا آخرين ابتهجوا له ، اذ أن طلاب الحكم ـ من المعارضين لرجال الدين من أمثال ولسى ـ نشطوا الى استغلال الفرصة، وشرعوا يؤلفون فريقا يناصر « آن بولين » ، اذ رأوا فيها سلاحا يثأرون به من الكردينال . كما بدأت آن تظهر للملأ سلطانها، فأصبحت تبدو فى جلال الملكة ووضعها وسلوكها ، وأخذت تكشف ـ فى حديثها وملبسها ـ عن ارتفاعها بقدرها عن مكانة سيدات البلاط جميعا !

* * *

◆ ولم تكن كاترين قد شعرت حتى ذاك الحين بما يدعو الى الانزعاج ، فان اندفاع الملك وراء احدى النساء لم يكن بالامر الجديد عليها ، وكانت تعرف أنه اذا ما قضى وطره من الصيد، تحول عنه فى غير اكتراث .. ولكن المطاردة طالت فى هذه المرة ، وامتازت بأن الملك كان ينكر فى حرارة كون آن خليلته ! .. واذ ذاك داخل الخوف قلب الملكة . وحدث ان كانت تلعب الورق ذات مساء مع آن ، فأصابت هذه ورقة الملك ـ (أو « الشايب » باللغة الدارجة) ـ فما كان من الملكة الا أن قالت فى مرارة لاذعة ، لوصيفة الشرف : « لقد وفقت توفيقا طيبا ياسيدة آن ، اذ ظفرت بملك . ولكنك لست كسواك ، وما أرى الا أنك تسعين الى ان تفوزى بكل شىء .. أو لا شىء ! » . وضحكت « آن » فى مجون ، واتخذت من عبارة الملكة شعارا : « الكل .. أو لا شىء » !

وفى تلك الاثناء ، كان البابا يعانى فى روما حيرة بالغة ، فما كان يدرى ، أيغضب هنرى الثامن ـ ملك انجلترا ـ أو يسىء الى كارلوس الخامس ، امبراطور اسبانيا . وكان ولسى قد حذر البابا من رفض طلب هنرى ، لئلا يدفعه ذلك الى صف

أعداء الكنيسة • ولكن الامبراطور كان ابن شقيق كاترين ، وقد غزت جيوشه روما منذ عهد قريب ، وكان البابا أسيرا له فى الواقع ! وانتهى البابا الى أن ترك للزمن علاج المشكلة ، وأوفد أحد كرادلته الى انجلترا ، مزودا بمرسوم يخول له ان يستمع ـ مع ولسى أو منفردا ـ لتفصيلات القضية ، وان يصدر حكمه بصدد زواج الملك • ولكنه زوده ـ الى جانب التفويض الكتابى ـ بتعليمات شفوية •• ومن ثم استغرق الكاردينال أطول وقت ممكن فى رحلته • ولكنه وصل فى النهاية ، واستمع الى ولسى والى الملك • • وحاول ان يقترح حلا وسطا لايؤدى الى حرج ، ولكنه ما لبث ان كتب الى البابا يقول : « **لقد انبأنى الملك فى اقتضاب بأنه لايرغب فى غير تصريح عما اذا كان زواجه من كاترين صحيحا مشروعا ، اذ يبدو انه يراه غير صحيح •• وما أرى أن فى وسع قوة أن تثنيه ، ولو نزل عليه ملاك من السماء** » !

وسعى المندوب البابوى بعد ذلك لدى الملكة ، محاولا ـ فى ترفق ـ ان يقنعها بأنها تسدى للكنيسة خدمة لا تقدر ، اذا هى وهبت نفسها لله ودخلت الدير ، فضلا عما فى هذه التضحية من نبل يليق بها ويصون كرامتها • ولكنها ردت معربة عن استعدادها لهذه التضحية ، اذا قبل هنرى بدوره ان يهب نفسه لله •• وبغير ذلك ، لن تتخلى عن مركزها كزوجة له ، وأم لوريثته الشرعية ، ولو مزقوها اربا !••

وصارحت الكاردينال بالحقيقة القائمة خلف حياتها الزوجية ، وخلف الموقف برمته ، فلم يملك الا ان يسلم بعدالة موقفها •

ووجد هنرى نفسه موزعا بين امرأتين عنيدتين : كانت كاترين تنكر ان فى زواجهما خطيئة ما ، لان « البرت » ـ زوجها الاول ـ كان صبيا فى الخامسة عشرة من عمره ، ضعيفا ، لم يقربها ، ولم يمهله الاجل حتى يعاشرها كزوج ، ومن ثم فهى

لم تكن زوجة حقيقية لشقيق هنرى • وكانت آن تأبى أن تعيش مع الملك فى الخطيئة !•• وزاد الموقف حرجا ان هب الشعب غاضبا يتهم هنرى بأنه يحاول ان يقسر مليكته المحبوبة على دخول الدير !•• ولم يجد الملك حلا سوى ان يدعو مجلسه الخاص ومجلس لندن الى اجتماع شرح فيه الازمة ، وبين كيف أن « عددا من كبار رجال الدين » نبهوه الى أن زواجه من « كاترين » لم يكن صحيحا من الوجهة الشرعية • واختتم حديثه قائلا فى شهامة مصطنعة : « أما فيما يتعلق بالملكة ، فانى أعتقد أنها زوجتى الشرعية أمام الله ، ولم يكن أحب الى من أن أعيش العمر معها •• ولو اننى خيرت فى الزواج ثانية، وكان زواجى منها مشروعا ، لما اخترت سواها من بين النساء جميعا ! » •• ثم انقلب فجأة يهدد بأنه مصر على ان يثبت انه صاحب السلطان فى مملكته ، قائلا : « ما من رأس ـ مهما يكن صاحبه ـ الا وأنا على استعداد لان أطيح به ! » .

وهكذا لم يخل الجو الذى انعقدت فيه محكمة الاحوال الشخصية للنظر فى الموضوع ـ فى شهر يونيو سنة ١٥٢٩ـ من توتر وضغط ، ولم تدل الملكة بأقوالها لاعضاء المحكمة ، وانما عبرت القاعة ، وركعت عند قدمى زوجها قائلة : « أشهد

الله والعالم بأسره على اننى كنت زوجة صادقة ، تقية ، مطيعه، تعمل جاهدة لراحتك وارضائك . لقد كنت زوجتك الحقة خلال نيف وعشرين عاما ، وقد أنجبت منى أطفالا عديدين ، وان كان الله قد شاء ان يأخذهم من هذه الدنيا » .. وصمتت برهة ، ثم عاودت الحديث فى لهجة واضحة قاطعة : « **وانى لاشهد الله على انك حين نلتنى لاول مرة ، كنت عذراء حقا ، لم يمسسنى بشر .وانى أدع لضميرك أمر تاكيد هذا أو نفيه !»**

ولم يرد عليها الملك بغير الصمت .. صمت كان يزداد ثقلا كلما طال ، حتى لم يعد فى الوسع احتماله . واذ ذاك نهضت الملكة فى جلال واباء ، فأحكمت وشاحها حول جسدها القصير البدين ، وغادرت القاعة متجاهلة الحاجب الذى نبهها - فى حرج - الى أنها يجب ان تعود الى مكانها . ومع أن هنرى شعر بشىء من الضعة أمام زوجته الملكة ، الا أن هذا الشعور لم يستمر طويلا ، اذ خيل اليه أن مسلك الملكةانطوى على تمرد خليق بأن يحمل أعضاء المحكمة على أن يصدروا حكمهم ضدها . **بيد أن المندوب البابوى لم يزد على أن أشار - فى لهجة هازلة - الى مناورات شابة تسعى الى الفوز من عاشقها الملكى بكل ميزات الخليلة الرسمية ، دون ان تنيله ما ينبغى على الخليلة من واجبات !.. ثم أجل قرار المحكمة بعض الوقت ، وأحرق وثيقة أو اثنتين ، وتسلل من لندن عائدا الى روما فى صمت**

* * *

◆ **وكان** ولسى هو أول من فطن الى أن المرسوم البابوى الذى كان يخول له البت فى الامر ، قد ذهب مع الكاردينال الايطالى ، فأدرك مدى النقمة التى سيتعرض لها من الملك ، واندفع فى الجرأة الى درجة ان أوفد رسلا وراء المندوب البابوى

يفتشون حقائبه ٠٠ ولكنهم عادوا بخفى حنين ، فانقلب خوف ولسى الى يأس ٠ وانتهزت « آن » الفرصة لتشن حملة شعواء على أوفى أعوان الملك ، فأخذت تبكى لفشل الكاردينال ، وتندب حظها « اذ ضيعت أزهى أوقات عمرها وزهرة شبابها فى غير طائل » ٠٠ وأضافت منهنهة ـ أمام الملك ـ : « وماذا صار اليه أمرى الآن ؟٠٠ لاشىء !٠٠ ليس لى أن أقول انى شىء يذكر ! » ٠٠ وتمادت فى تباكيها وحزنها ، حتى استطاعت ان تنتزع من الملك وعدا بأن لا يصغى بعد ذاك اليوم الى نصح ولسى ، فتخلصت بذلك مما كانت تخشاه !٠٠ **وهكذا لم يلبث أقوى رجل فى انجلترا ـ بعد الملك ـ ان وجد نفسه مهزوما أمام شابة لم يكن لها من حول ولا سلطان سوى كلمة « لا » تواجه بها رغبات ملك مستبد شهوانى !٠٠ ومن ثم أسلم رمز سلطته ـ وهو خاتم انجلترا الاكبر ـ الى سير توماس مور ، ونزل عن ممتلكاته للملك ، وانزوى فى داره فقيرا ، معدوم النفوذ !**

وبهذا تم الفوز لحزب بولين ، فأصبح أبوها « ايرل ويلتشاير » ، وأخوها « فيكونت روشفورد » ، كما أصبح لقبها الرسمى « ليدى آن روشفورد » ٠ وأقام الملك مأدبة لهذه المناسبة ، حظيت فيها آن بالتقدم على سائر السيدات ، حتى أعلاهن مقاما ٠ ولم يكن ثمة ما ينقصها ـ لكى تثبت مكانتها ـ سوى حضور قس يعقد القران !٠٠ ومع ذلك ، فقد كان ممن حضروا المأدبة أشخاص كانوا أعداء لولسى أكثر مما كانوا أنصارا لآن ٠ ومن هؤلاء عمها « ايرل نورفولك » الذى بدأ يتزلف اليها طمعا فى أن يزوج ابنه للاميرة مارى ـ ابنة الملك ـ فيضمن له أن يرث العرش معها اذا لم تنجب آن وليا للعهد٠٠ و « ايرل سفولك » ـ زوج شقيقة الملك ـ الذى رأى ان زواج الملك من شابة قادرة على انجاب النسل ، يدفعه بعيدا بين

مستحقى العرش ، فحاول أن يوغر صدر الملك ضد آن ، فأنبأه بأنه شهد مواقف تتجاوز حدود الصداقة بينها وبين الشاعر « ويات » ، ولكن هنرى كان يحب الشاعر وأغانيه ، ويؤمن بما لآن من « عفة نقية من كل شائبة » ٠٠ ومن ثم اضطر «سفولك» فى النهاية الى الانسحاب من البلاط محسورا ، ذليلا !٠٠

وأضيف بذلك عدو جديد الى أعداء « آن » ، ولكنها لم تحفل ، اذ كانت لاتزال ترى أن عدوها الاوحد هو « ولسى » !٠٠ فلما لان قلب الملك لوزيره ذات يوم ، عادت تبكى وتندب حظها ، وتهدد الملك بأنها ستهجره ، حتى وجد هنرى عناء فى استرضائها ، وذهب به الامر الى درجة البكاء ٠ ولكنها لم تقبل ترضية أقل من ان يعتقل الكاردينال ، فتم اعتقاله فى سنة ١٥٣٠ ٠ ولم يعن الكاردينال بتعرف الاتهام الموجه اليه ، فقد كان الاخفاق فى ارضاء الملك كافيا لان يتطور الى « خيانة عظمى » فى نظر القانون ٠ وهو ما كان مسوقا اليه لولا ان الموت كان أرحم به من الملك !

وفى تلك الاثناء ، كان البابا قد أحال نظر القضية الى روما ـ استجابة لملتمس من كاترين ـ وأنذر الملك بأنه اذا تزوج قبل أن يصدر الحكم ، فسوف يوصم أبناؤه من هذا الزواج بأنهم « أولاد غيرشرعيين » ٠ولكن « آن » كانت قد استأسدت، وراحت تعلن جهارا بأنها لا تحفل بالملكة ، ولا تعترف لها بسلطان عليها ، وبأنها لا تعبأ بالبابا ! وراحت تستحث الملك على عدم انتظار موافقة البابا ٠ فقدكانت تدرك ان كثرة الارجاء والتأجيل هى السلاح الذى يستعين به البابا ، اذ كانت الايام تحمل الى البلاط تباعا كثيرا من الحسان اللائى يفقنها جمالا ، ونضرة ، وان كن أقل منها طموحا ٠٠ وما كان فى وسعها ان تستبقى شبق هنرى متأججا أبد الدهر ، اذ أنه لن يلبث ان يبحث له عن متعة أخرى !

وما كان هنرى من المتحمسين للمذهب الذى كان لوثر ينادى به ـ (المذهب البروتستانتى) ـ ولا لتعاليم أنصار الاصلاح الدينى ، اذ لم يكن بين الملوك من يفوق ملك انجلترا مظاهرة للبابا وتأييدا لأحقيته فى لقب « حامى العقيدة » ، ولقب « المدافع عن الاسرار السبعة المقدسة ضد مارتن لوثر »٠ لذلك راح يراوغ « آن » ويماطلها كلما ألحت عليه فى ان يتمرد على البابا ، وان يحذو حذو « لوثر » ٠٠ فقد كان يخشى التعرض للحرمان الدينى ، اذ كان ضميره لا يطيق أكثر من ارتكاب الآثام العادية التى تعفيه القوانين الوضعيه من ان يؤاخذ عليها !٠٠ الا أن غرامه امتد ثلاث سنوات دون ان تلوح فى الجو بارقة أمل ، اذ أصر البابا على أن تنظر القضية فى روما ، ولم يشأ هنرى ان يذهب الى هناك ، لانه كان يرهب ان يمثل أمام محكمة لا يستطيع ان يفرض عليها سلطانه ، أو أن يهدد فيها باطاحة الرؤوس !٠٠ **وعاد ـ فى يأسه ـ يتوسل الى الملكة لتقر بأن زواجهما لم يكن مطابقا للشرع ، ولكن الملكة كانت تدرك أن معنى ذلك أن تغدو ابنتهما « مارى » ابنة سفاح ، فأصرت على الرفض فى عناد ، وكانت لا تفتا تقول له انها مستعدة لان تطيعه فى كل الامور ـ بوصفه زوجها ـ فلا تقدم عليه فى الطاعة سوى اثنين : « الله ٠٠ والضمير ! » ٠٠** وبدأ هنرى يعنف معها ، حتى لقد حرمها من ان ترى ابنتها ، وأخذ يغلظ لها القول ٠٠ ولكنها لم تكن تكافح من أجل هناءة أيقنت انها لن تنالها ، وانما راحت تجاهد من أجل انقاذ روحها وروح زوجها من الخطيئة ، ومن أجل ميراث ابنتها ٠ وكانت تقول له ـ كلما حاول اقصاءها ـ : « لقد تزوجتنى جهارا ، وتوجتنى جهارا ، فان شئت ان تقصينى ، فافعل ذلك جهارا أيضا ! »

على أن الملك لم يكن ليستطيع ذلك ، ما لم يجد سندا

قانونيا ، اذ كانت الملكة تكتسب في كل يوم مزيدا من الانصار سواء من عامة الشعب أو من كبار النبلاء الذين بدأوا يتململون ازاء نفوذ آل بولين ، التى كانت دونهم أصلا ومحتدا !٠٠ ومع ذلك ، فان الملك أخذ يزداد اعجابا بابنته « مارى » فى الوقت الذى كان يزداد فيه سخطا على زوجته لعنادها ! وأحست « آن » بأن هذا الاعجاب مصدر خطر جديد ٠٠ اذ ما الذى يمنع من ان يتسلل السأم الى نفس هنرى لطول صدها ، وطول انتظاره كى يتحلل من زوجته ، فلا يلبث ـ مع هذا الاتجاه الجديد الى ابنته ـ أن يرى أن آن غير جديرة بأن يصم من أجلها ابنته بأنها ابنة سفاح وثمرة زواج لا يقره الشرع ؟٠٠ وسمعت آن مرارا تغتاب الاميرة مارى الى درجة تدعو للعجب ! ٠٠ وأخذت تزداد جسارة و قحة فى كل يوم ، فراحت تحدث الملك بلهجة نابية ، وتحاول ان تفرض عليه نفوذها ، حتى اضطر الى الشكوى مرارا الى دوق نورفولك ، قائلا انها لم تكن على شاكلة الملكة التى لم توجه اليه قط كلمة أساءته !٠٠ وبدأ توتر أعصاب كل من آن وهنرى يسير فى اتجاه مضاد لما كان يسير فيه الآخر ، حتى بدا ان لابد لهما من ان يتصادما ، أو أن ينفجر أحدهما اذا لم يجد متنفسا سريعا

كل ذلك ، والبابا سادر فى استغلال سلاح الزمن ، فيماطل ويتلكأ فى البت فى الامر !

* * *

• وفي هذا الجو ، ظهر للملك حليف جديد ، انبعث من صفوف حزب بولين ٠٠ الصفوف التى كانت فى اضمحلال مستمر ٠ فقد طلع « توماس كرومويل » بفتوى جديدة ٠٠ كان على غرار « ولسى » ، يجمع بين السياسة والدين ، ولكنه لم يكن يستمد ايمانه من الكتاب المقدس ، بل من التعاليم

الميكيافيلية !.. وكان ايمانه يتركز فى القانون أكثر منه فى العدالة ، اذ كان يرى ان من الممكن تشكيل القانون وتأويله وفقا لرغبات الحكام !.. **وكانت فتواه تتمثل فى « قران بغير البابا »** .. ولم لا ؟.. ألم يكن من المناقض للطبيعة ان تخضع البلاد لسلطتين فى آن واحد: سلطة الملك ، وسلطة البابا ؟.. فليعلن الملك انه الرأس الاعلى الوحيـــد فى المملكة ، فيصبح « حامى حمى العقيدة » و « حامى حمى ملذاته » فى آن واحد ! .. وليتصور الملك مدى ماسيضع عليه يده ـ فى هذه الحال ـ من أموال الاديرة والصدقات !.. وزعم كروموبل ان فى وسعه ان يجعل هنرى أسعد وأغنى ملك ، ومن ثم أقوى ملوك العالم المسيحى وأشدهم نفوذا .. وكل ذلك بأســانيد مشروعة ! فقد كان ثمة قانون عتيق يسمى قانون « بريمونايز » (قانون لم يسمع به أحد فى انجلترا !) ، وهو قانون غامض ، مطاط ، يمكن توجيهه الى أية وجهة ، ليكون سلاحا رهيبا فى يد الملك . **فليعلن هنرى نفسه رئيسا أعلى للكنيسة فى انجلترا ، واذ ذاك لا يغدو رجال الدين مضطرين لان يتبعوه فى سبيل لقمــة العيش فحسب ، وانما .. للمحافظة على حياتهم ايضا !**

وهكذا قطعت صلة رجال الدين الانجليز بمرشدهم فى روما فجأة ، فغدوا كالسفن التى جردت من دفاتها ، فأخذت تتأرجح على الماء ، متخبطة بين الامواج !.. وترددوا حيارى فترة ، ثم اضطروا الى أن ينساقوا بتأثير ذلك القــانون المخيف ـ الذى كان يهددهم بمساواتهم بالخونة ! ـ ومن ثم رضـخوا للملك صامتين . واذ ذاك ، تنهـد ضمير هنرى ارتياحا ، ثم تنفس الصعداء حتى انتفخ صدره فى خيلاء .. فقـد اصبح الرأس الاعلى للسلطتين الروحية والمدنية فى انجلترا ، والسيد الاوحد فى مملكته ، وصاحب النفوذ الضخم المطلق ، وصاحب أثقـل قدمين يمكن ان تدوسا أعنـاق الزنادقة ورجال الدين عـلى

السوداء ٠٠ وبذلك صار هنرى « أخطر وأقسى رجل فى العالم » !٠٠ **واذا الحصاة الضئيلة - الممثلة فى كلمة « لا » - التى ألقتها فتاة فى بركة شهوة الملك السوداء ، تثير دوائر أخذت تتسع وتنتشر وتقوى على مر الشهور والاعوام ، حتى استطاعت ان تهز أسس كنيسة روما ذاتها !**

وانقلبت ضحكة آن الى جلجلة ناعمة ، صافية ٠ ولم تشأ أن تسمح بانقضاء أكثر من أربعة أشهر قبل الزواج ، عكفت خلالها على تهيئة نفسها لمركز الملكة ، وأخذت تصحب الملك فى رحلات الصيد ، بينما صدرت الاوامر الى كاترين بأن لا تبرح قصر (وندسور) ٠ و غدا هنرى - وهو مستند الى قانون بريمونايبر ، ولو انه قانون ضعيف وغامض ! - أكثر جرأة وقسوة على « المرأة المملة التى كانت تصر على ان تدعو نفسها زوجته الملكة » ! ٠٠ ولكن آن لم تشأ أن تترك أى مصدر لخطر ٠ ففى فجر أحد الايام ، تسللت من قصر (وندسور) فرقة ملكية للصيد يتقدمها الملك وآن ٠ وكانت ثمرة جهود آن فى ذلك اليوم ، مجرد خطاب قصير ، جاف ، الى كاترين ، يأمرها فيه الملك بأن تبرح البلاط ، وتلوذ بقصرها الخاص فى (مور بارك) بمقاطعة هيرتفوردشاير ٠ ولما كان من سياسة كاترين ان لاتمكنه من أية حجة تبرر له اتهامها بعدم اطاعة زوجها ، فقد بادرت الى تنفيذ الامر ، دون ان تعلق عليه بأكثر من أنه كان من الاليق به ان يبلغها رغبته بلسانه ، اذا كان ذلك هو الوداع الاخير !٠٠ وما كانت أية لياقة ، أو مجاملة ، أو شعور انسانى ، لتثنى هنرى الذى لم يعد يرى سوى أن آن أصبحت فى متناول أحضانه ٠٠ ولا لتثنى آن التى لم تعد ترى سوى ان التاج غدا رهن مشيئتها ؟

وأقيم احتفال فخم فى البلاط الملكى فى عيد رأس السنة ، وان قيل انه كان خاليا من اى طرب ، نظرا لغياب الملكة ؟٠٠

أما كاترين ، فقد أبت ـ فى منفاها المنعزل ـ ان تغير من عاداتها كملكة وزوجة ، ومن ثم أهدت الملك كأسا ذهبية ، لمناسبة العيد !.. وفحص هنرى الكأس ، معجبا بها . ولعله اشتهى ان يحتفظ بها ، لولا أن تذكر موقفه وكرامته ، فردها الى الملكة فى جفاء ، وأمر بأن لا يتبادل أحد الهدايا معها !..
أما آن ، فقد استقبل الملك هديتها فى اغتباط ، ومنحها فى مقابلها حجرة فخمة ، ذات أثاث رائع ، ورياش موشاة بالذهب والفضة والحرير القرمزى !

* * *

• على أن الايام لم تستمر فى حمل الملك وآن الى غايتهما بالسرعة المرجوة ، اذ ما لبثت المعارضة ان قويت ضد الزواج الجديد ، فأوفد الملك « دوق نورفولك » ، عم آن ، الى وليم وارهام ــ أسقف كنتربورى الذى نصب « بابا » لانجلترا ــ ليحمله على عقد محكمة كنسية تقضى بما كان الملك يرجوه من حكم بعدم شرعية زواجه من كاترين ، تحديا لكنيسة روما . الا أن وارهام رفض ذلك العرض ، رغم استعداده لارضاء الملك بكل الوسائل الاخرى ، مما أحنق آن على عمها ، فاتهمته بأنه يتآمر عليها ، ويسعى لتزويج ابنه من الاميرة مارى ليضمن له العرش .. ثم أجبرته على أن يزوج الفتى زيجة اخرى غير ملائمة !.. ومن ثم انقلب نورفولك عدوا لابنة أخيه ، ولم يعد فى صف آن من حزب بولين سوى أبيها وأخيها . وأوعز الملك اذ ذاك الى رجال الدين أن يبشروا بوجوب انفصاله عن كاترين ، ولكن الناس ثاروا على كل كاهن تناول هذا الموضوع . حتى اذا كان يوم الاحد السابق على عيد الفصح ، وقف كاهن ريفى يلقى عظة فى حضرة الملك ، فأنذره فى جرأة ، موردا عبارات من التوراة جاء فيها : « انا ميخا الذى سوف تكرهه ، لاننى

يجب ان أخبرك بأن زواجك باطل · وأنا أعرف اننى سآكل خبز الكدر ، وأشرب ماء الاحزان ، ولكن على أن أقولها لان الرب وضعها فى فمى ·· انتبه حتى لا تغوى فتلقى عقاب أخاب الذى لعقت الكلاب دمه » !

ولكن احتجاجات القساوسة والرهبان لم تعد تثنى هنرى ، لاسيما بعد أن مات وارهام فى الوقت المناسب ، فوقع اختيار هنرى على أسقف جديد لكنتربورى ، من معارف والد آن ، يدعى « توماس كرانمر » · وكان شخصا ضئيل الجسم ، عظيم البراعة فى صقل مظاهر أعمال الملك حتى تبدو فى لمعان الذهب ! **ولم يكن طموحا ، ولكنه كان يعبد السلطة لذاتها ، ومن ثم استطاع - اذ حصل على ما لاسقف كنتربورى من سلطة - ان يجد من الادلة مايقضى ببطلان زواج هنرى من كاترين ، وهو راضى الضمير ! وكان من جراء ذلك ان استقال سير توماس مور - رئيس الوزراء - اذ كان من الاصدقاء الاوفياء للملكة ، ومن الاتباع الصادقين لكنيسة روما ، فاسلم خاتم انجلترا الاكبر لنكرة يدعى « توماس أودلى » ، وبذلك أزيح عن طريق الملك الشخصان اللذان كانا يقيمان عراقيل المعارضة الروحية والمدنية !**

ولم يكد هنرى يهنأ بذلك ، حتى ظهر مصدر المعارضة لم يكن يتوقعه · فقد رأت آن ان « مارى » - ابنته - ظلت محتفظة بنسبها الشرعى له ، ومن ثم فهى حائل بينها وبين العرش ، لابد من آزالته ·· وكان السلاح الوحيد لذلك ، هو ان تنزل عن الورقة التى ظلت محتفظة بها فى يدها خلال الصراع الذى استغرق خمس سنوات ·· الصراع الذى تغلبت فيه الفتاة الطموح على ملك وملكة ورئيسين لوزراء انجلترا ، وأسقف كنتربورى ، بل والبابا نفسه ! **ولم تكن هذه الورقة سوى عفتها » !**

لهذا راحت تتعجل اجراءات الزواج ، فحصلت على مرسومين بمنحها معاشا قدره ألف جنيه فى العـــام ـ مدى الحياة ـ ومنحها لقب « دوقة بمبروك » ٠٠ وهى دوقية أنشئت خصيصا لها ٠ بيد أن الفتاة الداهية لم تجد فى كل هـذا ثمنا كافيـا لتسلم الملك بغيته ، ولا لتقنع بمـا نالت ، بل راحت تطالب بالمزيد ، حتى تهور هنرى ـ بسحر غوايتها ـ فأرســـل الى كاترين يطلب منها مجوهرات الملكة ، ولـــكن الملكة ردت فى شمم بأن ضميرها لا يسمح لها بأن ترسل مجوهراتهــا « كى تقدم الى شخص يعتبر وجوده عارا فى العالم المسيحى ! » ٠٠ ولم يجد هنرى بدآ من أن يسترد المجوهرات منها بأمر رسمى ٠٠ أفلم يصبح الرئيس الاعلى الروحى والمدنى لكل انسان فى المملكة ؟

* * *

◆ **واذ** أظهر انجلترا بأسرها عـــلى أن له أن يتزوج ممن يشاء ، هفت نفســـه الى أن يقدم لفرنسا شخص عروســه المختارة ، فأعلن عن عزمه عـــلى أن يصحب آن الى (كاليه) و (بولونى) ليقدمها الى ملك فرنسا ٠ وتملكته هـذه الرغبة حتى شغلته عما عداها ، وان كانت فى الاصل من وحى «آن» ذاتها ٠ وحاول دوق سفولك ـ زوج أخته ـ ان يثنيه ،اشفاقا على مهابته ، ولكنه لم يفز بغير الاهانات !٠٠ وكان خليقـــا بهنرى ان يفطن الى أن ملكة فرنسا كانت ابنة شقيق كاترين، فمن الطبيعى أن لا ترحب بأن تشهد مثل هذه المعاملة الابنة لعمتها ، ولكن هنرى ترك للملك فرانسيس أمر تدبير عـلاج لمثل هذآ المأزق ٠٠ فما كانت مثل هذه التوافه المتعلقة بالسلوك والمجاملة لتعوقه عن ان يصحب آن الى كاليه ، حيث تقـــوم بنفسها بدور المضيفة لملك فرنسا ، فى وليمة تدعى اليهـــا

سيدات البلاط الفرنسى وأميراته !٠٠ وعلى هذا بدأت الرحلة الملكية فى شهر اكتوبر ٠ وظن البعض ان الملك كان يعتزم عقد القران فى (كاليه) ، بيد ان آن كانت مصرة عــلى أن يتم الزواج « حيث كانت الملكات يتزوجن ويتوجن » !٠٠ وكان لابد للملك من ان يطيع رغبات آن !٠٠ وحرصت الفتاة على حمل الملك فرانسيس على أن يراقصها ــ فى الحفلة التى أقيمت له فى (كاليه) ــ فأشهدت الجميع بذلك على مدى توفيقهــا الباهر !

ورأت « آن » ــ فى يناير سنة ١٥٣٣ ــ ان لحظة الحصاد قد حانت ٠٠ اللحظة التى تجنى فيها ثمار مناورات دامت ست سنوات ٠٠ وتم الزفاف فى ٢٥ يناير ، وفقا لرغبتها ٠ ولكنه كان زواجا متكتما ، دون أى ضجيج أو بهرج ، لان البابا لم يكن قد صادق بعد على تعيين « كرانمر » أسقفا لكنتربورى ٠ وما كانت آن لتقنع بذلك ، فأقامت حفلة باذخة فى «الصالون» الفخم الذى أهداها الملك اياه فى رأس السنة الماضية ٠ بيــد أن الضيوف كانوا يرزحون تحت وطأة قلق منفعــل ، وقــد لوحظ أن الملك نفسه « كان شارد الذهن ، مقبلا على الشراب، مكثرا من الكلام لكى يخفى مابه ، ولكن أحدا لم يكن يفهم له حديثا ! »

ومع ان آن لم تصبح بعد ملكة ، الا أنها شغلت عن ذلك ــ فى الاشهر التالية لزواجها ــ بسر كان يغلى ويفور فى صدرها، حتى أصبحت عاجزة عن كتمان بخاره ٠ فبينما كانت جالســة مع الشاعر « ويات » ــ الذى أصبح سير توماس ويات ــ وأفراد حاشيتها ، رمقت الشاعر من طرف عينها بنظرة ماكرة ، وقالت: « هلا أرسلت لى بعض التفاح ياسير توماس ؟٠٠ اننى جــد مشوقة الى التفاح !٠٠ أفتعرف ماذا يقول الملك عن هذا ؟٠٠ انه يقول اننى ولابد حامل ٠٠ ولكننى أكذبه ! لا ، لايمكن ان

أكون حاملا ؟ » .. وانطلقت ضحكاتها عالية ، متتابعة ، الى آن غادرت القاعة ، وأفراد الحاشية يتبادلون النظرات فيما بينهم مذهولين !

وأقر البابا أخيرا تعيين كرانمر أسقفا ، فأقسم هذا - فى شهر ابريل - يمين الولاء للبابا ، ولكنه أقسم كذلك - فى السر - ان لا يجعل هذه اليمين تقيده فى شىء يخالف ارادة الملك !.. وزالت العقبة الاخيرة عن طريق آن ، فان هو الا شهر حتى زار الملكة كاترين وفد من النبلاء ليبلغها بأنها لم تعد « ملكة » ، وانما غدت مجرد « أميرة ويلز » !.. وانصتت كاترين الى النبأ فى صمت ، ثم قالت ببساطة : « لقد كنت ملكة .. وما زلت ملكة .. وسأظل ملكة على الدوام ! » .. وسجلت ردها كتابة ، ثم وقعت خطابها بيد ثابتة . « كاترين - الملكة » !

ولكن ردها لم يقدم فى الامر أو يؤخر شيئا . ففى أول يونيو سنة ١٥٣٣ ، دخلت آن دير ويستمنستر وهى فى ازار من المخمل القرمزى ، وثوب من المخمل الاحمر ، وقد استقر شعرها الجميل فى شبكة ذهبية مرصعة بالمجوهرات ، وسار أمامها دوق سفولك يحمل التاج ، والى جانبيه اثنان من الاشراف يحمل أحدهما الصولجان ، ويحمل الآخر عصا من العاج ، بينما سار الى جانبى آن أسقفا لندن وويشستر ، وسارت خلفها دوقة نورفولك تحمل ذيل ثوبها الجرار . وأمام **الهيكل الكبير ، استقر تاج القديس ادوارد على رأسها .. وأصبحت آن - ابنة توماس بولين - « آن ، ملكة انجلترا » !**

وجلس الى مائدتها - فى وليمة التتويج - أسقف كنتربورى الذى انتقض على ما للكنيسة من سلطان روحى من أجلها .. والملك الذى انتقض - من أجلها أيضا - على الزوجة الوفية التى زاملته فى الحياة أربعة وعشرين عاما .. وابنته الشابة الصغيرة . ففيم كان يهم آن بعد ذلك انكار العامة اياها ،

ورفضهم أن يرفعوا قبعاتهم احتراما لشأنها ، حتى قال مهرج حاشيتها لهم : « لابد ان برؤوسكم قرعا ، فأنتم تخشون ان تكشفوها ! » .. ولكن النكات التى تبادلها افراد الشعب كانت أقذع !.. وما قيمة اصرار سيدة جليلة بدينة قصيرة على أن لا تستجيب لزوجها فتعترف بأنها كانت « تعاشره فى الحرام اربعا وعشرين سنه » ؟!.. بل ما قيمه ان تصبح أميرة شابه شاحبة الوجه « ابنة حرام » برغبة والدها ، مادامت آن قد أصبحت ملكة ؟.. ماقيمة كل هذا ؟.. **لقد ضحكت « آن » من كل معارضة .. ضحكت حتى عندما أجاب البابا على هذا الخروج عن طاعته ، فعاقب الملك بالحرمان الاكبر !..وضحك هنرى بدوره ، وقد زين له الغرور انه كان على حق فيما فعل، وان البابا هو المخطىء !.. بل لقد أصبح البابا - فى نظره - مجرد « أسقف روما » ، وأصبح هو « بابا وامبراطور وملك انجلترا .. وأصبحت آن « ملكة انجلترا » ! .. بل كان هناك ماهو أكثر من ذلك .. كانت آن حاملا ، ولن تلبث ان تضع وليا للعهد ، فلا تستطيع قوة فى العالم أن تزحزحها عن مركزها !**

* * *

• **ولقد** استخف الزهو الماجن آن ، فأوعزت الى الملك ان يطلب الى كاترين ان ترسل له ثوب التعميد الفخم الذى أحضرته معها من أسبانيا - عندما زفت الى هنرى - ليعمد فيه الطفل الذى كان مرجوا أن ترزق به . وبررت آن طلبها بأن الثوب كان معدا لابن هنرى ، وقد نجحت هى - حيث أخفقت كاترين - فى انجاب هذا الطفل أو كانت على وشك النجاح !.. وكان رد كاترين لاذعا ، فى أدب ووقار ، حتى لقد أحس هنرى بالخجل . ومع انه قدم لآن - بدلا من الثوب - مهدا فخما للطفل ، الا أن آن لم تشعر بالرضى .. فكيف يخفق هنرى

فى أن يحقق لها رجاء ، لاسيما وهى توشك ان تنجب له أمنية فؤاده ؟٠٠ وزادها حنقا ان عينى هنرى أصبحنا تحيدان عنها ـ بعد ان شوه الحمل شكلها ـ لتطوفا بوصيفات الشرف النحيلات القدود ، الرشيقات الحركة ٠٠ كما هامتا من قبل وراء احدى وصيفات كاترين !٠٠ ولما كانت تؤمن بسياسة الهجوم ، فقد بادرته بالاتهام ، وخاطبته بكلمات مقذعة لم ترق له ، فأجابها منذرا : « **جدير بك ان تغمضي عينيك ، كما اغمضتهما من قبل من هي أسمى منك قدرا ، اذ يخلق بك ان تعرفي ان في وسعي ان أذلك في لحظة ، وان أذهب فى اذلالك الى أكثر مما ذهبت في ارضائك !** »

لقد أصبحت « آن » ملكة انجلترا حقا ، ولكنها لم تعد الغزال النافر الذى كان يروغ من صائد مشغوف !٠٠ على أنها لم تحفل كثيرا ، اذ لم يلبث هنرى ان راح يفخر بولى العهد الذى لن يلبث ان يحظى به ، فقد أجمع الاطباء والفلكيون والعرافون على أن الجنين ذكر !٠٠ بل لقد أعد عقدها مرسوم اعلان مولد ولى العهد ، ولم يبق الا اثبات التاريخ فى المرسوم ! ٠٠ وكان التاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٥٣٣ ٠ **ولكن هنرى اضطر الى أن يحشر بعد كلمة « أمير » حرف التأنيث « ة » بيد ترتجف حسرة وكمدا ٠٠ اذ أنجبت آن بنتا !**

ومع ذلك فقد عمدت الطفلة ـ باسم اليزابيث ـ فى حفل فخم رائع ٠ وأخذ هنرى يعزى نفسه بأن مولد الطفلة كان فى حد ذاته اثباتا لمقدرته على الانجاب ، اذ كان الشك قد راوده من هذه الناحية ٠ وما دامت آن شابة ، وهو مشبوب الشهوة ، فلا بأس من اعادة التجربة !٠٠ ولكن آن كانت نهبا للقلق ، برغم ضحكاتها وتظاهرها بالاطمئنان ٠ وازدادت كراهية لمارى ، اذ كانت الابنة الكبرى للملك على أية حال ، وكان فى هذا خطر ، وأى خطر !٠٠ وأخذت تقول فى حقد اسود : « انها موتي ، وأنا موتها ٠٠ وساعني بأن لا أمكنها من البقاء

بعدى لتضحك منى عند وفاتى ! » .. وهكذا لم يلبث هنرى — رغبة فى توكيد شرعية الطفلة الجديدة — ان دعا كاترين الى أن تؤدى اليمين الجديدة اعترافا منها به كرئيس أعلى للكنيسة الانجليزيه ! ولكن كاترين رفضت فى اصرار ، فقد كان هذا ينطوى على ما كان يصبو اليه من اعتراف بأن زواجها منه كان باطلا ، وانها لم تكن أكثر من محظيـــة له . واحتدم سخط هنرى ، لاسيما وقد ألفى نفسه عاجزا عن ان يطيح برأس هذه المرأة العنيدة ، فتحول يفثأ هذا السخط فى ابنتها ، فجردها من لقب « أميرة ويلز » ومنحه للطفلة الجديدة ، معلنا انهـــا « وريثته الشرعية الى أن ينجب طفلا ذكرا .. عما قريب ! » .. فهكذا كان يرجو ، وكانت آن ترجو معه !.. ولكن آن لم تقنع بتجريد مارى من لقبها ، وانمـا راحت تتحين الفرص ، حتى انهـــا رفضت ان تصحب هنرى فى رحلة جــديدة الى (كاليه) ، طمعا فى ان تغدو — أثنـــاء غيابه — وصية على العرش ، فتستغل سلطانها فى القضاء المبرم على الاميرة . بيد أن هنرى ما لبث أن أرجأ الرحلة . ويقال انه أدرك ما كانت تبيته « آن » ، فلم يجسر على ترك ابنته الكبرى تحت رحمتها ، اذ أنه لم يقو قط على انتزاع حبه لها من فؤاده ، رغم كل شىء !

وخابت آن فى حملها الثانى ، فانتهى الى اجهاض . واذ ذاك بدأ ضمير الملك يتحرك ويخزه .. هل يكون الله غاضبا عليه ، ومن ثم فهو يحرمه من ابن ذكر ؟.. لقــد كانت مارى بولين عشيقة له ، ومن ثم فان الشريعة لم تكن لتبيح له الزواج من أختها آن .. كانت آن محرمة عليــه ، كمـــا كانت كاترين تماما !.. والواقع أن الحرام والحلال ما كانا ليقفزا الى خاطر هنرى واعتباره ، لولا أنه قد بدأ يشتهى صيدا جديدا ، ولولا ان الصيد القديم بدأ يفقد سحره ونفوذه !.. أجـل ، كانت عينا هنرى قد علقتا باحــدى وصيفات الشرف فى حاشية الملكة : شقراء ، ناضرة ، تختلف عن آن بقـــدر ما كانت آن

تختلف عن كاترين .. فتاة خجول ، رقيقة ، متواضعة ، لا تتفظ بكلمة نابية ، ولا تضحك بقهقهة عاليه صارخه !..
« جين سيمور » .. اسم بديع ، لفتاة بديعه !

وطلبت آن بجرأتها ووقاحتها المعهودتين ، اقصاء الوصيفة في الحال ، ولكن هنرى أجابها فى غلظة : «من الحكمة أن تقنعى بما فعلت لك ، وما كنت أرفض أن أفعله لو قدر لنا أن نبدأ من جديد ! » . على انه ما لبث ان كبح من غلظته ، اذ سرعان ماحملت « آن » مرة أخرى ، فاذا الملك يحنو عليها أكثر من ذى قبل !.. وراح يبحث عن شخص آخر يفثأ فيه غيظه ، فلم يجد سوى كاترين التى رفضت فى شمم ان تقبل لقب « أميرة ويلز » مرة أخرى !.. وعمد الى تخفيض حاشيتها، والى التضييق عليها بالحد من مخصصاتها ، فلم يزدها هذا الا تشبثا بموقفها ، حتى انه لم يكن يتمالك ان يقول فى اعجاب: « ان السيدة كاترين أبية، صلبة ،ذات شجاعة عالية!» .. ولو انها كانت قد ماتت وقتذاك ، لما أحجم عن ان يجاهر فى اعتزاز بأنها كانت دائما زوجة شرعية ، صالحة ، صادقة .. لاسيما بعد ان انتهى حمل « آن » مرة أخرى الى اجهاض، مما ضاعف من اعتقاده بأن الله كان يعاقبه !.. واذا كانت كاترين قد اكتهلت ، ولم يعد فى امكانه ان يعود اليها ، فان « جين سيمور » كانت شابة ، هيفاء ، جميلة ، فى وسعه ان يجد السلوى لديها !

* * *

• وفى تلك الاثناء ، بدأت انجلترا ترزح تحت كابوس ارهاب جديد .. فكما ان الكثالكة كانوا يحرقون من يأبون عبادة الله ـ وفقا لما جاء فى الدين ـ فى أسبانيا ، كذلك بدأ الذين رفضوا عبادة الله ـ طبقا لما أمر به هنرى ـ يعانون اضطهادا فظيعا فى انجلترا . ففى مايو سنة ١٥٣٥ ، لقى بعض الرهبان

المسالمين أبشع ألوان العذاب قبـل أن يموتوا ، لانهم أبوا أن يروا فى الطاغية ممثلا للرب فى انجلترا !.. ولم ينقض يومان حتى قتل أسقف روشستر وعلق رأسه على عامود فوق جسر لندن ، ارهابا لبقية الاساقفة !.. وفى يوليو ، أبى « توماس مور » ان يدين للملك كرئيسه الروحى ، فدفع حياته ثمنـا لتحديه . وكان الملك يلعب النرد مع آن ، حينما حمل اليه نبأ اعدام الوزير العظيم ، فجمد فى مجلسه صامتا فترة من الوقت ، وقد شرد بصره ، ثم نهض فشـد قامته ، وأطل من علياء طوله على آن وقد قست نظرته ، و زم شفتيه ، ثم تكلم فاذا صوته مفعم بالمرارة والاتهام : « **كل هذا من جرائك .. لقد مات أشرف رجـل فى مملكتى !** » .. ثم ضرب المـائدة بصندوق النرد ، وغادر الغرفة بخطوات ثقيلة

وفى يناير سنة ١٥٣٦ ، ماتت السيدة المثقلة القلب ، التى ظلت تصر على أن توقـع باسم « كاترين ، الملكة » ، والتى ناشدت « سيدها العزيز ، ومليكهـا ، وزوجهـا » فى آخر خطاباتها اليه ، أن يطهر نفسه وروحه قبل ان يعنى بجسده . وقالت : « وفيما عـدا ذلك ، أوصك بابنتنا مارى ، وأضرع اليك أن تكون أبا صالحا لها .. كما أرجوك أن تبر بوصيفاتى فتمنحهن مايساعدهن على الزواج ، ولن يكون هذا كثيرا ، اذ انهن لا يزدن عـلى ثلاث .. وأخيرا ، أصـارحك بأن عينى لا تشتهيان سوى ان تقعا عليك دون أى انسان آخر ! » .. وصاح الملك حين علم بوفاتها : « الحمد لله ، لقـد ماتت الشمطاء ! » ، فهتفت آن فى ابتهاج : « ولقـد أصبحت ملكة بالفعل ! » . وفى مساء يوم تشييع جنـازة كاترين ، أقاما حفلة راقصة فى القصر الملكى ، ظهر فيها هنرى فى ثيـاب صفراء ، من رأسه حتى قدميه ، فيما عدا الريشة المثبتة فى قبعته ، فقد كانت بيضاء !.. وارتدت « آن » كذلك ثيـابا صفراء زاهية !

وعاد هنرى الى تسامحه معها ٠ ولكنه لم يتجاوز حدود التسامح ، ثم يعد يهيم بها ، وانما اصبح يسر لها بواجبها كملكة ، ويبحث عن متعة فى كل مكان ٠ وفى ذات يوم فاجأته فى قصر (جرينويتش) مع جين سيمور ، فاستبد بها الغضب الى درجة أجهضتها – اذ كانت حاملا – فاذا الجنين ٠٠ ذكر ! ووقف هنرى الى جوار فراشها يتأملها ، فلما تكلم ، لم تكن لهجته لهجة اشفاق على زوجة منكوبة ، وانمـــا كانت لهجة غضب على خادم أذنبت ، اذ قال : « سأتحدث اليك عنـــدما تتحسن حالك ! » ٠ على انها ظلت محتفظة بقوتها على الهجوم ، برغم ما كانت تعانيه من وهن ومرض و هم ، فراحت تلومه وتكيل له التقريع ، وتلقى عليه مسئوليه ماجرى ، حتى لقد بكى اذ تذكر ماضيع من سنين ، وما كان يعلق من آمال عــلى الجنين الذى نزل الى الحيـــاة ميتا !٠٠ وما لبث ان غادرها ، وغادر جرينويتش ٠ ولعلها ارتجفت فرقا اذ ذاك ، وهى تذكر كيف غادر كاترين فى (وندسور) منذ زمن بعيد ، فلم يعد اليها بعد ذلك مطلقا ٠ على أنه كان مقدرا لآن ان ترى زوجها مرة أخرى !

⭑ ⭑ ⭑

٭ وفى قصر (يورك) ، همس هنرى فى اذن كانت تصغى اليه ، بأنه « أقدم على زواجه مدفوعا بقوة سحر مدبر ، ومن ثم فانه يعتبر هذا الزواج باطلا ، وان هذا هو السبب فى أن الله يأبى أن يرزقه بولد ذكر ! » ٠٠ ولو آن طبيبه جرؤ على أن يصارحه بالحقيقة اذ ذاك ، لاعرب له عن رأى آخر لتكرر اجهاض الزوجة الشابة ٠ فان هنرى – بعد ان بلغ سن الرابعة والاربعين – كان يزداد ســمنة وترهلا ، كمــا ان نزواته الشهوانية لم تكن منبعثة الا عن رواسب راحت تنساب من قرح خبيثة لا شفاء منها !

وفى أول مايو سنة ١٥٣٦ (عين السنة التى ماتت فيهـا كاترين) تلقى الملك من سيدة فى البلاط – لم تكشف عن اسمها ولا عن شخصيتها – أنباء اليمة ، ولكنها صادفت هوى من نفسه .. أنباء أثبتت أن زوجته كانت تخونه مع أربعة من السادة أفراد الحاشية ، هم : نوريس ، وويســتون ، وبريرتون ، وأخوها « روتشفورد » !!.. فضلا عن خادم حقير فى جناح الملك يدعى « مارك سميتون » ! وذكرت السيدة أنها تلقت هذه الأنباء من سـيدة شاهدتها بعينيهـا هى « ليدى وينجفيلد » .. وكانت سيدة محترمة ، أمينة ، ولكنهـا .. كانت قد ماتت !

وفى اليوم ذاته ، عمد « توماس كروموبل » – سكرتير الملك – الى دعوة الخادم سميتون الى العشـاء معه فى داره ، فلبى الشاب الدعوة مزهوا ، وقد استخفه ان يحظى – على وضاعة مكانته – بمثل هذا الشرف . ولكن الباب لم يكديغلق خلفه ، حتى تبدلت الحال ، فاذا به يقيد بحبـل .. وتحت لسعات عصا حامية ، وحبـل معقود ، أمكن انتزاع الاعتراف المنشود منه !.. وفى اليوم ذاته ، رحل الملك الى جرينوتيش ليحضر الاحتفالات بعيـد مايو . وكان بين الاحتفالات مباراة كان لورد روتشفورد على رأس أحد فريقيها ، بينما كان نوريس على رأس الفريق الآخر . وشهد الملك وآن هذه المباراة فى جو بادى الود . وفى المساء ، عاد هنرى الى ويستمنستر ، ممتطيا جواده . وكان نوريس يركب الى جواره ، حين التفت اليـه فجأة واتهمه بارتكاب الفحشاء مع آن . وأجفل نوريس ، وراح ينكر فى حمية وشمم ، فلما عرض عليه هنرى أن يضمن له عفوا تاما اذا هو اعترف اعترافا مفصلا ، قال الشاب انه يؤثر الموت على أن يثبت على نفسه مثل هـذا الذنب الدنىء !.. وبات نوريس ليلته فى سجن قلعة لندن !

وفى اليوم التالى ، استقبلت آن – فى جرينوتش – بعثة

أوفدها الملك برئاسة عمها دوق نورفولك ، الذى قال لها : « يسر صاحب الجلالة ان ترحلى الى القلعة ! » •• وتولاها ذعر اعتصر فؤادها ، ولكنها تجلدت وقالت : « اذا كان هذا يسر الملك ، فانى على استعداد لاطاعة رغبته ! » •• وما ان وصلت الى القلعة ، حتى ألفت سير وليم كينجستون – قائد السجن – فى انتظارها ، فقالت له مشفقة : « هل سأنقل الى زنزانة ؟ » ، فأجابها : « لا ياسيدتى •• بل ستأوين الى الحجرة التى قضيت فيها الليلة السابقة للتتويج ! » • فركعت على الدرج وبكت • ولكنها لم تلبث ان أغرقت فى الضحك فجأة ، مما أذهل كينجستون وحيره ! وهكذا سجنت فى حجرة الذكريات •• الحجرة التى قضت فيها ليلتها السابقة ليوم التتويج ، وفقا للتقاليد • وكانت ثمة امرأتان تشاطرانها الحجرة لتحرساها وتراقباها ليل نهار ، وتحملا الى كينجستون تقريرات مفصلة عن كل كلمة تقولها فى نوبات الغضب أو الذعر !•• وكانت تبدو فى بعض الاحيان قوية الجنان ، شجاعة ، كما كانت فى بعض الاحيان ترسل الضحكات العالية التى لم يكن يفقه أحد كنهها •• ثم لا تلبث ان تقول وهى تتقد غضبا : « ما كان من المتوقع مطلقا ان أعامل بهذه القسوة وانا ملكة ! » • ولما قيل لها – كذبا – ان سميتون لم يكن الوحيد الذى اعترف ، بل ان نوريس هو الآخر اتهمها ، راحت تنكر فى حرارة قائلة : « **انني بريئة من معاشرة الرجال في الخطيئة، براءتي من معاشرتك أنت ياكينجستون •• واني لزوجة الملك الصادقة • انني أسمع بأنني سوف أتهم بالخيانة مع أربعة رجال ، وليس بوسعي ان أقول أكثر من كلا ، دون ما حاجة الى أن أكشف عن جسمي !** » •• **و شقت ثوبها ثم انخرطت في البكاء وهي تقول : « أواه يانوريس •• كيف تتهمنى ؟ »** • وما ان أكد لها كينجستون ان أقل رعايا الملك شأنا لابد ان يحظى بحقه من العدالة ، قهقهت ضاحكة !

★ ★ ★

• على انها كانت فى قرارة نفسها لا تقوى على الاطمئنان الى الملك ، ومن ثم طلبت ورقا وقلما وكتبت له تقول :

« ان استياء جلالتك ، وحبسى ، أمران غريبان على ، ولذلك فانى أجهل تماما ما ينبغى ان أكتب أو أقدم من أعذار .. ولكن ، لا تتصور ياصاحب الجلالة ان زوجتك المسكينه يمكن ان تقسر على الاعتراف بذنب لا قبل لها بمجرد التفكير فيه.. كما اننى لم أنس نفسى قط ــ فى هناءتى ، وفى ملكى الممنوح ـ بل كنت دائما أرتقب مثل هذا التحول الذى أعيش فيه الآن، لان ايثارى لم يقم على أساس أمتن من هوى جلالتك ، ومن ثم كنت أشعر بأن أتفه تغير كفيل بأن يجتذب هواك الى هدف آخر !.. ألا حاكمنى أيها الملك الطيب ، ولكن .. دعنى أنعم بمحاكمة عادلة ، ولا تدع ألد أعدائى يجلسون فى مقاعد النيابة والقضاء .. وآذ ذاك ، فسوف ترى ما اذا كانت براءتى تتجلى .. أو كان جرمى يفتضح ، فاذا ثبت ذنبى علانية ، فلجلالتك الحرية ــ أمام الله وأمام الانسان ــ لا فى ان تقتص منى القصاص الحق فحسب ، وانما فى أن تتبع عاطفتك التى اتجهت بالفعل الى ذلك الهدف الذى من أجله أجدنى اليوم فيما أنا فيه ! » ، ووقعت الرسالة بهذه العبارة : « الوفية لك كل الوفاء ، والزوجة المخلصة الى الأبد : آن بولين »

وفى اليوم التالى ، أنبأوها بأن أخاها و « توماس ويات » فى القلعة . ومن عجب انها شعرت اذ ذاك بارتياح ، وكأنما اطمأنت حين عرفت ان الصديقين الوحيدين اللذين تثق فى وفائهما كانا على مقربة منها ! فلما كان اليوم الثانى عشر من مايو ، حوكم الرجال ، فيما عدا « ويات » ، اذ كان الملك مشغوفا بموسيقاه وأشعاره ، فلم يشأ أن يضحى بمصدر من مصادر لهوه ، مادام ثمة ضحايا آخرون !.. وفى تلك المحاكمة

ـ اذا جاز أن تسمى محاكمة ـ لم يسمح للمتهمين بالمشورة القانونية ، ولا بأن يستدعوا شهودا لأثبات براءتهم · بل **وجهت اليهم تهمة الفسق ، و « ان الملكة المذكورة وهؤلاء الخونة ·· تآمروا لموت الملك والقضاء عليه ، وكانت الملكة كثيرا ما تقول انها ستتزوج من أحدهم بمجرد موت الملك » !·· وأدين الجميع ، بعد اذ اعترف سميتون ·· أولم يكن اعتراف واحد كافيا لادانة الاربعة ؟·· ومن ثم قضى عليهم بالموت ·** ولقد حوكم روتشفورد على حدة ، فأنقذ شرفه اذ بين بشاعة العمل الوحشى الذى اتهم به ، واستحالة وقوعه ! غير انه فقد حياته ، لانه صاح عاليا : « ان الملك لم يؤت قدرة على النسل ، ولا يتصف بفضيلة ، ومن ثم فهو عاجز عن ان ينجب وليا للعهد !

واذ أعدم هؤلاء الرجال ، ولم يعد فى الامكان الاستشهاد بهم ، سيقت المتهمة الرئيسية الى المحاكمة · وكانت « جين سيمور » قد انتقلت ـ فى ١٤ مايو ـ الى أحد البيوت الفخمه على ضفاف نهر التيمز ، وقام على رعاية شئونها موظفون وخدم ملكيون ، مما جعل العامة ـ الذين كرهوها ـ يستنكرون هذا التسرع المستهجن من الملك !

وفى اليوم التالى ، مثلت « آن » أمام ستة وعشرين من نبلاء المملكة يرأسهم عمها دوق نورفولك · كانت شابة فى التاسعة والعشرين ، لا تفقه من القانون شيئا ، ولا تدرى سوى قسوة الاتهام الموجه اليها ، ولا تملك ان تواجه سميتون الذى عذب حتى اعترف ، ولا نوريس الذى كانت قد صدقت انه اعترف بدوره !·· كانت وحيدة تماما ، حين مثلت أمام قضاتها ، دون أن يسمح لها بأية مشورة قانونية أو ودية ، ولا بأى عون أو مساعدة · ولاول مرة ، عرفت تفصيل الاتهام حين قرىء عليها: **« ان الملكة آن ، بما كانت تضمر من شر للملك ، وما كانت منساقة فيه يوميا من شهوات ،قد استطاعت بالغش والخيانة،**

وباستخدام أحاديث ولمسات دنيئة ، ووسائل أخرى مستهجنة، أن تغرى عددا من خدم الملك المرافقين له فى حياته اليومية والمقربين اليه ، على أن يكونوا مضاجعين لها وعشاقا !٠٠ كما أن الملكة وغيرها من الخونة المذكورين ٠٠ رموا الى ، وفكروا فى موت الملك ، وأن الملكة وعدت فى مرات كثيرة بأن تتزوج واحدا من الخونة ، مؤكدة أنها لم تكن تكن للملك حبا فى قلبهـا قط ، فضلا عن ان الملك أصيب فى قرارة نفسه بهم وكمد ، بسبب ماذكر من خبث الملكة وفسقها ، فلحقت بجسمه الملكى عدة أضرار معينة ! »

ثم تلا عمها الحكم الذى كان يقضى بأن تحرق حية ، ما لم يخففه الملك ــ برحمته العظيمة ! ــ الى مجرد الاعدام بقطـع الرأس !٠٠ وعادت آن تكرر : « لا !٠٠ لا ! » التى كانت كل ما سمح لهـا به من دفاع ، ثم اتهمت عداله الملك ، بأن قالت : « سادتى ٠٠ أميل الى الاعتقاد بأن لديكم أسبابا كافية لما أبرمتموه ، ولكنها ولابد أسباب غير التى أبديت فى هـذه المحكمة ، لاننى براء من الذنوب التى اتهمت بها » :

☆ ☆ ☆

◇ ونقلت فى اليوم التالى الى قصر (لامبث) ، حيث كان الاسقف كرانمر فى ارتقابها ٠٠ فان ضـــمير الملك لم يكن مستريحا كما ينبغى ، فكان لزاما على آن ان تقر بأنها كانت يوما خطيبة لبيرسى ــ ابن دوق نورثمبرلند الذى رآها الملك تضاحكه حين تفتحت شهوته نحوها لاول مرة ــ ومن ثم فان زواجها من الملك لم يكن صحيحا من الناحية الشرعيه ٠ ولكى يقسرها كرانمر على أن تعترف بما يبطل زواجها ويبطل نسب ابنتها شرعا الى الملك ، راح يصور لهـــا فظاعة الموت حرقا ، ويمنيها بما سبق ان عرض على كاترين من ان تأوى الى الدير ! ٠٠ على أن « آن » كانت على غير شاكلة « كاترين » التى كان

يظاهرها امبراطور أسبانيا ـ شقيقها ـ والبابا .. وكان هنرى لا يريد ان يثقل ضميره بزواج تحيط به الريب ، ومن ثم تركها فى العذاب ثلاثة أيام أخرى ، بينما اوفد الى فرنسا فى طلب جلاد بارع ، حتى يسلم رأسها لسيف كريم ، بدلا من البلطة العادية !

وبينما كانت آن تنتظر مصيرها ، كان الملك غارقا فى المآدب واللهو مع سيدات البلاط .. ليعود فى كل ليلة الى (ريتشموند) على ظهر يخت فى النهر ، تحف به أنغام الموسيقى التى كان يهواها !.. وفى ذات مساء ، صارح أسقف كارليل ـ بعد ان تناول معه العشاء ـ بأنه كان يتوقع هذا الحادث منذ زمن طويل ، حتى انه كتب مسرحية حوله !

ووصل الجلاد الخبير أخيرا ـ فى ١٨ مايو ـ فما زارها القس ، أرسلت فى استدعاء كينجستون ، الذى قال ـ بصدد ذلك ـ انها شاءت ان يسمعها فى لحظاتها الاخيرة تؤكد براءتها . حتى اذا أتمت اعترافها للقس ، تحولت الى كينجستون قائلة : « علمت اننى لن أموت قبل الظهر ، وانى لآسفه لذلك، فقد ظننت ان لن يأتى الظهر حتى أكون ميتة ، بمنأى عن الالم ! » . فلما أكد لها انها لن تعانى ألما ، قالت : « سمعت أن الجلاد خبير بارع ، وان عنقى لنحيل ! » . ومست عنقها النحيل ، ثم ضحكت .. لآخر مرة !.. ولكنها لم تسق الى حتفها الا فى الصباح التالى . فنهضت مبكرة . وارتدت ـ تلك التى كانت يوما مثالا ومرآة لمن كانوا فى البلاط ـ ثوبا من الحرير الرمادى ، فوق قميص قرمزى اللون ، وعقصت شعرها البديع ونسقته تحت شبكة من الذهب المرصع باللآلئ . ثم سارت بنفس الثبات التى كانت تسير به الى جوار زوجها من قبل .. سارت وحيدة لتلاقى الموت على أرض حديقة القلعة . فلما بلغت النطع ، صعدت اليه فى غير اضطراب . ولم يكن النطع عاليا ، اذ حرص الملك على أن لا تصل اليه الابصار

خارج أسوار القلعة ، لانه كان يدرك ان « عدالته » لا تروق للعامة من أهل لندن !

وأمام الشهود — وكانوا عمـــدة لندن ومحافظها وأعضاء مجلس الملك — قالت آن : « **أيها المسيحيون الصالحون ٠٠لقد جئت لأموت وفقا للقانون ، فقد قضى على بالموت استنادا الى القانون ، ومن ثم فلن أقول عنه شيئا ٠٠ ماجئت هنا لاتهم انسانا ، وانما جئت لاموت ، ومن ثم فانني أسلم نفسي ، في تواضع ، الى ارادة مولاى الملك ٠ واذا تعرض انسان لقضيتي في المستقبل ، فانما أسأله أن يقضى بالحق !** » ٠٠ ثم اقترب منها الجلاد ، حتى استلقى ظله — تحت شمس ذلك الصباح من شهر مايو — أمامها ، فتمتمت هامسة : « يا الهى ٠٠ ارحم نفسى ! »

وانطلق مدفع من أعـــلى القلعة يعلن موت ملكة ٠٠ فبلغت أصداء طلقاته قصر ريتشموند واهنة ، خافتة ٠ وعندما بلغت سمع الملك — الذى كان مرتديا ثيابا بيضاء ، اشارة للحداد الملكى — خطا الى اليخت ، ومضى على أمواج (التيمز) الهادئة ، الناعمة ، الحنون ، بين ضفتين موشاتين بالزهور ، الى حيث تبادل خاتمى الخطبة مع حبيبته الجديدة ٠٠ « **جين سيمور** » !

(ولدت فى سنة ١٦٤١ وماتت فى سنة ١٧٠٧)

كانت طموحا أكثر منها متهتكة ، ولكنها كانت كالشيطان شرا !

الأميرة بالاتين

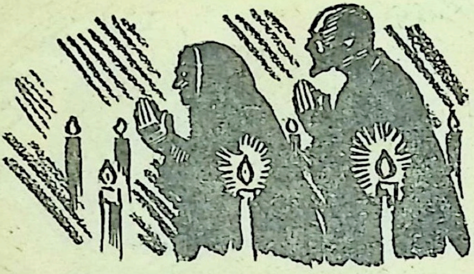

السيدة الجميلة !

« انه لا يحبنى ، وانما هو يعتقد ان من واجبه نحو نفسه ان يتخذ من اجمل امرأة فى مملكته .. عشيقة ! »

مدام دى مونتسبان

• **كان** فى مظهره الخارجى مثل أى بيت صغير متواضع فى شارع « دى لاتانيرى » الضيق ، يقبع فى دعة تحت السماء المرصعة بالنجوم ، وقد أوشك الليل على الانتصاف . بيد ان الغرفة الداخلية الصغيرة – التى كانت بمثابة قلب ينبض بالشر ! – لم تعرف الدعة ولا النعاس ، اذ استقرت تسع شمعات مشتعلة فى شكل دائرة على الارض ، ملقية ظلالا على الجدران ، بينما تصاعدت سحب البخور فى موجات حلزونية من الهيكل المجلل بالسواد ، وراحت تتلوى كما لو كانت حيات تزحف فى الهواء نحو السقف المنخفض ! وفى داخل دائرة الشموع ، وقف رجل وامرأة ! .. وكان الرجل شابا ، طويلا ، منتصب القامة ، يرتدى مسوح الرهبان ، وقد تجلى بياض بشرته ووسامة شكله واضحين ! .. **أما المرأة فكانت صغيرة ، رشيقة القوام ، تضع على وجهها قناعا ، وتسبغ على**

جسدها مئزرا ، وقد عقدت يديها على صدرها بحيث تماست أطراف أناملها ، ثم أحنت عليهما رأسها كما لو كانت تصلى ٠
وأخذ الرجل يردد فقرات من سفر التكوين بصوت منخفض ، مثقل النبرات ، وعيناه تلمعان على ضوء الشموع كما لو كانتا قرصين من زجاج فى وجه من عاج ٠ وبتلكما العينين ، كان يدرس المرأة الواقفة أمامه ٠ ولم يك يتبين منها سوى اليدين والشعر ، ولكن هذه المعالم كانت كافية ٠ كانت اليدان خاليتين من أية زينة ، ولكن دقتهما ورقتهما كانتا دليلين على أنهما لم ترهقا بعمل أثقل من رفع مرآة !٠٠ وكانت الاصابع الطويلة المتناسقة محوطة بعلامات خلفتها خواتم رفعت عنها منذ عهد قريب ٠ أما الشعر فكان منسقا فى بساطة ، ولكنها بساطة فنية تدل على عناية ٠٠ ومن ثم لم تكن صاحبة تلك المعالم ، من عاملات المتاجر الفقيرات !

وانتهى الرجل من تمتمته الخافتة ، الاجشة ، الرتيبة ، فطوح بذراعيه فجأة ، واذا ظلال كميه الواسعين ترفرف كأنها خفافيش ضخمة تحوم عند السقف ٠ وفى صوت خشن ، رهيب ، عاد يردد احدى التعاويذ المهيبة : « أستحلفك ياشيطان ! يا بليال ! يا زاميل ! يا بيلزبوب !٠٠ أستحلفك ٠٠٠ » ٠ وركعت المرأة على ركبتيها ، وارتفع صوتها فى غمرة السكون يتم التعويذة : « اننى أطلب صداقة الملك والسيد ولى العهد ، وان أحتفظ بها ، وان تصاب الملكة بالعقم ، وان يهجر الملك فراشها ويلجأ الى ، وان أحصل على كل شىء أطلبه منه ٠٠ وان تظل صداقة الملك فى اطراد ، فيهجر لافاليير ويتحول عنها ، حتى اذا فصم زواجه بالملكة ، فلأكن أنا عروسا له ! »

* * *

٥ فى شهر مايو من ذلك العام – ١٦٦٧ – أغار ملك

فرنسا « لويس الرابع عشر » على هولندا الاسبانية باسم زوجته الملكة « مارى تيريزا » ، مطالبا بالاراضى المنخفضة كميراث لزوجته بعد ان مات أبوها « فيليب الرابع » الاسبانى . وما ان غادر باريس فى هذه الحرب ، حتى أعلنت الملكة بدورها حربا أخرى ضد عشيقة الملك « لويز دى لافاليير » ، وكانت أولى حملاتها ان أمرت الشابة بأن تغادر البلاط وان تعتكف فى قصر (فوجور) .. وما لبثت الملكة ان تبعت الملك فى زحفه المظفر ، مصطحبة سيدات الحاشية . **وكانت من بينهن مركيزة مونتسبان الشابة ، ابنة جبرييل دى روشيشوار ، دوق مونتمار . وكانت فى الخامسة والعشرين ، ذات مكانة سامية ووقار كزوجة وأم .. كما كانت شديدة التقوى ، وقد استطاعت بفضل جمالها الباهر - المتسم بالورع - ولباقتها فى الحديث ، ان توفق ، بدرجة تدعو الى الاعجاب ، فى صرف اهتمام الملك عن لافالبير المقيتة !.. وراحت الملكة الاسبانية تفرك يديها فى غبطة وارتياح ، وهى مطمئنة غاية الاطمئنان الى هذه السيدة الوفية ، التى كانت تخلص لها الود . والتى لم يكن للملكة ان تخشى أثر جمالها على الملك ، لانها سيدة تقية، كما كانت زوجة سعيدة !**

وهكذا حق للملكة - حين بلغت (لافير) ، ولم يبق بينها وبين الملك فى (آفين) سوى مسيرة يوم - ان تجلس للعشاء مع سيدات الحاشية وهى خلية البال ، ناعمة الفؤاد . بيد انها لم تلبث ان سمعت حركة فى غرفتها الداخلية بالقصر الذى نزلت فيه ، فلما استفسرت عن سببها ، قيل لها - فى تلعثم وتردد - ان الآنسة « لافاليير » قد وصلت !.. وبكت الملكة غيظا وقهرا ، بينما راحت سيدات الحاشية يبدين عطفهن واستنكارهن بأصوات عالية . **وكانت مدام دى مونتسبان أكثرهن تحمسا ، فراحت تقول : « انظرن ما آلت اليه حال صاحبة الجلالة !.. ليحفظنى الله من ان أكون يوما**

خليلة ملك !٠٠ على اننى اذا حاق بى مثل هذا النحس ، فلا أقل من ان أستحى من الظهور بوجهى أمام الملكة ! » ٠٠
وكانت الملكة قد تمالكت جأشها ، فطلبت الى كبير الخدم الا يقدم عشاء للسيدة المتطفلة ٠ بيد ان الجوع والتعب ما كانا ليثنيا عشيقة الملك عن رحلتها ، اذ كانت تتحرق شوقا الى ان ترى عشيقها فى دور الملك المحارب المكلل بالظفر ٠٠ بل فى أن تكون أول من يراه ! فاستقلت عربتها فى ساعة مبكرة من اليوم التالى ، وأمرت الحوذى بأن يتجنب الطريق العادى ،وان يمضى خلال الطرق الفرعية الى (آفين) ٠٠واستطاعت ـ بذلك ـ ان تسبق الملكة ، ولكن جزاء السبق كان لطمة !٠٠ **اذ قابلها الملك ببرود حين اندفعت اليه مشعثة ، وقال : « ماهذا ياسيدة ؟٠٠ أقبل الملكة تفدين ؟! »**

وكان لويس الرابع عشر فى عنفوان شبابه وملكه اذ ذاك٠٠ كان رجلا مليحا ، وسيما ، فى السادسة والعشرين من عمره، يخفف من القوة المتجلية على وجهه البارز العظام ، جمال أخاذ تبدى فى شعر غزير ، وعينين سوداوين ، وفم صيغت شفتاه بحيث تنمان عن حساسية مرهفة ، وشهوة متقدة !٠٠ ولم يكن بطبيعته خليعا ، ولكنه حرم من الفتاة الوحيدة التى أحبها فى شبابه وظل هيامه بها غرام حياته كلها !٠٠ وكان بطبيعته ـ ككل رجال آل بوربون ـ قويا ، مشبوب الاحاسيس ، فلم تستطع الاميرة الاسبانية الصغيرة التى دفعوا بها الى أحضانه كزوجة ـ وهو فى الثانية والعشرين من عمره ـ ان تشبع نهمه ٠٠ كانت ضئيلة الجسم والذكاء ، ومن ثم لم تستطع ان تملأ فراغ حياته الشخصية كزوجة ورفيقة ٠ وما كان زواجه منها الا ستاراً لزواج سياسى تم بين فرنسا وأسبانيا ، وجعل حياته فراغا خاويا !

لذلك كان من الطبيعى ان يميل الى لويز دى لافاليير ، حين ركعت أمامه تقدم جمالها اللطيف ، وذهنها المثقف ، وأعجابها

البالغ !٠٠ ولم يكن فى وسعه ان يهبها غراما عفيفا ـ اذ كان غرامه انعف الوحيد وقفا على « مارى مانشينى » ـ التى حيل بينه وبينها ـ ومن ثم لم يملك سوى ان يغرقها بايثاره ، وان يغدق عليها الثراء ومراكز الشرف طوال السنوات الست التى أعقبت هذا اللقاء ٠ ولكنها لم تكن تحب الجاه والثراء ، وانما كانت تحب الرجل نفسه ، وتجمح فى حبها الى درجة عدم الاعتراف بالنظم والتقاليد ٠ وقد ذهبت فى جموحها ـ فى هذه المرة ـ الى حد تجاوز التاج ذاته ، فسبقت الملكة الى الملك !

* * *

• **وكان** المنظر طريفا طيلة بقاء البلاط فى (آفين) ٠٠فقد ظلت الآنسة لافاليير تبكى ، والملكة عابسة ، والملك يرمق مدام مونتسبان ٠٠ ومدام مونتسبان تنصرف عن مواســاة الملكة وتطييب خاطرها ، لترمق الملك بدورها !٠٠ ولشـد ما كانت تختلف عن لافاليير المتهافتة !٠٠ كانت مهيبة الطلعـة ، ذات جلال وكبرياء ، وذات جمـــال طاغ يتوجه شـعر كأنه ذهب تتخلله نار !٠٠ وكانت عيناها زرقاوين ، تشوبهما دكنة دافئة كسماء الصيف عند الغسق !٠٠ ثم انها كانت من آل مونتمار ، وهى أسرة عريقة ، يتوه أصلها فى أبعـــد آفاق الزمن ، فهى تضاهى آل بوربون ـ أصحاب التاج ـ حســـبا وكبرياء !٠٠
ولم تكن تبــدو ـ فى حضرة الملك ـ فى اسـتخذاء لافاليير الباكية ، وانما كانت تصمد معتدة بجمـالها الذى لا يمـاثله جمال ، وببديهتها الحاضرة ، وفكاهتها اللاذعة ، وشـعورها الراسخ بأنها لا تقل عنه فى شىء !٠٠ كانت كجيش جميـل راح يغزو نفسه من كل ناحية٠٠ من ناحية العواطف المشبوبة، ومن ناحية الوحشـــة التى كان يعانيها ، ومن ناحيـة الشمم والكبرياء !٠٠ وما كان الغزو يجرى خلسة ، وانما كان هجوما جائحا ، تحت ألوية خفاقة !

وكان البلاط منتبها الى هذا الغزو ، فكانت الحاشية تتجسس كل محظور فى حياة الملك الخاصة ، لكى لا تفلت آية صغيرة من دقائق المعركة ، فى انفعال لا يقل عن انفعالها بتتبع معركة غزو اقليم الفلاندرز . فما لبثت ان لاحظت ان مدام مونتسبان أصبحت تكثر من استئذان الملكة لتسمح لها بالتغيب عن مائدة اللعب فى المساء ، وان حراس الملك قد أبعدوا عن باب مخدعه الى طرف الردهة المفضية الى المخدع ، وان صاحب الجلالة الذى كان يلزم الصمت عادة ، فى مجلس النساء ، أصبح يكثر من الكلام كأى رجل آخر .. وأخذت الحاشية تشغل بتجميع كل حركة ، وكل كلمة ، وكل غياب أو حضور ، وكل ظاهرة الى جوار الاخرى ، فى عناية ودقة ، لتعكف على تأمل الصورة التى تتألف منها ، وكأنها تدرس خطة معركة ! .. الى أن قدر للملكة ان تقدم بنفسها الايضاح القاطع أثناء العشاء — ذات ليلة — اذ قالت فى استياء ساذج : « ان الملك لم يأو الى فراشه ليلة أمس حتى الساعة الرابعة .. ولست أدرى ما الذى شغله حتى تلك الساعة ؟! » .. فقال الملك فى عجلة : « كنت أقرأ البريد وأكتب الردود ! » .. وأطرق الحضور مسمرين أبصارهم فى الاطباق ، وقد عبس فريق ، وابتسم فريق .. فقد وضح الامر لكل شخص ، ماعدا الملكة ! .. على انها ما لبثت ان تلقت رسالة بغير توقيع ، تكشف لها الامر ، فهتفت متحمسة : « لست أصدق كلمة من هذا .. لقد دفعت بالخطاب الى الملك ، فلست أقبل ان يعبث بى انسان ! » .. وضاعفت من اكرام مرافقتها .. مدام مونتسبان !

على انها لم تلبث — فى العام التالى — ان وجدت ما حول أفكارها ، اذ أفرد رسميا جناح مؤلف من عشرين غرفة لمدام مونتسبان ، فى الطابق الارضى من قصر « سانت جيرمين » . وقد آغتبط والد الوصيفة ، اذ وجد مخلصا من الفقر ، وصاح

قائلا : « الحمد لله ! .. ها هو ذا الحظ يطرق بابى أخيرا ! » .. ولكن مسيو مونتسبان رأى - لسوء الحظ - ان مثل هذا الاكرام لا يعنى سوى العار ، وأعرب عن هذا الرأى علانيه وفى مجالسه الخاصة ! **وراح يلوم زوجته فى غير لطف ، كما ذهب الى قصر « سانت جيرمين » وقرأ بصوت عال قصة داود وأورياه ، كما وردت فى التوراة ، على مسمع من الملك . وأمر خدم منزله بارتداء الحداد ، وأخذ يجوس طرقات باريس فى عربته وقد ارتدى السواد ، وجلل اركان العربة الاربعة بشارات الحداد ، مما جعل زوجته تقول فى انفعال ولهجة لاذعة : «اننى آسفة لان ببغائى وزوجى يثيران ضحك الغوغاء ! » . ومن ثم أصدر الملك أمره للزوج المغدور بأن يلزم ضيعته ، فصدع هذا بالامر دون ان يجد من يعطف عليه سواء فى باريس أو فى البلاط** . بل لقد قالت الاميرة بالاتين فى هذا الصدد : « ان السيد مونتسبان تافه ، ولو ان الملك أبدى استعدادا لمنحه مبلغا دسما ، لهدأت نفسه ! » .. أما ابنة عم الملك - دوقة مونبنسييه - فقد قالت : « انه مجنون ، ومن الخير أن يسجن ! » .. وهكذا لاقى الزوج جحودا مريرا ، وكانت المعاملة التى أصابها وصمة شوهت عدالة الملك الذى لم يلحق العار - قبل ذلك - برجل !

* * *

◆ **وأنجبت** مدام مونتسبان فى العامين التاليين ابنة - لم تعش طويلا - وابنا غدا فيما بعد دوق دى مان . فما ان ولدا، حتى نقلا من القصر فى الخفاء ، **لا لان الملك** أراد ان يبرأ منهما - اذ أن غريزة الابوة فيه كانت قوية فى الواقع ! - وانما لان القضاء أبدى ترددا فى أن يصدر قرارا قانونيا بالفصل بين مركيز ومركيزة مونتسبان ، ومن ثم كان الطفلان ينتسبان - قانونا - الى الزوج ، وقد خيف ان يستغل مونتسبان هذا الحق !

وكانت المرضعة والمربية التى اختارتها مدام مونتسبان للطفلين – فى البيت الذى اشتراه لهما الملك سرا فى باريس – هى فرانسواز دوبيينى ، أرملة الشاعر الهزلى بول سكارون !٠٠ وكانت ذات قربى بعيدة بمدام مونتسبان ، وتنحدر من أصل طيب ، وقد حظيت بتعليم سليم ، ونشأت على أخلاق لا سبيل الى النيل منها ، ولكن الفقر المدقع اضطرها الى قبول المهمة التى اختيرت لها ، وهى شاكرة !٠٠ على انها كانت من الذكاء والحصافة بحيث أبت الا أن تتلقى أمرا شخصيا ، صريحا ،من الملك نفسه ، وبذلك اطمأنت الى أنها تتلقى معاشها منه ،وليس من عشيقته !

وفى سنة ١٦٧٤ ، صدر الحكم بالفصل بين مركيزومركيزة مونتسبان ، فرفعت آخر القيود عن أكثر عشيقات أوربا الملكيات شغفا بالمظاهر !٠٠وكان من دلائل هذا الشغف، انها حرصت على ان لا يكون فى مخدعها سوى مقعد واحد ، فكان الوافدون على الغرفة ليقدموا اليها احترامهم ، يضطرون الى الوقوف فى في حضرتها ٠٠ حتى « المسيو ٠٠٠ » شقيق الملك ! وكانت لآلئها أكبر حجما من لآلىء الملكة ، واتباعها أوفر عددا ، وذيل ردائها تحمله دوقة ، وعربتها تجرها ستة جياد وتتبعها ثلة من حرس الملك !٠٠ وكان العمد والحكام يخرجون ليقدموا اليها آيات الولاء والاحترام اذا سافرت فى الريف ، كما انها أصبحت تتلقى معاشا قدره نصف مليون فرنك ، فضلا عن المنح المالية التى لا حصر لها ، والهدايا والمجوهرات !٠٠ أما طفلاها ، فقد اكتسبا صفة شرعية وصار لقبهما «ابنى فرنسا»، كما عين أبوها محافظا لباريس ، وأخوها قائدا لجيوش فرنسا، وأختها رئيسة لدير فونتفرو الملكى ٠٠ وهكذا حظيت بكل ما كان فى الوسع الحصول عليه من أموال الملك ونفوذه ،ولكن ٠٠ **أتراها حظيت بحبه ؟**

كان الملك أكثر أبناء مملكته شعورا بالوحدة والوحشة ،فى

السجن الذى كان يقسر نفسه على العيش فيه ٠٠ سجن الحكم الفردى المطلق الذى وضـــع ريشليو أسسه ، ورفع مازاران جدرانه !٠٠ وقد فقد منذ صغره الثقة فى الامراء الذين كان يجرى فى عروقهم عين الدم الذى كان يجـــرى فى عروقه ـ بسبب مؤامرة « الفروند » التى دبروها تمردا عليه ـ ومن ثم كان يحرص على أن يكون وزراؤه ومستشاروه من أبناء الشعب، اذ وجد بينهم رجالا أوفياء يستطيع ان يعهـــد اليهم بأسرار الدولة ، ولكنه لم يكن يوليهم قط صداقته !٠٠ وكان الرجلان الوحيدان اللذان جرب ان يؤثرهما بثقته همـــا كونت لوزين وكونت فارد ، ولكنهما خانا هذه الثقه ٠ كمـــا أن الملكه لم تؤت مايمكنها من ان تحمله على الاطمئنان اليها ، بالافضـــاء اليه بما كان يهمه ٠٠ بل ان لافاليير ـ التى اتخذها خليلة ـ كانت ترتجف أمامه ، وتتشبث بحبـه ، دون أن تفلح فى ان تجعل من نفسها صديقة وزميلة يسر اليها بما كان يســاور نفسه ، ويستعين بها على تبديد شعوره بالعزلة والوحشة !

على أنه كان ـ عندما اتخذ من مدام مونتسبان خليلة ـ فى عنفوان قوته ، وفى سن لم تعد فيها العواطف المشبوبه تجد فى خلوات الشباب العابرة مايهدىء من فورانهـا ٠٠ **أفتراه وجد فى المرأة الرائعة زميلة تليق بجســـده البشرى وبعقله الملكى ؟٠٠ أم انه كان يقدرها بنفس الطريقة التى كان يقدر بها قصر فرساى ، أى كمظهر من مظاهر فخامة الملك ، التى كان عواهل أوربا يغبطونه عليها ، ويحاولون أن يقلدوه فيها ، دون ما أمل لديهم فى أن يصلوا الى مستواه ؟**

لقد قالت مدام سيفينييه عن خليلة الملك الرائعة : « كانت مدام مونتسبان ذات جمال طاغ ، أخاذ ، يذهل جميع السفراء !» ٠٠ وكان الملك فخورا بهذا الجمال الفذ ، مزهوا بما أوتيت من سحر ذهنى وجسدى غريب ، كان يأسره ، وكان من الممكن أن يرقى بشعوره نحوها الى درجة « الحب » ، ولكنه لم يبلغ

به قط ذلك الحب الذى ينسيه نفسه .. ذلك الحب الذى أذنه للفتاة الايطالية « مارى مانشينى » التى حرموه الزواج منها .. وهكذا كان لويس يذهب فى علاقته بمدام مونتسبان الى الدرجة التى يظهر عندها خضوعه لفتنتها ، ولكنه لم يتماد مطلقا الى درجة الذلة ! .. ولقد قال مرة فى جمع من وزرائه : « **اننى آمركم بأن تبادروا الى انذارى اذا رأيتم يوما امرأة – مهما تكن – توشك أن تصبح صاحبة يد عليا على ، أو ان تبسط على أضال سلطان .. فلن أحتاج الى أكثر من أربع وعشرين ساعة للتخلص منها !** » .. وما كانت به حاجة الى هذا الانذار ، لانه لم يسمح قط لخليلته الفاتنه بأن تمس شئون الدوله بطرف بنانها ، ولم يسمح لنفسه قط بأن يقتطع من أجلها لحظة من الساعات الثمانى التى كان يخصصها لهذه الشئون .. لا ولم يمكنها مرة واحدة من ان تعدو على حرمه التاج ، حتى انها عندما طلبت لنفسها منصب رئيسه وصيفات الملكة قوبل هذا الطلب بالرفض الجامد البارد ، رغم ما أبدت من غضب فاق الوصف .. ذلك لان كرامة الملكة كانت شطرا من كرامة الملك فى رأى لويس !

* * *

• على ان مدام مونتسبان كانت تقف الى جواره مشرقه ، رائعة ، فى النطاق الذى رسمه لاعماله الرسمية .. ومتعه الرسمية أيضا ! .. وكانت – على النقيض من لافالبير الجبانة – تعامله معاملة الند للند ، أو معامله الزوجه لزوج سهل متسامح ! وكانت دوقة مونبنسييه تقول فى دهشه : « انها تؤنبه فلا يصدها ! » .. وحدث ان شيد لها بيتا صغيرا فى (كلانيى) للهو ، فلم تعلق عليه بأكثر من قولها : « انه لايليق الا براقصة ! » ، فما كان منه الا أن هدمه وأقام مكانه قصرا تكلف مليونين ونصف مليون من الفرنكات ! .. وما عرف أن

رجلا – أو امرأة – جرؤ قط على أن يستبيح لنفسه ان يغلظ القول للويس الرابع عشر ، عدا مدام مونتسبان !٠٠ فكانت اذا ضاقت بصحبته – وهو أمر لم يكن نادر الحدوث ، على ماذكرته الاميرة بالاتين – لا تتردد فى ان تبدى له ضجرها ، كما انها لم تكن تعبأ بأن تعنف فى غضبها فى حضرته !٠٠ على انها كانت – عندما يروق لها – تؤثره بحسن حديثها ، حتى لتحيل أكثر الموضوعات سخفا الى مادة محببه ، وحتى لتسمو بأتفه الموضوعات الى مرتبة أهمها !٠٠ **وكانت – الى جانب ذلك – تملك السلاح الوحيد الذى تبقى لطبقة النبلاء ، وهو : اللسان ذو الحدين ! فكانت لاذعة السخريه ، حتى لقد كان أفراد الحاشية يتحاشون المرور تحت نافذه تقف فيها مع الملك ، اذ كانوا يوقنون انها لن تتورع عن ان تتناول اى عيب فيهم بأقذع النكات لتضحكه !٠٠ وهكذا كان ذكاؤها ، وروحها الساخرة ، وجمالها الفذ ٠٠ طوع أمره !**

وكان أفراد الحاشية يطلقون عليها : « السيدة الجميله » ، بينما كانت الملكة تقول عنها : « تلك العاهرة » !٠٠ أما « لافاليير » فقد ظلت صامتة ، دون أن تواتيها الشجاعة على نبذ العشيق الغادر ، كما كان يتطلب احترامها لنفسها ٠ ولما كان ابنا الملك من مدام مونتسبان قد حظيا بالاعتراف الرسمى ببنوتهما للملك ، فقد نقلا الى البلاط ، فتنافست سيدات الطبقة الراقية فى محاولة رعايتهما ، ولكن الارملة «سكارون» لم تكن راغبة فى النزول عن مهمتها التى أضحت منصبا ساميا ٠ أفلم تكن قد عينت بأمر شخصى من الملك ؟٠٠ ثم ألم تكن قد ولدت فى السجن – حيث كانت أمها نزيلة اثر عجزها عن الوفاء بديونها – ثم وجدت نفسها أخيرا ذات مركز فى القصر الملكى ؟٠٠ **فكيف كان يعقل بعد هذا ان تنزل قيد شعرة عما وصلت اليه ، لاسيما وأن الملك رأى ان ينعم عليها بلقب ، حتى تستطيع ان تحتفظ بمنصبها بعد ان أصبح منصبا**

رسميا ، فخلع عليهـا لقب « مركيزة مينتنون » ، ووهبها الضياع التابعه لهذا اللقب • ومع انه كان قد كرههـا فى البداية ـ اذ انها لفرط تقواها لم تتورع عن ابداء استنكارها للطريقة التى اكتنفت مولد الطفلين ، وان اضطرها الفقر الى قبول رعايتهمـا ! ـ الا أنه بدأ يحترم حسن ادراكهـا ، واستقامتها ، وصفاتها الخلقية السامية !

كذلك بدأ رأى مدام مونتسبان فى قريبتها الفقيرة يتغير ، فان طفليها اللذين نادرا ماتجشمت عناء زيارتهما ـ حين كانا بعيدين عنها ـ نشآ علـى ايثار المرأة الوحيدة التى ربتهمـا وأذاقتهما حنان الامومة • ولم يكن ثمه بأس فى هذا ، عندما كانت الضرورة تدعو الى أن يظل نسبهما مكتوما ، أما وقـد انتقلا الى البلاط ، فان أمهما لم تعد تحتمل أن تكون لها المكانه الثانية فى قلبيهما ••فضلا عن أن اعجاب الملك باخلاق قريبتها أوغر صدرها ، فما كانت لتطيق أن يعجب بامرأة سواها !•• وأخذت تكثر من الظهور فجأة فى حجرة الطفلين ، فتقطع عليهما دروسهما ، وتفسد معدتيهما بما كانت تغدقه عليهما من حلوى ، وتضايق مربيتهما بمـا كانت تبديه من غضب مترفع اذا هى أبدت أى اعتراض على هذا الاخلال بالنظام !•• ودارت بينهما مشادات عنيفة انتهت بأن كتبت المربيـة للقس الذى كانت تعترف له ، تبثه شكواها ، وتكاشفه بأنها لم تعد تطيق «مدام مونتسبان » ، وبأن المشاجرات ازدادت بينهمـا •• حتى فى حضرة الملك !

وفى العام التالى ـ ١٦٧٥ ـ صدر اعتراف بنسبة الابنـه التى أنجبتها « لافاليير » الى الملك ، فما ان اطمأنت العشيقة المهجورة الى مستقبل طفلتها ، حتى اعتزلت الدنيـا ، ولجأت الى الدير •• وجلست مدام مونتسبان مع سيدات الحاشية يرقبن حفلة تسلم « لافاليير » وشاح الرهبنة •• ترى اى شعور خالجها وهي تسمع الأب بوسيه ـ أسقف فرساي ـ

يقول للتائبه : « التفى بالوشاح ، وعيشى فى خفاء عن نفسك وعن الدنيا •• وارتفعى بنفسك حتى تبدى ان لا طمأنينة الا فى الآب والابن والروح القدس ؟! » •• وماذا كان شعور خليلة الملك الفاتنة ، حين رأت شعر خليلته السالفة يقص ، وحين شهدت قوامها الممشوق يختفى داخل الوشاح الاسود ؟! •• لابد انها شعرت بعواطفها تهتز ، لانها كانت تؤمن بكل ما رأت وسمعت ، ولانها كانت تعرف ذنبها فى نظر الله •• فبينما زلت لافاليير على الرغم من ارادتها ، زلت هى بمحض ارادتها ، وأقبلت على الخطيئة متحديه ايمانها !

★ ★ ★

• على أن غريمتها لم تكد تتوارى ، حتى ظهر فى الميدان غريم آخر •• ذلك هو ايمان الملك • اذ أن الغرور الخبيث لم يستطع ان يتملكه ويطغى على ضميره فيسكته !•• ولم تهادنه الكنيسة ، بل انها ظلت تخزه دون وجل وتنبهه الى ذنبه • ولقد أقدم أسقف (السين) يلعن أمام المـلأ « امرأة تعيش جهارا مع رجل متزوج ! » ، فلمـا حرم عليه الملك ان يبـارح أبرشيتـه ، بادر بالذهاب الى (فونتنبلو) — حيث كان بلاط الملك اذ ذاك — وهو يهدد بأن أى تعرض لحريته فى التنقل ، لن يبوء بغير اقدامه على حرمان « الملك ومحظيته » !•• وكان الملك يعرف انه قادر على ذلك ، فتنهد فى أسى وأمر بعـدم التعرض له

وظلت الكنيسة تقض هناءة الملك • ففى أثناء الصوم الاكبر، خاطبه الواعظ الجزويتى الكبير « بوردالو » — أمام البـلاط بأسره — قائلا : « مولاى ، ان تلوث الروح لابد ان يرتبط بكل الخطايا الاخرى ، فان جميع الخطايا تخضـع له • وبايعاز تلوث الروح يريق القاتل الدم البشرى ، ويهيىء الغادر سمومه، ويعد انتهاك الحرمات عدوانه على أقدس ألوان الحياة •• وما

ينجى الملوك سوى الصدق والحقيقة • ان جلالتكم لا تملكون سوى احتقار من يخفى عنكم الصدق والحقيقة ، وبدلا من ان تجحدوهما ، فانكم لن تجدوا فى الخضوع لهما سوى المجد !»

ولقد سمح للملك بتناول القربان المقدس ، بصفته قدوة لشعبه فقط •• ولكن مدام مونتسبان قوبلت بالرفض التام عندما تقدمت خلال الصوم الاكبر - فى سنة ١٦٧٥ - الى قس ابرشية فرساى ، تطلب الغفران !•• وطلبت المرأة المتغطرسه الى الملك - فى عنفوان غضبها - ان يأمر « ذلك النكرة » باطاعتها ، ولكن الملك تردد ، ثم تحول الى الاسقف المسن الورع ، يسأله النصيحة • ولم يتردد الاب بوسيه فى ان يقول له - وهو يذكر العهد الذى قطعه على نفسه عندما دخل سلك الرهبنة : « اذا طلب الملك رأيى فانى أقدمه صادقا ، مخلصا •• ان الانفصال التام شرط لابد منه اذا شاءت ان تتناول القربان المقدس ! » • وتقبل الملك الرأى وهو يدرك ان ماينطبق على زميلته فى الخطيئة ، انما ينطبق عليه هو الآخر !•• ولم يكن الامر مجرد احترام لسلطان الكنيسة الروحى ، لانه ما لبث ان أنصت فى سعة صدر الى نصيحه شخص لم يكن له من سلطان على أحد سوى طفليه غير الشرعيين •• الى نصيحة مدام مينتينون ، التى لم تكن سوى خادم فى قصره ، اذ قالت له : « انك جد مولع بفرسانك يامولاى ، ولكن ماذا تقول جلالتك اذا عرفت أن واحدا منهم اصطفى لنفسه زوجة رجل آخر ، وراح يعيش معها علانية ؟•• اننى أوقن انك ستضطره فى مساء اليوم ذاته الى أن يبرح ثكنات الفرسان ، الى غير عودة ! » •• ولم يتمالك لويس الرابع عشر - صاحب السلطان المطلق فى بلاده ، وأقوى عاهل فى أوربا اذ ذاك - سوى ان يبتسم ، وأن يقر ما قالته مربية طفليه !

وسواء أكانت عظات الكنيسة هى التى ألهمته ، او كانت محاضرات المربية هى التى أوحت اليه ، او كان ضميره هو

الذى أقنعه ، فانه لم يلبث ان قرر ان ينفصل عن المرأة التى ظلت شريكته الوحيدة فى حياته الخاصة خلال سبع سنوات ، وان يقصيها عن البلاط • وتلقت المرأة القرار بغضب متأجج، ولكنها أدركت ان لا حيلة لهـــا فى الامر ، فانتقلت الى الدار التى كانت تملكها فى باريس ، وهى تصب جام سخطها على « بوسيه » الطبيب ، وتتهمه بأنه يسعى الى فرض سلطانه على عقل الملك ! على انها لم تلبث ان فطنت ـ حين هدأت ســـورة غضبها ـ الى أن الصبر هو أقوى ســـلاح ، فتذرعت به وهى واثقة ان الملك لايقوى على العيش وهى بعيدة عنه !

وصح ما توقعته ، فان الملك تنـــاول القربان المقـدس فى فرساى ، كما تناولته هى فى باريس ، فى شهر أبريل • وما أن أحس الملك بأنه حظى بالغفران ، وانه أصـــبح صـــاحب السيطرة على نفسه وعواطفه ، حتى أرسل يسمح لها بالعودة الى قصرها فى (كلانيى) ، على أطراف (فرســـاى) ، وقال لبوردالو : « لسوف تسر من مسلكى يا ابت ، فقد ارسلت مدام مونتسبان الى كلانيى ! » • فما كان من الراهب الجزويتى الا أن قال : « ولكن الله سيزداد رضى لو ان كلانيى كانت على بعد أربعين فرسخا من باريس ! »

ولكن ، أى ضير كان فى وجـــودها ، مادام أن الملك يعتزم الرحيل الى (الفلاندرز) ليقود جيوشه فى الحرب ؟•• بل ، ألم يكن من أبسط المجاملات ان يودع المرأة التى قاسمته حياته كل ذلك الوقت ؟•• ومن ثم فقد ذهب ليودعها ، وان حرص على أن يكون ذلك فى غرفة ذات بابين زجاجيين ، لـكى يكونا ظاهرين لأعين من كان يهمهم ان يروهما من خارج الغرفة !•• وكان الحديث الذى دار بينهما طويلا ، حزينا • وقيل اذ ذاك ان الملك ومدام مونتسبان افترقا وكل منهما يحب الآخر أكثر مما كان يحب حياته • كما قيل انه تقرر ـ في هذا اللقاء ـ

أن تعود مدام مونتسبان الى البلاط ، على ان لا تحظى بمقابلة الملك قط الا فى جناح الملكة !

* * *

• **ولم** يصدق أفراد الحاشية ان الامر سيسير على هذا النمط • وقد أثبتت الايام صدق ارتيابهم، فان مدام مونتسبان عادت الى البلاط قبل عودة الملك من (الفلاندرز) ، وكانت فى استقباله عند رجوعه • وشاء الأب « بوسيه » ان يتفادى النتيجة ، فخف الى انتظار الملك فى « لوزارك » لينبهه ، ولكن الملك صدمه بجواب مقتضب ، حاد اللهجة : « لا تقل لى شيئا أيها الاب •• لقد أصدرت أوامرى ، ولابد من ان تطاع ! » •• فقد كان لويس يعتقد أنه من القوة بحيث يستطيع ان ينعم بالناحية الفكرية للمرأة الرائعة ، دون ان يحفل بالناحية الجسدية !•• ولعل ثقته فى نفسه تزعزعت قليلا بعد مقابلته للقس ، اذ لم يلبث ان أصدر أمرا بأن ينتظره فى حجرة مدام مونتسبان عدد من السيدات الفضليات ، المسنات ، ليكن كمراقبات ، وليخفف وجودهن من « وقع المفاجأة » فى هذا اللقاء الاول !•• **على أنه ــ رغم كل ذلك ــ كان مخطئا فيما قدره لنفسه ، وفيما خال انه قادر عليه ازاء فتنة « السيدة**

الجميلة » ، اذ انه لم يكد يستقر فى حجرتها لبضـع دقائق ، وسط المراقبات ، حتى نهض وقاد السيدة الى شرفة تحف بها الستائر ، حيث راحا يتهامسان ويتناجيـــان ٠٠ وتحولا فى النهاية ، فشكرا السيدات الفضليات ، ثم انسـحبا الى غرفة داخلية !

وسرعان ما رزقت مدام مونتسبان بدوقه أورليان وكونت تولوز !

★ ★ ★

• **وأشرقت** المحظية بعد ذلك عـلى البــلاط لشمس فى منتصف سماء صحو !٠٠ قط لم يتوطد سلطانها كمـا توطد اذ ذاك ، ولم يبلغ جمالها من التألق والبهـــاء مبلغه فى تلك الآونة ٠٠ ولكن ، أتراها كانت قد بلغت القمة ، وآن لها أن تنحدر ؟!٠٠ ان الوقائع تذكر ان لويس الرابـع عشر ، الذى درج فى حياته على الاتزان والوقار ــ حتى انه جعـل لغرامه جلالا يرقى الى جلال الزواج ! ــ لم يلبث فى منتصف سـنة ١٦٧٦ ان خلع عنه اتزانه ووقاره ، وأقبل على العبث منهوما فى غير حياء : فعشق ــ فى أكتوبر ــ مدام « سوبيس » ،ولكن كلفه بها لم يلبث ان خبا كما يتلاشى البريق الخاطف ،فتحول الى مدام « لوفنيى » ، ثم الى مدموازيل « روشفور ــ ثيوبون »، ثم ــ فى مطلع سـنة ١٦٧٧ ــ الى مدام « بودر » ٠٠ **وهكذا تقلب فى أحضان أربع عشيقات فى ستة أشهر ، ليثأر لنزواته من اقتصارها على اثنتين طوال ست عشرة سنة !٠٠ واتقدت حمى الانفعال والقلق فى البلاط ، وراح أفراد الحاشية يرمقون « السيدة الجميلة » المهجورة فى اشـفاق ، وهم يتكهنـون بمصيرها ، ويتوقعون لها نهاية أليمة !**

وفى ركن من البلاط ، كانت المربية ــ « مدام مينتينون » ــ تعيش فى عزلة عن العبث والشر والشائعات والفضـــائح ٠٠

ولكن شيئا من هذا الجو الآثم ما لبث ان سرى الى عزلتها ، فأخذت تحدث نفسها : « لقد انقضت حياتى فى انفعالات حرمتنى من متع الدنيا ، كما حرمتنى من طمأنينة التقوى الكاملة .. نشد ما أصبو الى أن أهجر البلاط ! » .. وأخذت تكتب الى القس الذى اعتادت ان تعترف بين يديه ، تسأله ان يصلى من أجلها عسى ان يهديها الله وينقذها من هذا الجوالذى اشتد سلطان الفجور فيه ، حتى ان أفراد الحاشيه لم يحفلوا بمعارك الفلاندرز ـ عندما استأنفها الملك فى ذلك العام ـ وانصرفوا الى المعارك التى كانت تدور فى أبهاء قصر فرساى ، وراحوا يتساءلون عمن يكون لها الظفر بغرام الملك اذا ماعاد من الحرب .. فقد توقع الجميع ان تكون عودته بداية المعركة الاخيرة لمدام مونتسبان !.. وكأنما هفا الجو المكفهر بالقلق بأعصاب « السيدة الجميلة » فاندفعت فى المقامرة كالمخبولة ، حتى انها خسرت فى يوم عيد الميلاد سبعة ملايين من الفرنكات، ثم خسرت أربعة أخرى فى يوم تال ، مما دعا الملك الى أن يمنع بعض ألعاب الورق فى البلاط !

★ ★ ★

• **ولكن** القلق كان يعترى باريس بأسرها فى تلك الحقبة، اذ تفشت جرائم القتل بالسم .. وبدأ الفزع يغزو قلوب أهل العاصمة الفرنسية ، مما حمل مدير البوليس « لارينيى » على ان يستميت فى مقاومة الموجة الاجرامية .. الى أن نقل اليه بعض الناس ـ فى ديسمبر سنه ١٦٧٦ ـ ان عرافة عجوز ـ تدعى «مارى بوس» ـ قد ذكرت فى احدى الحفلات ان لم يبق أمامها سوى ثلاثة اغتيالات بالسم ، لكى تستكمل الثروة التى تمكنها من اعتزال العرافة والسحر . واستطاع مدير البوليس أن يدس على المرأة من حصلت منها على كميه من السم كانت كافية لتبرير القبض عليها ، واذا به يذهل لما أفضت به من

أقوال ، فبادر الى القاء شباكه الى أعمق أغوار الحياة الباريسية
وفى تلك الاثناء ، بزغ فى سماء غرام الملك كوكب جديد ، شاحب ، لم تكد العيون تفطن اليه ٠٠ ولكن عين مدام مينتينون - المتشبثة بمثلها العليا وتقواها - لم تلبث ان تبينته ، فكتبت الى راهبها المعهود تقول : « صل من اجل الملك ، فهو يقف على شفا هاوية » ! ٠٠ **وكانت تلك الهاوية شى : مدموازيل « فونتانج » ٠٠ فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها ، شقراء ، فى جمال الملائكة ، أوتيت من الذكاء واللباقة ما كان يجعل لحديثها فى النفوس وقع تغريد البلابل » ! ٠٠ وقيل ان أهلها تعاونوا - رغم فقرهم - حتى جمعوا من الثروة ما مكنهم من أن يدفعوا بها الى البلاط ، ليستغلوا حمى الهوى التى انتابت الملك ٠٠ ولم يخب مشروعهم ، اذ سرعان ما اجتذبت الحسناء انتباه الملك !٠٠** وراقبته « السيدة الجميلة » فى استهجان وهو يطارد الصيد الجديد ، مطمئنة الى أنه لا يحتمل اسار فتنة الصغيرات غير المجربات ! ٠٠ فما كانت ترى فى الفاتنة الجديدة سوى لعبة يتلهى بها الملك ٠٠ وكانت تعرف ان الملك لا يعلق باللعب طويلا ٠٠ كما انه كان لا يستغنى عن أحاديث المجربات وذكائهن ، ومن ثم كان لا يفتأ يزورها من حين الى حين ، وان قلت هذه الزيارات

غير ان هذا التظاهر بالهدوء ، وتلك المساحيق التى كانت تكسو وجه مدام مونتسبان على الدوام ، لم تستطع ان تخفى عن أعين الحاشية آثار الدموع التى كانت تذرف فى الخفاء ، والسهد الذى كان يرافق « السيدة الجميلة » فى لياليها !٠٠ بينما كانت مدموازيل « فونتانج » ماضية فى توفيقها ، تنعم فى كل يوم بحظوة جديدة لدى الملك ، حتى بلغ من نفوذها ان أصبحت تمر بالملكة دون ان تحييها ، ودون أن تخفى تجاهلها ٠٠ ودون أن يقوى الملك على تنبيهها ، كما نبه « لافاليير » يوما ، حين دفعها الحب الى أن تسبق الملكة الى رؤيته !

ولكن مدام مونتسبان لم تعد تقوى على كتمان غيظها وأساها، حين بدأ الملك يولى مدام مينتينون - مربية أولاده - حظوة ظاهرة ، وأخذ يقضى فى صحبتها وقتا من كل يوم . وكتبت مدام « سيفينييه » فى هذا الصدد : « .. وان أحاديثهما لتطول الى درجة تثير التكهنات » !

كل ذلك و « لارينيى » - مدير البوليس - سادر فى تعقب موجة السم والعرافه ، حتى ألقى القبض - فى ١٢ مارس سنة ١٦٧٩ - على عرافة تدعى « لافوازان » ، فاذا المرأة تصرخ مأخوذة حين فاجأها الشرطة : « لقد أنقذ الله الملك ! » ..ولم تنقض ثلاثه أيام ، حتى ذهبت مدام مونتسبان الى باريس فجأة ، دون ماسبب ظاهر ، فلما عادت الى قصر « سانت جيرمين » بعد أسبوع ، منحها الملك المنصب الذى كانت تصبو اليه فيما مضى .. منصب المشرفة على وصيفات الملكة وخدمها وموظفيها ! .. ولكن المنصب كان قد تطور خلال السنوات العشر التى انقضت مذ طلبته أول مرة ، فأصبح الظفر به دليل الهزيمه المريرة ! فان الملك أباه عليها عندما كان يتورع عن ان يفرض عشيقته على الملكة ، أما الآن .. فقد أصبح فوزها به دليلا على انها لم تعد عشيقته !

ولكن مدام مونتسبان لم تشأ ان تسلم بسهولة ، فقد راحت تتحدى الملك ، وتسخر منه على مسمع من الحاشيه كلها ، وتعيره بما انحدر اليه ذوقه ، اذ اتخذ عشيقة جادت على شباب اقليمها بأبهى آيات فتنتها قبل ان تصل الى أحضانه !! .. وكان الملك اذ ذاك قد بلغ الاربعين من عمره ، وبدأ الارهاق يفرض آثاره على طباعه ، وشبع من العواصف والمنازعات حتى لم تعد لديه طاقة على احتمال المزيد ، فبدأ زمام أعصابه يفلت منه . وما لبث فى النهاية ان أسلم نفسه للغضب ، وصاح فى مدام مونتسبان يعلنها بأنه قد سئم اللوم والتأنيب ، ولم يعد يطيقهما . **وكان من جراء ذلك انه ، حين**

مل غرامه الجديد ، لم يلجأ الى غرامه القديم ينشد السلوى ، اذ خشى اللسان اللاذع المرير .. ولم يجد من يأنس اليه سوى مربية أولاده المتزنة ، المتواضعة ، العاقلة .. دائما !.. ووجد لدى هذه المرأة جوا لم يألفه من قبل .. جو الصداقة والحديث الذى تأنس اليه النفس !

* * *

• وكانت المخلوقات الغامضة التى وقعت فى شباك «لارينيى» ـ فى تلك الاثناء ـ قد بدأت تفضفض مافى صدورها، وتكشف عن أسرار تجارتها.. من سموم ، الى تمائم وتعويذات للغرام ، الى اجهاض ... الخ . بل انها ذهبت الى أبعد من ذلك ، فأخذت تفضى لهيئة التحقيق والمحاكمة ـ التى تألفت بمرسوم ملكى ـ بأسماء عملائها .. وكانت بينها أسماء رفيعه اهتزت قاعة التحقيق لسماعها !.. وقضى فى فبراير سنه ١٦٨٠ باعدام العرافة « لافوازان » بعد أن اعترفت بجرائم تكفى لادانه عشرين امرأة !.. ولم يكد حكم الاعدام ينفذ فى « لافوازان » ، حتى تقدمت ابنتها « مرجريت » تبوح بآثام كانت تسمع عنها فى حياة أمها ، وقد أصبحت فى حل من ان تفضى بها بعد موت الأم

وأخذ « لارينيى » يسجل أقوال مرجريت ، وهو عابس ، يرجع من آن الى آخر الى أقوال العرافة « بوس » للمقارنة.. فقد قالت مرجريت : « **كانت مدام دى مونتسبان تأتى لأمى فى كل مرة يقع فيها شيء جديد يثير خوفها من ان تفقد حظوتها لدى الملك .. وكانت أمى تبادر الى دعوة الرهبان ، وتطلب اليهم أن يقيموا الصلوات .. بل انها كانت تعطى السيدة مساحيق تدسها فى شراب الملك** »

وأجفل « لارينيى » ، اذ وجد فى أقوال « بوس » مايمكن ان يتمشى مع هذا القول . وسأل الشاهدة عن تلك المساحيق ،

فقالت : « كانت مساحيق سوداء ، وبيضاء ، ورماديه ، اعتادت أمى ان تحتفظ بها فى درج صوان ، وان ترسل منهـا الى مدام مونتسبان ، على انها مساحيق توجه حب الملك اليها » :

.. أما الرهبان الذين أشارت اليهم مرجريت ، فكان فى مقدمتهم الأب ماريبيت ، وهو زئر نساء مليح .. ثم يتبعه ذلك الرجل الرهيب ، الذى كان يعالج العميلات بطقوس لا سبيل الى تسميتها ، بل هى أفظع من الفظائع !.. ذلك المسمى « الأب جيبور » !

وراحت مرجريت تصف « القداسات ! » التى كان يقيمها:

« **كانت السيدة تستلقى عارية على حشيه ، وقد رفعت ساقيها من ناحية ، ورفعت رأسها من ناحية أخرى وأسندته الى وسادة ترتكز على مقعد مقلوب .. وعلى جسدها منشفة تحمل صليبا فوق موقع المعـدة .. وتوضع كأس العشـاء الربانى فوق البطن . وخلال الصـلاة التى كانت تؤدى لمدام مونتسبان ، كانوا يأتون بطفل وليد يوضع فى حوض ، ثم ينحر «جيبور» الطفل ، ويصب دمه فى الكأس المقدسة ، ويباركه بأن يغمس فيه القربان المقدس . وفى اليوم التالى ، كانت أمى تحمـل الدم الذى ذاب فيه الخبز الى حيث يقطر ، ثم ترسله الى مدام مونتسبان فى زجاجة صغيرة رفيعة !** » .. ولعل لارينيى ظن ان هذه ذروة الفظاعة ، ولكن الفتاة استطردت قائلة : « ولقد أخبرتنى أمى اذ ذاك – فى سنة ١٦٧٩ – ان مدام مونتسبان كانت تريد ان تذهب الى أقصى الحدود ، ولكن أمى أحجمت مشمئزة ، وأفهمتنى ان العمل الذى كانت تنشده السيدة ، ينطوى على ايذاء للملك ! » .. وذكرت الفتاة انهـا سمعت حديثا بين « لافوازان » – أمها – وزوجها ، ذات يوم ، أدركت منه ان مدام مونتسبان كانت على شقاق مع الملك اذ ذاك ، وانهـا وعدت العرافة بمليون ونصف مليون من الفرنكات لاغرائها على اتمام العمل !

ورجع « لارينيى » الى أقوال « بوس » ، فوجد ان العرافه أشارت ضمنا الى هذا الذى قالته « مرجريت » صراحه

وعادت الفتاة بعد ذلك فذكرت ان أمها سعت فى ٥ مارس سنة ١٦٧٩ الى أن تقدم ملتمسا ـ علـى ورق مشبع بالسم ـ الى الملك شخصيا ، فلما أخفقت ، أزمعت ان تكرر المحاوله فى ١٣ مارس ، ولكن البوليس اعتقلها فى ١٢ مارس ، فصرخت: « لقد آنقذ الله الملك » •• ولم يعد لدى مدير البوليس شك فى خطورة القضية ، فعاد يحقق من جديد مع المتهمين بالسحر والعرافة والدجل والشعوذة و دس السـم ، الذين كانوا فى السجن رهن التحقيق • وما ان واجههم بما قيل عن العمـل « ضد الملك » حتى بدآت آسرارهم تنساب •• ولم يكونوا فى خوف من الموت ، اذ كانوا يتوقعونه مع كل قطعه من النقـود تقاضوها عن أعمالهم الرهيبة ، ولكن الاعدام ، جزاء محـاولة قتل الملك ، كان ينطوى على ألوان من العذاب كفيلة بأن تهز آقساهم قلبا ، ومن ثم راح كل منهم يشى بالآخر محاولا ان ينجو بنفسه !

وكان « جيبور » ـ الشيخ البشع ـ فى مقدمتهم ، فافضى بأسرار أبشع منه ، وذكر انه عقد ذلك النوع من «القداسات» ـ الذى وصفته مرجريت ـ ثلاث مرات للسيدة فى سنة ١٦٧٣، ثم عاد وعقده لها فى سنة ١٦٧٦ ، وجعلها تردد التعـويذة : « يا عشتروت ، يا أسموديوس ، يا أميرا العشق ، أناشدكمـا ان تقبلا التضحية التى أقدمها •• ان تتقبلا هذا الطفل قربانا •• وأطلب منكما ان تضمنا لى •• حب الملك ! » •• ومضى فى البشاعة ـ فذكر انه استخدم فى القرابين طفلين انجبهمـا سفاحا من احدى عشيقاته ، وطفلا ابتاعه بالمال !•• ولكنه لم يقل مايؤيد قصة «الملتمس المكتوب على ورق مسمم» •• على ان البوليس كان قد وجد مع « لافوازان » ـ عند اعتقالها ـ ورقة

تحمل طالعها ، وقد جاء فى التكهنات تحذير لها من الذهاب الى قصر « سانت جيرمين » !

وقال « ليساج » ـ مساعد لافوازان ـ ان «مدام مونتسبان» كانت تستعين بالساحرة فى صيف سنه ١٦٧٥ ، وهى تجاهد فى سبيل الاحتفاظ بمكانتها ، وان لافوازان كانت تعطيها مساحيق لتدسها فى شراب الملك ، وكانت تقول لها انجرعات معينة منها تفعل مفعول السموم • وقال : « وما ان عرفت ان الملك كان يصاب بالدوار ، حتى تولانى الذعر ! » • فلما سئل عن الملتمس المسمم ، أحال المحققين الى عرافة تدعى « فيلاستر » كانت قد اعتقلت وهى تحاول دخول الجناح الخاص بمدموازيل فونتانج فى قصر الملك • وكانت أفظع العرافات وأبشعهن • وقد قالت ان مدام مونتسبان وفدت على باريس فى صبيحة اليوم التالى للقبض على « لافوازان » وزارت « فيلاستر » بالذات وطلبت منها « سما لا يترك أثرا » • فذهبت فيلاستر الى رجل يدعى « جاليه » ، عرف بأنه « فنان مبدع فى ابتكار السموم ! » • وقد ظهر فيما بعد انه كان محتالا حاذقا ، اذ أعطاها مسحوق برادة الحديد ، على انه سم للقضاء على مدموازيل « فونتانج » !

وهكذا مضى لارينيى يشيد صرح القضية لبنه بعد لبنه ، ويوما بعد يوم ، حتى استكمله تماما : **كانت مدام مونتسبان تستعين بالسحر على كسب حب الملك ، وبمساحيق مؤذية لاستبقاء هذا الحب • فلما أخفقت ، آثرت ان تقتل المزاحمة التى خلفتها ، على ان تقبل الحرمان من حظوة مولاها • وكانت خطتها ان يموت الملك أولا ، ثم تتبعه ـ فى موت بطىء ـ عشيقته ، لتتشفى فيها مدام مونتسبان ، ولكى لا تحوم فى الجو أية شبهات ، اذ يبدو ان « فونتانج » ماتت حزنا اذ ذاك !**

★ ★ ★

• وقدم مدير البوليس تقريره الى الوزير « لوفوا » ، فرد هذا فى ١٧ أكتوبر ذاكرا ان الوثائق قرئت على الملك فبهت لها . والواقع ان الملك صعق ، ودار رأسه جزعا واستنكارا. وكان توافق أقوال المذنبين – رغم انعزالهم وتباعد سجونهم – كما كان توافق التواريخ التى وردت مع تطورات علاقه الملك بمدام مونتسبان ، ومع تداعى صحته فى سنة ١٦٧٥ ، أدلة كافية لاقناع الملك الذى أبى – فى البداية – ان يصدق شيئا !

.. وعندما سمع الملك ان لافوازان هتفت – حين دهمها البوليس : « لقد أنقذ الله الملك ! » ، شعر بأن الله لم ينقذ حياته فحسب ، وانما أنقذ روحه ونفسه أيضا ! فقد أدرك اذ ذاك أن الجمال الذى كان يفتبط بقربه ، وان الجسد الذى كان يفتتن به ، كانا موزعين بينه وبين مخلوقات لا سبيل الى وصف شرها ، وقد لطخا بدم قرابين رهيبة !.. ولعله ذكر اذ ذاك كلمات الراهب بوردالو : « ان النفس غير الطاهرة يامولاى ، ترتبط بالضرورة بكافة الرذائل والشرور .. ان الحقيقة هى التى تنجى الملوك يامولاى ... » . ولقد ادرك الملك الآن ماكان يقصده الراهب .. كان يقصد حقيقة النفس غير الطاهرة ، التى أشركها حياته أحد عشر عاما . لقد حاولت أن تدس السم للويس العاشق غير المخلص .. وقبل ذلك حاولت ان تجعل من لويس الملك ، رجلا فاجرا ، شهوانيا ، داعر !

وكان وجه الملك هادئا ، ساجيا كعادته ، عندما غادر قاعة مكتبه ، فاذا نظرات العينين وابتسامة الشفتين وانبساط الاسارير تسدل ستارا على الفظائع الجهنمية ، والفضائح المخزية التى اطلع عليها . ذلك ان التأثر بمثل هذه الامور خليق بالرجل العادى فقط ، ولكنه غير جدير بملك !.. لقد

قال لوزرائه يوما : « مهما تكن المرأة ، فلن أحتاج الى أكثر من اربع وعشرين ساعة كى أتخلص منها ! » .. وهو لم يكن واثقا من قدرته هذه يوما ، قدر ثقته اليوم ، فلم يتردد فى ان يأذن لمدام مونتسبان ببقاء كانت قد التمسته من قبل . ولم يسمح لاية اختلاجة فى أساريره بأن تنم عما كان يعتمل فى نفسه ، ولكنها ـ لطول المعاشرة والألفة ـ أدركت انه على شيء من العلم . لقد عرف الامر .. ولكن ، الى أى مدى ؟.. كان لابد لها ان تسعى الى اكتشاف ذلك . ومن ثم تطلعت اليه بوجه ذليل وعينين دامعتين ، وهمست فى أسى متهدج : « **مهما يكن مافعلت ، فانما فعلته من أجل حبك .. اننى أحبك حبا يفوق قسوتك على ! ألم أضح ببيتى ، وزوجى ، وابنى ، لكى أكون بقربك ؟.. فاذا بك تجازينى جفاء وعدم وفاء ...** » . ولكنه قاطعها فى هدوء بارد : « **ولقد ضحيت أنا ياسيدتى بما هو أعظم جدا من تضحياتك .. ضحيت بسمعتى التى دنست بالحب الذى لم أكن أملك قط أن أمنحك اياه !** »

وعادت تتطلع الى وجهه .. وللمرة الاولى ، لم تر آثرا للحب أو للشهوة .. بل ولا للصداقة . لم يكن يبدو على أساريره سوى « سلطان رهيب » .. كان أفراد حاشيته يشفقون منه ، فشعرت بالخوف يخز كل جارحة فيها . وغشيها شعور بالاستنكار والالم حين ذكرت نيران السحرة ، وتولاها الخزى والعذاب اذ تذكرت التآمر على حياة الملك . ولكن الشجاعة كانت تسرى فى كيانها سريان الدم العريق الذى انحدر اليها من أجدادها ، فاذا بالدموع تغيض من عينيها ، وقد ذكت فيهما وقدة الغضب .. وقالت وقد جمدت أساريرها فى تحد : حسنا ، اذن فشهر بى .. عاقبنى ، ولكن لا تنس انك ستفضح وتعاقب ـ على مشهد من أوربا بأسرها ـ أم أولادك .. الاولاد الذين يجرى فى عروقهم الدم الملكى الفرنسى ! » .. ثم راحت تطعنه بالسلاح المسمم الوحيد الذى تبقى لها : بلسانها !..

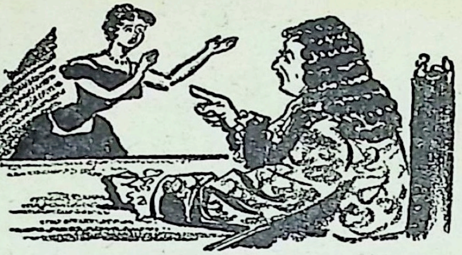

فقالت : « ان كل ما اضطررت الى احتماله منى يهون يامولاى ازاء نظافة أنفاسى ! »

ولقد أنقذها هذا اللقاء ، ولكنها نجاة كان الموت أرحم منها، فما كان الملك لينسى لها اساءتها الاخيرة ٠٠ اذ أن « مساحيق الحب » كانت قد أتلفت أسنانه ، وأفسدت لثته ، فأصبح لانفاسه عبير ممض !٠٠ **ولكنه أشفق على الاولاد ـ الذين كان دمه يجرى فى عروقهم ـ من ان يلطخوا بعار أمهم ، وأشفق على الملك ـ الذى كان فى أوج ازدهاره ـ من ان يغدو اضحوكه الدول الحاسدة فى أوربا ٠٠ اذا هو عاقب تلك المرأة !٠٠ ومن ثم استبقاها فى البلاط ، وألغى محاكمة السحرة والمشعوذين ، ومزق تقرير لارينيى اربا وألقى به فى النار ، وقضى على كل قرينة تلقى ظلالا من الشبهات على رفيقة الملك٠٠ ولكنه نسى ان مدير البوليس كان يحتفظ بمذكرات ظلت محفوظة زهاء مائتى عام ، ثم ظهرت لتكشف آثام « السيدة الجميلة » !**

على ان السر ظل ـ فى تلك الحقبة ـ معروفا لدى خمسة : هو ، وهى ، ومدير البوليس ، واثنان من الوزراء كانا موضع ثقة الملك ٠ ومن ثم ظل السر مكتوما ، فلم تلح بادرة تنم عنه فى البلاط سوى مرة واحدة ٠ ففى سنة ١٦٨١ ، ماتت مدموازيل

فونتانج - الملاك المسكين المدلل ! - بعد ان ظلت بضعة أشهر مريضة من جراء الآلام التى عانتها أثناء الوضع . وفيما كانت تجود بأنفاسها الاخيرة ، صرخت مذعورة تؤكد انهـا تموت مسـمومة . وأبى الملك ان يسمح بتشريح جثتهـا . أفترى « السيدة الجميلة » شاءت أن تستمتع بفوز آثم أخير ؟ .. وهل وقر هذا فى نفس الملك ؟ .. لا أحد يدرى ! .. ولكن المسرحيه المألوفة التى كانت تمثل على مسرح حياة البلاط ظلت مستمرة ، والممثلون « الملكيون » يرددون أقوالهم المعهودة ، ويخرجـون ويدخلون فى مواعيدهم العادية !

★ ★ ★

• **ولكن** الحركة عـلى المسرح لم تلبث ان أخذت تتغير تدريجا ، وفى بطء شـديد ، فأخذ تردد الملك على محظيتـه الرسمية - للسؤال عن صحتها - يقل رويدا ، بينما أخـذ ارتياده لجو الصداقة الذى كان يلقاه فى صحبه مدام مينتينون يزداد .. وبرزت الملكة من بين كواليس الحياة الملكية ، تفرك يديها الصغيرتين ، وتجول بعينيها فى انشراح ! .. وما لبثت مدام مونتسـبان ان نقلت من جناحهـا الفخم - فى الطابق الارضى من قصر سانت جيرمين - الى جناح صغير فى الطابق العلوى ، بحجة احداث تعديلات فى المبنى . وتهامس أفراد الحاشية فيما بينهم : « لم يعـد الملك يستطيب رؤية مدام مونتسبان ! » .. وكتبت مدام سيفينييه تقول : « ان مدام مينتينون فى أوج الحظوة ! » .. ولكن الملكة كانت صاحبـه الكلمة السابقة على اسدال ستار هذا الفصـل ، فقد قالت بوضوح ، وبصوت سمعته الدنيا بأسرها : « **لقد رفع الله قدر مدام مينتينون ، لكى توفق الى اعادتى الى قلب الملك** » !

ولكن انتصارها كان قصير العمر ، وان كان كاملا ، حاسما .. اذ أنها لم تلبث ان ماتت بعد عامين ، وهى سعيدة هانئة

حتى اللحظة الاخيرة ٠٠ وبكاها الملك ٠٠ ولعلها كانت دموع الندم لا الحزن ، ولكنها ـ على آية حال ـ بدت للعالمين دموع زوج حزين !٠٠ وعندما همت مدام مينتينون بمغادرة مخدع المتوفاة مع الآخرين ، كي يخلو الملك الى الراحله ، امسك دوق لاروشفوكو بذراعها وأعادها الى المخدع قائلا : « ليست هذه باللحظة التى تتركينه فيها ياسيدتى ٠٠ انه فى حاله الراهنه محتاج اليك ! »

« **حاله الراهنة » ؟!٠٠ لقد كان اذ ذاك أرمل ، وفى أواسط العقد الرابع من عمره ٠٠ولقد جاء موت الملكة متأخرا بالنسبة لمدام مونتسبان ، ولكن ٠٠ أتراه جاء قبل أوانه بالنسبة لمدام مينتينون** ؟ ٠٠ وراحت السيدة الورعة تصلى من أجل الملك ، فقد كان أصغر من ان يقبل العزوبه والترمل ، ويودع نزواته !٠٠ ولقد كانت مدام مونتسبان ـ فيما مضى ـ مطمئنة الى أن السيدة التقية لايمكن ان تخطو بين الملك وزوجته ، ولكن ٠٠ أتراها الآن تخطو ؟٠٠ وعند ذلك ، قالت مدام مونتسبان بصوت عال ، وفى ترفع وقح أرادت به ان تسىء الى السيدة : « يجب ان نزوج الملك من جديد ، والا ٠٠ فمن يدرى مايمكن ان يفعله ؟ »

أجل ، من كان يدرى فعلا ؟٠٠ ولكن الذى فعله الملك ،علم به أربعة أشخاص : أسقف ، ونبيل ، ووزير ، وخادم موثوق به ٠٠ فى يناير سنة ١٦٨٤ ٠ **فعند منتصف احدى الليالى ، وفى كنيسة قصر فرساى ، عقد لويس الرابع عشر ـ ملك فرنسا ـ قرانه على المركيزة مينتينون ، أرملة الشاعر الهزلى بول سكارون ومربية أطفاله ٠٠ وكان هذا سرا جديدا لم يعرفه البلاط ، وان أحست به الحاشية !٠٠** فقد اتخذها الملك زوجة لا ملكة ، فلم ينعم عليها بلقب جديد ، وان راح يخاطبها فى سخرية رفيقة تصدر عن ودّ واعزاز : « ياصاحبة المناعة ! » ٠٠ ولم تحظ بامتيازات جديدة اللهم الا الاحترام

والتقدير اللذين راح يبديهما نحوها أمام الجميـــع . ومرة أخرى ، حذت الحاشية حذوه !

وكتبت هى الى راهبها تقول : « لا تنسنى فى حضرة الله ، فاننى فى حاجة الى القوة كى أحسن استغلال سعادتى ! » .. وكانت سعادة ضافية – فى الواقع – لانها استطاعت ان تنقذ نفس الملك من الضلال ، دون ان تتردى هى ، أو تتزحزح عن مبادئها ! .. وكان جزاء الفضيله أعظم بكثير من جزاء المتـــع الدنيوية . فلقد أصبح الوزراء يتلقون جوابا لايتغير ، كلمـــا سألوا الملك : « الى أين نحمل الاوراق التى سنعرضها عليك فى المساء يامولاى ؟ » .. اذ كان يقول دائما : « الى جنـــاح مدام مينتينون ! » .. وصارت مدام مينتينون هى التى تخرج فى عربة الملك ، اذا ما كان الملك خارج فرنسا ، بينما كانت « السيدة الجميلة » تعض أناملها حسرة ، فى قصر فرساى !

ومهما يكن من أمر الجزاء الذى ينتظرها فى الحياة الاخرى، فانها احتملت صامدة عقابها فى الدنيا !.. ولقـد كفرت فى حياتها عن ذنوبها .. وكان حسبها تكفيرا ان ينظر اليهـــا الملك نظرات خاوية ، فارغة ، وكأنها غير موجـــودة !.. كان حسبها تكفيرا ان ينبذها الرجل الذى ظنت يوما انها استولت عليه تماما !.. وهكذا أصبحت تعرض جمالهـــا فى بلاط بات ملكه قديســـا ، واضطرت ســـيداته الى أن يغطين نحورهن وأذرعهن ، حتى لا تظهر الفتنة الا حيث ينبغى ان تظهر !.. بلاط أصبحت فيه « السيدة الجميلة » – التى كانت صاحبه الحول والطول – أقل شأنا من مربية أولادها !

★ ★ ★

● **وظلت** تحتمل صامدة ، فلم يبدأ جلدها فى التداعى الا فى سنة ١٦٩١ ، عندما أقصى الملك عنها ابنتها الصغرى منه، اذ كانت قد بلغت مبلغ الزواج ، فعهد بها الى مربية مؤتمنة..

وبذلك انقطع آخر خيط كان يربطها بالملك ، وتبدد آخر ظل لمكانتها فى البلاط . فلم يحن شهر مارس حتى طلبت الى الملك ان يأذن لها بالانسحاب من البلاط لتعتكف فترة من الوقت فى دير « سان جوزيف » . ولكنها مع ذلك لم تحتمل ان تكون القطيعة نهائية ، اذ أخذت تتردد على البلاط ، وتشكو من انهم « سرعان ما نقلوا متاعها من جناحها » فى تعجل فوق ما ينبغى !

على أنها برغم هذا ظلت تتردد على البلاط فى بعض الاحيان ، وكأنها من تلك الارواح التعسة التى تعود الى الارض لتحوم حول منازلها السابقة ، مكفرة عن خطاياها !.. وكانت تجرر سأمها وقلقها وعدم طمأنينة نفسها ، وهى لا تجد راحه ولا سكينة أينما ذهبت !.. وكانت لا تزال مشرقة البهاء ، لما ان الملك لم يقطع عنها معاشها ، فكانت حياتها تبدو - فى نظر الكثيرين - جديرة بالحسد . ولكنها كانت قد بلغت العقد الخامس ، فلم يعد المال ولا الجمال يكفيان قربانا تنشد به من الله المغفرة !.. وكانت توقن من هذا ، وتدرك ان لابد لها يوما ان تدفع ثمن عقوقها لله ، وكفرها بنعمه !.. ولم يكن الايمان قد غادر قلبها تماما ، فأصبح فى تلك السن يملأ قلبها بالذعر .. كانت ترهب الموت أكثر مما كانت ترهب نيران السحرة فى الماضى !.. وكانت تشعر بالجزع أحيانا ، وتخال أنها تحتضر ، دون ان يكون بها مرض ما !.. وكان هذا القلق الخائف يدفعها دائما الى الترحال ، فكانت - فى رحلاتها - تصطحب سبعة او ثمانية أشخاص كى يؤنسوا وحشتها !.. كانت تخاف الموت ، وتخاف ان تبقى وحيدة مع هذا الخوف !

ولاذت من خوفها هذا - فى النهاية - بدير «سان جوزيف» ، فلم تعد تبرحه . ومع ذلك فان الخوف لم يتركها سواء فى الليل أو فى النهار . ونزلت عن أموالها للفقراء ، وراحت تغزل لهم الثياب وتخيطها بيديها ، وأخذت ترتدى قميصا خشنا

شائكا تحت ثوبها ، وأنكرت على نفسها ما اعتادت ان تحب من أطايب الطعام ، وقسمت وقتها بين الصلاة والصوم ٠٠ ولكن الخوف من الوحدة والوحشة والظلام والموت ، ظل يلاحقها ، حتى انها لم تكن تجرؤ ان تسدل الستائر علـى سريرها اذا ما هجعت فى الليل ، ولم تكن تجسر عـلى اطفاء الشمعه ، او صرف مرافقتها من غرفتها !

وبلغت السادسة والستين فى سنة ١٧٠٧ ، ولكن الجمال المشرق البـاهر ظل يحف بها وكأنه لعنة تنذرها بشباب أبدى !٠٠ وفى مساء اليوم الثامن والعشرين من ذلك الشهر، أوت الى مضجعها وهى فى أتم صحة ، ولكنهـا استيقظت فى جوف الليل وهى تشعر بأن الموت كان معهـا فى الغرفة التى كانت مضاءة بشمعة ٠٠

على أن الذعر زايلها فجأة ٠٠ وغشيتها طمأنينة سابغة !

وخف الى جوارها راهب ليتلقى اعترافها الاخير ، ثم تلقت القربان والغفران ٠ واذ ذاك قالت : « اننى أسـلم نفسى الى رحمة الله مطمئنة ! »

ولاول مرة منذ سنوات عديدة ، رحبت بالنوم الابدى وهى مشوقة ، غير خائفة !

طيش الشباب
نزوات الشباب
حماقات الشباب
مآسى الشباب
يصورها لك، بأروع أسلوب، الكاتب العالمى المعاصر « ؟؟ »
فى قصته الخالدة

الابن الضال

وتنقلها اليك بنصها الكامل ـ فى منتصف نوفمبر القادم ـ سلسلتك الشهرية المحبوبة :

مطبوعات كتابى

تحفة ستقرأها مرارا ، وتهديها لاولادك

(ولدت فى سنة ١٦٥٠ وماتت فى سنة ١٦٧٨)

انها جميلة ، وهى تعرف جمالها .. ذكية ، وتعرف ذكاءها . وقد اوتيت مائة صفة اخرى تمكنها من الاستيلاء على القلوب !

ريتشارد فليكتو

شيطانة صغيرة ٠٠ غير مؤذية !

تركض القلوب كلها فى الصدور كلما جاءت هى ٠٠ وتغلق
ليل نهار فى شدة طبول اللورد كراڤن !

« لورد بوكهيرست »

• **بدأ** ذلك اليوم ـ التاسع والعشرون من مايو سنة ١٦٦٠ ـ كأنه يوم بعث جديد ٠ فقد استيقظت فتاة فى العاشرة من نومها على رصفة الفحم فى الميناء ـ اذ كانت من بنات الشوارع المشردات ـ على وقع أقدام الناس وهم يهرولون فى مرح ، وقد انطلقت ضحكاتهم عالية ، كما لو كانوا فى يوم عيد ٠٠ ولكنها كانت واثقة من أن اليوم لم يكن عيدا !٠٠ ولما لم يكن غسل الوجه وتنسيق الشعر من الاجراءات اليومية المتبعة على الرصفة ، فان الفتاة سوت من ثوبها ، وهزت خصلات شعرها ، ثم انطلقت لتوها الى حارة (درورى لين) ، ومنها الى ميدان (ستراند) ، فاذآ به حاشد بالناس ٠ على أنه لم يكن من العسير على فتاة صغيرة ، نحيلة الجسم ، فى نشاط

القطة الفتية ، ان تشق لنفسها طريقا فى الزحام حتى تصل الى الصف الاول . وهناك ، لم يكن ثمة داع لان تكبح قلقها ونفاد صبرها طويلا ، لان طلائع الاحداث صافحت بصرها .. فاذا سكان الدور المشرفة على الميدان منهمكون فى تعليق الزينات فى نوافذهم وشرفاتهم ، واذا بعض الناس قد جلب قنينات كبيرة مليئة بالنبيذ ، بينما انصرف غـيرهم الى فرش أرض الشوارع المتفرعة من الميـدان بالرمال . وكان أغرب مافى المنظر ، وجود عمال فى ثياب النزهة والعطلات ، فى فترة ما كان المشرفون على المصانع يقرون انصرافهم عن العمل !

واخذ ضغط الناس يشتد ساعة بعد أخرى ، وهم يقبلون من أقصى أطراف المدينة ، بل ومن الضواحى الريفية ، وقد علق الغبـار بثيابهم وأحـذيتهم ، ولوحت شمس الضحى وجوههم .. وما لبث ان انبعث من ناحية الشرق رنين أجراس ناعمة أخـذ يقترب رويدا ، وهو يشتد ، ثم اختلط بجلبـة الجموع المتحمسة وتهليلهم !.. ولم تستطع الصغيرة ان تقرأ فى الوجوه المحيطة بها ما يخفف من عجبها وتساؤلها ، فمـا كانت تدرى شيئا عما جاءت تشهده !.. على أن روعة المشهد لم تلبث ان طغت على كل ما كان يطوف ببالها من تخمينات : كان هناك عدد من الرجال والنساء علقوا أجراسا فضـيه فى أيديهم وأرجلهم وأخذوا يرقصون على أنغـام الدفوف والمزامير دون ان يحتج أحد على عملهم هذا ، بل كان يتبعهم عمـدة المدينة ، وكبير أعيانهـا ، وشيوخ الطـوائف .. كلهم فى ملابس ما رأت رجالا يرتدونهـا من قبل .. ملابس فخمة تنم عن بذخ ، وسلاسل ذهبية تلمع فى الصـدور وتشهد بثراء اصحابها . وكان موكب السادة والسيدات من عليـة نبلاء الدولة ، أكثر بذخا واسرافا .. فقد ارتدى أفراده ثيابا من الحرير والمخمل ، وأقمشة مذهبة ومفضضة ، وهى ثيـاب حرم الدين ارتداءها !.. وكان الموكب التـالى أعجب وأبهى ،

اذ أقبل الجنود على جيادهم ، فلم يكونوا عابسين متجهمين مدججين بالسلاح على سروج من جلد - كالعهد بهم - وانما كانوا مرحين ، ضاحكين ، تتهدل خصلات من شعرهم من تحت قبعات زينت بالريش ، وقد ارتدوا صداريات من قماش فضى، تتدلى عليها مناديل من حرير هفهاف ، كما كانت تعلو أحذيتهم طبقات من « الدانتيلا » ، بينما كان لمعان سيوفهم المسلولة - تحت أشعة الشمس - يبهر الابصار . ثم .. **ثم أقبل مابدا كأنه سفينة فوق موج لجب متباين الالوان .. كان ثمة رجل يجلس على جواد ذى سرج مرتفع ، فما أن تجلى بطلعته على الجمع حتى انبعث تهليلهم فى تحمس مخبول : « الملك ! الملك ! الملك ! »**

وألفت الفتاة الشريدة الملك أمامها ، تستطيع أن تراه بعينيها .. الملك نفسه ، تشارلس الثانى ، ذلك الكائن الذى كانت تتصوره كما تتصور شخصيات الاساطير .. ذلك« الفتى الاسود » المحوط بألوان من التكريم السرى والابتهالات الهامسة ! .. على أنه لم يكن أسود ، وانما كان داكن السمرة حتى أن أسنانه كانت تبدو شاهقة البياض اذا ما ابتسم ،كما اعتادت الفتاة أن ترى أسنان عمال الفحم اذا ماتكشفت وسط وجوههم الرازحة تحت غبار الفحم !.. وكان طويلا ، ممشوق القد ، منتصب الجذع على صهوة جواده ، وقد أمسك قبعته باحدى يديه السمراوين الطويلتين ، وأمسك عنان الجواد باليد الاخرى ، بينما انساب شعره الاسود اللامع على جبينه وخديه النحيلين ، وهو يحنى رأسه للجماهير المحتشدة ، ثم يرفعه متألقا بالابتسام نحو السيدات اللاتى كن فى الشرفات

وهكذا قدر للصغيرة « نيل جوين » ان تشهد - فى ذلك اليوم المشرق من أيام شهر مايو - تشارلس ستيوارت ، فى عيد ميلاده الثلاثين ، وقد ارتقى عرشه .. أخيرا !

★ ★ ★

• **وفى** قصره الذى أعيد تجديده وتأثيثه ٠٠ فى قصر « هوايتهول » ، ابتسم الملك لاخيه – دوق يورك – فى اعياء ، وأصداء الهتافات التى حفت به ، خلال الايام الثلاثة الاخيرة ، تتردد فى آذنيه ٠٠ وقال : « يخيل الى أن بقائى فى الخارج كل هذا الوقت كان خطأ منى ٠٠ ما رأيت انسانا لم يبد احتجاجه قائلا انه كان يصبو الى عودتى ! » ٠٠ ثم لوح بقبعته محييا أولئك الذين كانوا سادرين فى الاحتجاج على طول غيابه ، وقال معتذرا : « لقد برح بى التعب حتى اننى لا أكاد أقوى على الكلام » ٠٠ ولاول مرة – منذ خمس عشرة سنة – أوى الى مخدعه ، ونام تحت سقف مقره الخاص !

ولابد ان « نيل » شعرت هى الآخرى – وهى تنطلق عائدة الى رصفة الفحم – بأن التعب قد برح بها ، حتى انها لم تكن تقوى على الكلام ، لاسيما وان صوتها بح لفرط ما ارتفع بالبكاء ٠ وكانت مبهورة ، فقد شهدت فى يومها رؤى أساطير الماضى تتجلى أمامها فجأة فى عالم الحقيقة !٠٠ على ان بهجة اليوم وبهاءه لم يتلاشيا فى الايام التالية ، بل أخذ كل يوم يأتى بأعاجيب تذهل الناس وتملك عليهم أنفاسهم !٠٠ **ورأت « نيل » أناسا عهدتهم واجمين مكتئبين ، يقبلون على اخراج ملابسهم الزاهية من المخابىء التى أودعوها اياها زهاء عشرين عاما ، فيرتدونها غير متورعين ، وقد انبسطت الاسارير التى طال عبوسها !٠٠** ورأت الحلاقين وماسحى الاحذية يمارسون حرفتيهم جهارا فى يوم السبت دون أن يزج بهم أحد فى السجون ٠٠ وأقبل الناس فى تحمس على الرقص ، على أنغام الموسيقى العالية ، دون ان تحاسبهم السلطات !٠٠ وسار الملاحون بأدواتهم ومعداتهم الى ميدان (ستراند) ، فأقاموا صاريا عاليا ، حتى لقد اشرأب بالتاج الذهبى الذى كان فى

أعلاه الى مافوق سقوف دور الميدان ، بينما راح الناس يرقصون وينشدون : « بدأت الايام الذهبية تعـــاودنا ! » ٠٠ وعادت الحانات فثبتت على أبوابها اللافتات من جديد ، وقد رسمت عليها بألوان بهيجة صـــور الملك والدوق ـ أخيه ـ والشعار الملكى ! ٠٠ **فاذا شئت أن تبعث شيئا من البرودة فى دمك الذى يفور لفرط الحماس والانفعال ، فهناك حفلات اعـدام أولئك الذين أعدموا ـ منذ أحد عشر عاما ـ والد « الفتى الاسمر »٠٠ وان لم تلبث هذه الحفلات ان أوقفت ، اذ قيل ان الملك الجديد احتج على المضى فيها قائلا : « الحق اننى سئمت الاعدام ،فدعوه يستريح ! »** ٠٠ على أن الناس وفقوا الى مايعوض حرمانهم من هذه التسلية ، اذ نبشوا قبر كرومويل العظيم وأخرجوا جثته ٠٠ وكان فى وسعك ان تذهب لمشاهدة رأسه وقد علق فوق قاعة ويستمنستر !٠٠ وما كان أبشـــعه ، وقد حال لونه ، وتحطم آنفه لفرط القائه على الارض منكفئا !

بل ان أيام الآحاد تخلصت من الاقتصاد المتقشف الذى كان يطبعها ، فأصبحت لا تكاد تتمالك أنفاسك لمرأى ثياب الكهنوت الفخمة فى الكنائس ، ولتنسم عبير البخور الشذى ٠٠ ولمشاهدة ثياب السيدات وقد اطرد انحسارها ـ أسبوعا بعد أسبوع ـ عن النحور ، حتى بلغت الاكتاف ، ثم انحدرت نحو الخصور ، فبات من حقك ان تتساءل عن نهاية هذا الآنحســار !٠٠ **بل لقد غدا من واجبك ان تكتم ضحكاتك لبعض ما كان يجرى فى الكنائس ، كان تسمع الواعظ يوقظ أحد النبلاء قائلا : «سيدى اللورد ، ان غطيطك يوشك ان يوقظ الملك ! »**

ثم جاءت أعجوبة الاعاجيب : فقـد فتحت الملاهى أبوابها ، ولم تعد الفتيات الصغيرات هن اللائى يذهلن لما كن يشاهدنه فيها ، بل ان الكبيرات أصبحن هن الاخريات يرقبن مأخوذات ٠٠ فقد بدا ان الحاشية ـ التى كانت مع الملك فى المنفى ـ أحضرت معها من فرنسا أفكارا جـديدة للمسرح ، فشهدت

انجلترا نساء يقمن بالتمثيل ٠٠ وهو أمر لم يكن لها به عهد من قبل !٠٠ ومن الناس من لم يصدقوا حدوث تطور كهذا ، فتدفقوا على المسارح ليشهدوا هذه البدعة !٠٠ وكان من العسير على « نيل » ان تتصور كيف تكون المسرحية ، ولكنها ما لبثت ان عرفتها ، اذ كان يباح لمن لا يملكون أجور ارتياد المسارح أن يدخلوها ويصعدوا الى الطابق العلوى دون ما مقابل، بعد ان يتجاوز التمثيل منتصفه !٠٠ ولم يكن رواء الممثلات وتألقهن مما يخطر بأحلام فتاة مشردة ، تهيم فى أسمال بالية ، اذ مات أبوها في السجن ، وعاشت أمها متبذلة ، مخمورة أبدا !٠٠ ومع ذلك ، فقد كان فى وسع فتاة مثل نيل ان ترقى بنفسها من رصفة الميناء الى بعض الاضواء ٠٠ اذ ان مؤسسات أقل سمعة ومستوى من المسارح ، فتحت أبوابها فى عهد « عودة الملكية » ، وكان مما يؤسف له انها أقبلت على استخدام أمثال هذه الفتاة !٠٠ تلك كانت الحانات الوضيعة ، حيث كانت صاحبة الحانة هى المرأة الوحيدة التى تؤنس روادها، فكانت دائما فى حاجة الى خادم نشيطة ، يقظة ، تطفىء عطش عشاق الخمر ، بينما تنصرف هى الى رى عطش آخر !

وقدر لنيل ان تلتحق بهذه المدرسة الحيوانية القاسية !٠٠ وفتاة ذكية بارعة ـ مثلها ـ خليقة بأن تحفظ الدروس بسرعة ٠٠ فتتعلم كيف تختطف قطعة نقود من يد العميل ، بينما تتحاشى بمرونة أن تقبض أصابع يده الاخرى على شىء من جسدها ٠٠ وكيف تتفادى اقتراحا فاسقا ، باظهار صد مرح يثير الضحك بدلا من ان يذكى الغضب !٠٠ ومن ثم أثبتت « نيل » انها تلميذة ناجحة ، وتفتحت فى الحانات قريحتها التى نشأت فى أحط الاوساط ، كما ازدهر جمالها بدرجة جعلتها ـ حين بلغت الثالثة عشرة من عمرها ـ تفتن بصر شخصية جد مبرزة في لندن ، وتستولى على سمعها ٠٠

وما كانت تلك الشخصية سوى « أستاذة بائعات البرتقال »فى

ملهى « كينجز هاوس » (مسرح الملك) فى (درورى لين) ..
وهى سيدة ذات مكانة فى دنيا اللهو ، عرفت باسم « اورانج
مول » بين معارفها الذين خلعوا عليها اسم البرتقال من قبيل
التدليل ، بينما عرفتها « نيل » باسم « مسز ميجز »

★ ★ ★

• **وكانت** النتيجة ان غادرت نيل – فى أصيل يوم من أيام
صيف سنة ١٦٦٣ – حانتها الوضيعة . وسرعان ما كانت
تختال فى الملهى الجديد ، مزهوة بثوب نظيف ، أنيق ، ذى
قلابات من « الدانتيلا » ، وحذاءين لطيفين وجوربين . واتخذت
مكانا فى مؤخرة المسرح ، وهى تحمل على صدرها سلة علقت
الى عنقها ، وراحت تنادى على السلعة التى كانت فى السله :
« برتقال » ! .. وتلوح لجمهور « الصالة » الصاخب ، ولرواد
المقصورات الرزينين ، صائحة : «هل لكم فى بعض البرتقال ؟»
.. ووجدت فى شباب المدينة ، الذى كان يقبل على الملهى ،
صيدا ثمينا لقفشاتها اللاذعة ، وبديهتها الساخرة ، كماوجدت
منهم عروضا أغلى من قطع النقود التى كانت تنتزعها من
أصابع المخمورين فى الحانة ! .. وما لبثت ان تعلمت ان اى
شخص يزعم انه سيد مهذب راق (جنتلمان) ، لا يجرؤ على ان
يساوم فى ثمن برتقالة على مرأى من السيدات الحسان
الملثمات اللائى يبتاع البرتقال ليقدمه اليهن كعربون للتعارف !
وكانت نيل لا تستطيع – من موقفها – ان تشهد ما كان
يجرى على منصة المسرح ، ولكنها كانت تنعم بمشاهدة
« مسرحية » أكثر متعة ، تجرى فى « الصالة » وفى المقصورات
.. كانت ثمة أدوار جريئة يمثلها الشبان والحسان .. وأدوار
أكثر اتزانا يمثلها السادة والسيدات . **أما فى المقصورة
الملكية ، فكانت نيل تشهد أحيانا أقدم وأعرق مسرحية فى
الدنيا ، أبطالها رجل بين امرأتين .. ملك بين ملكة وعشيقة !**

.. فكان الملك تشارلس - الرجل الطويل الاسمر ذو الفم الذى يخفف مرحه من قبحه ، والعينين اللتين تنمان عن شماء رغم جمالهما ! - يجلس بين زوجته الملكة الجديدة كاترين براجانزا ، التى كانت اسنانها تشوه فمها - وان كانت عيناها الوادعتان تأسران القلوب ! - وبربارا فيلبير ، ليدى كاسلمين التى كانت ، بقامتها الفارعة وجمالها الاشقر ، أبدع امرأة فى انجلترا .. كما كانت أكثر نساء انجلترا فجورا وفسقا !!

وما كانت نيل لتعير الملكة سوى نظرة توقير .. فان المرء لا يملك نفسه من ان يحسد الملكة على ظفرها بصاحب التاج . أما عشيقة الملك ، فلا شأن لها بالتاج ، وانما هى تحسد على ظفرها بقلب الرجل الذى يملك التاج !.. وقد تكون عشيقة الملك عاهرة ، ولكن .. أية عاهرة هى ؟.. انها لتجلس فى المقصورة مثقلة بالمجـــوهرات ، وقد كشف ثوبهـــا عن كتفين جميلتين وصدر بديع ، هى الطعم الذى جعل من الملك فريسه سهلة !.. واذا كانت نيل لم تجرؤ على أن تحلم بأن تغـــدو ممثلة ، فانها - من باب أولى - لم تحاول ان تتطلع الى عشيقه الملك التى كانت تجلس الى جواره ، وقد أسلمته يدها البضه كى يربتها ويمسح عليها بيده السمراء !.. بل ان نيل ما كانت لتطمع فى ان يلقى الملك نظرة عليها ، لأن الملوك لا يبتاعـــون برتقالا فى المسارح !

ولكن ، اذا كان ملك انجلترا لم يحفل بالنظر الى نيل ، فان ملك عالمها المسرحى تأملها أكثر من مرة .. وكان ذلك الملك هو تشارلس هارت ، مدير مسرح « كينجز هـــاوس » ، الذى جمع شتات الفرقة التمثيلية القديمة التى كان يرأسها قبـــل عهد كرومويل ، ولكنه كان يعانى مشـــكلة جعلته يبحث عن الفتيات الصغيرات اللائى يستطعن ان يفقهن دروسه بسهولة فيحذقنها ، واللائى يملكن من الجمال مايجعلهن متعة للانظار .

وكانت نيل قد غـــدت فى الرابعة عشرة ، ملتفة العــود فى

رشاقة ، ذات أهداب طويلة سوداء تنسدل على عينين امتزج فيهما اللونان العسلى والاخضر ، وفم شهى احمر - تدلت شفته السفلى - ووجه على شكل القلب يتوجه شعر جمع بين اللونين الاحمر والبنى . وكان قوامها الدقيق قد صيغ وفقا لأفتن أشكال الرشاقة ، كما كانت قدماها من الصغر بحيث اشتهرتا بأنهما « أصغر قدمين فى انجلترا » !.. أما ذكاؤها فكان فى وسع من يسمعها ، وهى تتحايل لانتزاع قطعة من ذات الستة بنسات من أحد مشترى برتقالها ، ان يطمئن اليه .. والواقع ان نيل جوين الصغيرة كانت تبشر بمستقبل باهر !

وعرض عليها تشارلس هارت ان يعلمها أسرار فنه ،فقبلت فى لهفة ، ودفعت الثمن راضية !.. ولم لا ؟.. انها لم تكن عديمة الخلق ، ولكن أفكارها كانت توحى اليها بأن المرأة « الشريفة » يجب ان تدفع للرجل الذى يساعدها أجره ، بالعملة التى لا تملك سواها .. ومادامت لا تبدد هذه العملة على كل شخص ، بل تظل محتفظة بها لصاحبها فقط ، فهى ليست ساقطة ، وانما هى امرأة حسنة السمعة !.. ثم ان تشارلس هارت لم يكن شابا سكيرا يسطو على الاعراض ، وانما كان رجلا وفيا ، رحيما ، يكاد يكون أبويا فى حبه.. حب الرجل الذى بلغ أواسط العمر ، للفتاة التى تقف على أولى درجات النضوج !.. وقد كان واسع الصدر مع الفتاة التى كانت تعرف القراءة والكتابة بعناء ، والتى كان الثوب النظيف - على بساطته - شيئا جديدا فى حياتها !.. على انه سرعان ما وجد فيها تلميذة قديرة الى درجة شجعته على ان يسند اليها أول أدوارها فى نوفمبر سنة ١٦٦٤ ، وهى لاتزال دون الخامسة عشرة من عمرها بشهرين !.. وكان ذلك الدور، دور « بولينا » فى مسرحية « الهائم » .. دور محظية من الدرجة الاولى !.. وهكذا غدت نيل جوين ممثلة فى مسرح

الملك - كينجز هاوس - مما كان يبيح لهـا ان تلقب نفسها بلقب « خادمه صاحب الجلالة » ، ومما جعل من حقهـا ان تتلقى من الملك منحة سنوية تتمثل فى أربع ياردات من قماش أحمر باهت تتصنع منها معطفا ، و ربع ياردة من مخمـل قرمزى لصنع ياقة هذا المعطف !٠٠ كما أصبح لهـا مسكن محترم فى حى (دروری لين)

* * *

• **وتاه** تشارلس هارت فخرا بتلميذته وخليلته ، اذ تألقت شهرتها كأنها الشهاب الثاقب ، فألقت بأضوائها على المسرح العتيق ٠ ولم تكن تلقى كثير اعجاب فى الادوار الجدية - التى كانت من ناحيتها تكرهها - ولكنها كانت تلعب بالرؤوس في « الادوار الطائشة » التى كانت تؤديها ببراعة لا تبارى !٠٠ وكانت تبلغ أبهى آيات النجاح فى أدوار الفتيـات العابثات اللائى يتنكرن فى ثياب الفتيان ، وفى أدوار الفتيان الماجنين ، فكانت تفتن الالباب بقوامها النحيل وسـاقيها البديعتين فى « البنطلون » !٠٠ وكان من الممكن ان تظل تؤدى هذه الادوار طوال أشهر الصيف الاربعة من ذلك العام ، لو لم تستول على لندن قبضة أشد من قبضة كرومويل ، أغلقت المسـارح مرة أخرى ، وحرمت الممثلين مصدر عيشهم ٠ فقد زحف الطاعون على المدينـة ، وأصبحت أبواب الاكواخ وأبواب القصـور على السواء ، تحمل علامة الصليب الحمراء ، وقد كتب تحتها فى ضراعة مستيئسة : « اللهم ارحمنا ! » ٠٠ **أجل ، عاد الطاعون يعيث فى المدينة فسادا ، بعـد ان ارتاحت من وطأته خمس عشرة سنة !**

أفترى رحلت نيل مع المهاجرين الذين تدفقت سيولهم من المدينة الى الريف - حيث الهواء الطلق - فلم يبق فى لنـدن سوى الفقراء ، والعجزة ، والمحتضرين ؟٠٠ أم تراها ظلت فى

المدينة التى نبتت الحشائش فى شوارعها ، بعد اذ لم تعد تطأ أرضها سوى عجلات العربات المحملة بصرعى الطاعون ، وحيث لم تعد تسمع سوى أنات المصابين والاجراس المنذرة بالموت ؟ .. ترى هل بقيت وحيدة تشهد - فى ذعر - الصلبان الحمراء وهى تعم أبواب (درورى لين) ، وترقب عدد الموتى يتضاعف حتى أصبح ألفا فى اليوم ؟ .. **من المحتمل انها صحبت تشارلس هارت الى الريف لتمثل فى الهواء الطلق ، او فى ساحات القرى ، وتنشد هواء نقيا لرئتيها ، ولقمة عيش تعدتها !**

وأخيرا ، بسط الشتاء صقيعه الناجع على المدينة الموبوءة - بعد صيف وخريف رهيبين - فطيب جراحها ، ونقى هواءها .. فما لبث الملك أن عاد الى « هوايتهول » فى شهر يناير ، وان ترك نساء الحاشية فى (اكسفورد) لانها كانت أكثر أمنا . ولم يحن شهر يونيو ، حتى لمت فرقة مسرح الملك شتاتها ، وعادت الى مسرحها ، ولكنها وجدته مخربا ، مليئا بالقاذورات ، مما حال دون العمل فيه .. ومن ثم لم تفز نيل من ذلك الموسم بغير المنحة الملكية : المعطف الاحمر .. والياقة المخملية !

وكان البلاط الملكى قد اكتمل فى لندن فى تلك الاثناء ، وحدث ان تطاولت كاسلمين - عشيقة الملك - على الملكة بمشهد من الحاشية ، الى درجة جعلت الملك الطويل الأناة يصفها بأنها « وقحة ، سليطة » ، ويأمرها بأن تبرح البلاط !

.. وانقضى صيف آخر والملك موزع بين الحرب التى كانت دائرة فى (المانش) بين انجلترا وهولندا ، والحرب التى كانت محتدمة فى القصر بين نساء الملك ، وأعمال الاصلاح والتطهير التى كانت جارية فى « هوايتهول » . ثم .. شب حريق لندن « الرهيب ، الضارى ، القاتل » ! .. وراح يستفحل ويذكو ، حتى ان الذى كان يطل على المدينة من عل ، كان يراها كانون مستعر . ولف عمدة لندن منديلا حول عنقه ، وراح يولول

كالنساء : « يا الهى !.. ماذا أفعل ؟ » .. أما الملك ، فقد عرف ماينبغى عمله ، اذ انطلق مع أخيه دوق يورك يجوسان بين النيران ، ويأمران بنسف البيوت ، ويقفان بين الاطلال يشرفان على نقل المياه الى ميادين الحريق . ولم يطمئن الملك الى انهزام آخر لهب ، الا بعد اليوم الرابع . وكان الاعياء قد برح به .. بينما بات ثلثا عاصمته هشيما واطلالا !

وتركت الفجيعة لندن كمريض خلصه مبضع الجراح من الالم ، فاذا برد الفعل يدفعه الى الاغراق فى الضحك ولما يندمل الجرح !.. وأقبلت المسارح على عرض التمثيليات الهزلية تباعاً ، والقوم يضحكون فى تهوس وقد اطمأنوا الى نجاة الارواح ، ولم يواجهوا بعد نكبات ضياع الاموال !.. وتوالت المسرحيات الفكهة ، وكانت « نيل » من أبرز نجومها، ثم بلغت أوج مجدها فى دور « فلوريمل » فى مسرحية«الملكة العذراء » ، حتى لقد أعجب بهـا الجميع !.. **وكان أشد هؤلاء المعجبين تهوسا هو : تشارلس ساكفيل ، لورد بوكهيرست . وكان شابا ذا وجه بهى كالقمر ، وذكاء متوقد. وكان اعجابه عمليا ، اذ خصص لنيل معاشا قدره مائة جنيه فى العام . وكانت هذه طفرة مالية واجتماعية لاتحلم بمثلها ممثلة اذ ذاك !.. على ان نيل ظلت تتبع فلسفتها الاخلاقية ، اذ رأت من دواعي الشرف ان تستأذن تشارلس هارت فى ان تهجره !** وحزن الرجل أشد الحزن لفقده رفيقته المرحة ، وتألم لمسلك « السادة النبلاء الذين كانوا يسلبون المسرح ممثلاته الشابات بمجرد ان يحذقن فنهن » !.. على انه كان صادق الود لنيل ، فأدرك ان مثل هذا المعاش أفضل لها من الفن ، اذ أن مثل جمالها سرعان مايذبل ، فلا تعود تجد لنفسها فى المسرح مجالا !

وعاشت نيل مع بوكهيرست ردحا من الزمان فى (ايبسوم). وكان مرحهما من النوع الضارى ، المشبوب . ولكنه سرعان

ماخمد فى نفس الرجل ، فلم تنقض ستة أسابيع حتى إختنق الحب فى قلبه . وانقضى « شهر العسل » ، فهجر نيل تاركا اياها أفقر مما كانت - مالا وكرامة - وان ازدادت معرفة بأن وعود السادة الاشراف يجب ان لا يعتد بهـا ، ما لم تتقاض الثمن نقدا و عدا فى البداية !.. ولم تجد بدا من ان تعودالى (درورى لين) حيث فقدت رعاية هارت ، وتقدير زملائها . على انها لم تكن نادمة - رغم أساها - حتى انهـا لم تتورع ، عندما رمتهـا ممثلة ذات ماض مشين بأنهـا « مومس اللورد بوكهيرست » ، عن ان ترد عليها قائلة : « **انني لم أكن عشيقة لغير رجل واحد ، وان نشأت فى حانة .. أما أنت فتبذلين نفسك لثلاثة رجال أو أربعة رغم انك ابنة رجـل تقى !** » . وضحك الرجال - من زملائها - لردها ، بينما كفت النساء عن مشاحنتها .. وأدرك الجميـع ان جزاء اهانة « نيل جوين » مؤلم !

* * *

◆ **وفى** تلك الاثناء ، كان دوق بكينجهام يعمل - فى البلاط - على أن يقضى قضاء مبرما على ليدى كاسلمين ، التى أخذت تسترد حظوتها لدى الملك . و عول الدوق على ان يهيىء للملك ألوانا جديدة من الهوى تصرفه عن خليلته ، ومن ثم اختار - فى دقة وعنـاية - اثنتين من الممثلات : نيل جوين ، من مسرح الملك ، ومولى ديفز ، من مسرح الدوق .. وقادهما الى البلاط لكى تسريا عن الملك . وقسم الملك اعجابه بينهما بالتساوى . أما مولى ، فقد قبلت خاتما ، و منزلا صغيرا استؤجر لها ، فى مقابل ما طلبه الملك منها . ولكن نيل خدعت بنصح بكينجهام - الذى كان يريد أن يوقع الملك فى غرام طـويل ، لا مجرد نزوة عابرة - فقدرت ان الملك يساوى خمسة أمثال بوكهيرست ، عشيقها الغادر ، ومن ثم طلبت خمسمائة جنيه !.. ولـكن

الملك لم يؤت من الموارد مايمكنه من ان يقرر معاشا لكل ممثله صغيرة تحظى برعايته حينا ، لا ولم يكن من الضعه ـ مثـل بوكهيرست ـ فيعدها ثم ينكث بوعده ٠٠ ذلك لان البرلمـان كان قد بدأ يفيق من « شهر العسل » الذى انتشى فيه بعودة الملكية ، فبدأ يقبض يده فى تقدير المخصصات الملكيـة ، فلم تعد موارد الملك تتحمل أكثر مما كانت تبتزه كاسلمين المبذرة!

على أن سحر وجه نيل ـالشبيه بالقلب فى شكله ـوطرافة فكاهاتها اللاذعة ، ظلا عالقين بذاكرة الملك · ففى ذات ليلة من ليالى شهر يونيو ، شهدها الملك وهى تمثل · وأخفقت فى دورها ليلتذاك اخفاقا ذريعا ، ولكنها اســتطاعت ان تتدارك سمعتها فى نهاية المسرحية ، اذ تحاملت على نفسها ،وخاطبت الجمهور قائلة :

« لقد جئتكم أيها السادة بنبأ عجيب أزجيه اليكم
« فأنا شبح المرحومة نيل البائسة ٠٠
« لا تجزعن أيتها السيدات الحسان ، فسـوف التزم الهدوء
« لانني ـ كما كنت من قبل ـ شيطانية صـغيرة ٠٠ لا تؤذى » !

وحملت الشيطانة الصغيرة ـ بعد هبوط الستار ـ الىمحفة أقلتها الى « هوايتهول » !

وفى هذه المرة ، لم تنصع لنصح بكينجهام الذى كان صادرا عن رعاية لاغراضه الخاصة ، وانما استجابت لوحى نفسها ٠٠ فهى وان لم تجد فى وسعها ان تفرض نفوذها على الملك ،كما كانت كاسلمين تفعل ، الا أنها شعرت بأن فى طوقها انتفعل ماهو أفضل ٠٠ **ذلك هو ان تخفف من كآبة الاسى الذى كان يكمن فى أغوار عينى الملك ، بأن ترسل عليه شعاعا من روحها المرحة ٠٠ وراق لها هذا الدور ، فقررت ان تنجح فى أدائه !**

وفى الصباح التالى ، خفت الملكة الى مخدع الملك ـ الذى كان

قد تعلل لها فى الليلة السابقة بحجة تبرر غيابه عنها ـ لتطمئن الى أنه حظى بنوم هادىء ، فاذا بالنظرة الاولى تؤكد لها انه قضى ليلة طيبة ٠٠ اذ وجدت الى جوار الفراش نعلا ـ (شبشب) ـ مخمليا ، لا يناسب حجمه قدم رجل فى مثل

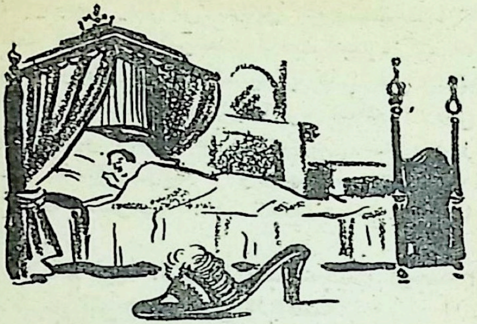

جسم الملك !٠٠ وكانت الملكة قد كفت عن الكفاح لتنفرد بقلب الملك ذى الحجرات العديدة ، وقنعت بأن تحظى منه بمهابة العرش والتاج ٠٠ ومن ثم أشاحت بوجهها ، وان اختلست نظرة خلال الستائر المسدلة على الفراش ، وقالت مبتسمة : « لن أطيل البقاء حتى لاتصاب الرعناء الصغيرة ـ التى تملك هذا النعل ـ ببرد ! »

وأسكن الملك نيل دارا صغيرة فى شارع (سفولك) على مقربة من الدار التى كان يستأجرها لمولى ديفز ٠ **وفى شهر مايو من العام التالى ـ ١٦٧٠ ـ أنجبت ولدا أطلق عليه اسم « تشارلس بوكلير » ، لم يبد الملك نحوه أى اهتمام ٠٠ فقد كان له اذ ذاك عشرة أولاد من عدة نساء !٠٠** فضلا عن انه كان ـ عند مولد الطفل ـ قد رحل الى (دوفر) ليقابل المخلوقة التى كان يحبها أكثر مما أحب أى انسان فى الوجود ٠٠ تلك

هى أخته هنرييتا ـ أو « مينيت » الصغيرة ، كما كان يدللها ـ زوجة دوق أورليان شقيق لويس الرابع عشر ملك فرنسا ٠ وخلف ستار اللقاء البهيج فى (دوفر) ، راح الاخوان يدرسان السبب الحقيقى الذى جاءت من أجله « مينيت » ٠٠ فقد كانت وسيطا لعقد تحالف سرى بين ملكى انجلترا وفرنسا ، يضطلع بمقتضاه تشارلس بتقديم معونة عسكرية للويس فى حروبه فى (الفلاندرز) ، كما يعلن بهذه المناسبة عودةانجلترا الى أحضان الكنيسة الكاثوليكية ، فى مقابل قيام لويس بتقديم معونة مالية للملك الانجليزى ٠ ولقد رأت هنرييتا فى هذا العرض تحقيقا لعودة أخيها الى الله ، وربطا بين رجلين كانت تحبهما فوق كل الناس ٠٠ بينما رأى فيه تشارلس وسيلة للتحرر من الضائقة المالية التى كان البرلمان يحبسه بين جدرانها ، وأداة تمكنه من ان يصبح صاحب السلطان الاعلى فى مملكته !

وعندما حان موعد الفراق ، قدم الأخ لأخته جوهرة على سبيل الذكرى ، فتخيرت بدورها قطعة من مجوهراتها قدمتها اليه ، فقال مبتسما ان خير جوهرة يصبو الى الفوز بها منها ، هى وصيفة شرف شابة فى حاشيتها تدعى « لويز دى كيروال » ٠٠ وأبنته هنرييتا فى مداعبة أخوية ، وهى تعرف أهواء أخيها ونزواته ، ثم افترقا ضاحكين ٠ وعاد تشارلس الى لندن وقد شغل عن وصيفة الشرف ، وعن الممثلة الانجليزية الصغيرة الجسم ، التى أنجبها ولدا ٠٠ فقد كان يدرك آنه بقبول الحلف الذى عرضته عليه أخته ، انما يقود سفينة حكمه وسط عواصف خطيرة ، فأخذ يتدبر سبل المرور بين الاخطار بسلام!

على ان هذه الخطورة ما لبثت انّ توارت فى ذهنه خلف غيوم كثيفة من الاحزان انعقدت فى سماء حياته فى شهر يونيو من العام ذاته ، اذ ماتت هنرييتا ، فدفن تشارلس معها أطهر حب

فى وجوده . وكانت هنرييتا أكثر من أخت له .. كانت زميله صباه فى فترة مليئة بالمحن والآلام والاحزان .. وقد بلغ من أساه عليها ان قال : « ان حزنى عليها أعظم من ان اجسر على التفكير فيه » !

★ ★ ★

• **وكانت** « نيل » — فى تلك الفترة — منصرفة عن كل شىء الى رعاية ابنها الملكى الوليد . وكانت حتى ذاك الوقت قانعه بأن تكون على قدم المساواة مع زميلتها « موللى ديفز » ، فهى تسكن على حساب « الجيب الخاص » ، وتكتفى بمـــا كانت تستطيع ان تحصل عليه من عشيقها الملكى . أما بعد ان أنجبت الطفل ، فقد بدأت ترى نفسها أعلى مكانه من « موللى » ، فشاءت أن تحصل على هذا الامتياز الذى اكتسبته بحق وعن جدارة .. و صبت الى أن تحصل على اعتراف بأنها عشيقة الملك ، وبأن ابنها من صلب « صاحب الجلالة » وان ولد فى فراش السفاح ! **.. وكانت ترى ان الملك قد بلغ أوج سلطانه ، وانه لن يحجم عن الاعتراف بابنه ، وان كان جدا هذا الابن — من ناحيه أمه — لم يزيدا على رجل تعس مات فى السجن ، وامرأة متبذلة قضت عمرها غارقة فى الخمر !..** وكانت على حق فى هـــذا الامل الطامع ، اذ كانت له سابقة .. فقد أعترف الملك من قبـــل بأولاد مثل ولدها ، وان كان قد قصر هذا الاعتراف عـــلى الخمسة الذين أنجبتهم ليدى كاسلمين .. وكان كل انسان — عدا الملك — يدرك ان بين هؤلاء الابناء من كان من صلب لورد ستانهوب و جون تشيرشل !

وأخذت « نيل » تتربص للفرص فى صبر .. حتى اذا انقضى صيف ذلك العـــام ثم خريفه ، وحان بنـــاير من عام ١٦٧١ ، أقدمت على عين مافعلته عندما تخلى عنها بوكهيرسنت من قبل..

اذ هزت كتفيها لمثلها الاخلاقية الخاصة ، و عدلت من فلسفتها، مؤكدة ان ليس هناك مايضطرها الى أن تكرس نفسها للرجل الذى يعولها وحده ٠٠ ومن ثم عادت الى العمل !٠٠ وما فطنت فى الواقع الى أنها بذلك قد وجهت الى الملك أعظم ضغط يدفعه الى الحرص عليها !٠٠ فقد استفزت ـ بعملها هذا ـ شعوره بالكرامة الملكية ، فلم يطق أن يدع أم طفله تظهر على المسرح فى « بنطلون » لتثير أحاسيس النظارة مرة أخرى ، بل أقصاها بسرعة عن الفن والتمثيل ٠ وعادت الى حوزته ، ولكنها لم تعد الى نفس المستوى الذى كانت « موللى » تعيش فيه ، وانما استأجر لها الملك بيتا أنيقا فى حى « مال » الراقى ٠٠ ولم يكن مجرد بيتا عاديا ، بل كان مقرا لاحد الدوقات !

وكان فى هذا مايكفل ارضاء نيل ، ولكنها لم تشأ ان تنسى الدرس الذى تلقته فى مغامرتها مع بوكهيرست ، فلم تجد فى المنزل المستأجر أمانا كافيا ، ولو كان الملك هو مستأجره !٠٠ ومن ثم ردت عقد الايجار الى الملك مع رسالة نزقة ، قالت فيها: « لقد اعتدت ان أقدم خدماتي للتاج دون ما مقابل ٠٠ على الدوام ! » ٠ وفهم الملك ماكانت ترمى اليه ، فضحك ، وابتاع لها البيت ، فبادرت تنقل اليه أمها التى كانت تهيم فى الشوارع وهى مخمورة ، وعنيت بأن تقدم لها « البراندى الفرنسى » بدلا من « الجين » الرخيص !

وأى ضير فى هذا ؟٠٠ ان نيل لم تعد تخجل من أمها ٠٠ تماما كما لم تعد تستحى من كونها عشيقة الملك ٠٠ بل انها كانت ترى ان العار الحقيقى هو ان تنكر أحد هذين الامرين الواقعيين ؟

وكانت ترى من نافذة دارها سقف « هوايتهول » ، كما أقيمت فى أعلى الجدار الملاصق لحدائق القصر الملكى ، من سياج دار نيل ، شرفة تطل على تلك الحدائق ٠٠ و غدا من

المألوف ان يتوقف الملك تحت تلك الشرفة - أثناء نزهته فى حدائقه - ليتبادل الحديث والفكاهة مع « مسز نيللى » كما أصبحت تعرف !٠٠ **وعلى الرغم من ان نيل لم تكن قد حظيت بعد بمعاش رسمى ، الا انها غدت عشيقة الملك الرسمية ٠٠ أى من السيدات اللائى يباح لهن دخول القصر الملكى ،والتردد على البلاط !٠٠ وكان هذا يمكنها من ان تعتمد على « الجيب الخاص » بدلا من ان تظل تحت رحمة رئيس ديوان الملك !٠٠** بل انها أضحت من الوجوه المألوفة فى الحاشية ، وان كانت زوجة حارس أبواب القصر الملكى تصفها - فى وجهها ! -بأنها « عاهرة » !٠٠ ومع ان نيل لم تكن تكترث لهذا الوصف عندما كانت ترميها به زميلاتها ، الا ان صراحة زوجة الحارس أحزنتها. فكانت تقول فى ألم مرير : « ماكنت لآبه لو سمعت اى امرىء آخر يصفنى بهذا الوصف ٠ ولكن الذى يحزننى ان أوصف بأننى عاهرة ، ممن كانت عاهرة مجنونة عجوز ، قبل ان يشيع العهر فى البلد ! » ٠٠ على ان هذا لم يعف نيل من ألسنة سيدات أخريات، وان كانت عادات وسطهن الراقى قد دفعتهن الى أن يتجنبن النيل منها فى حضورها !

وبلغ عدد السيدات المسموح لهن بارتياد القصر ، من غير أعضاء الحاشية ، خمسة ٠٠ فقد كان الملك عاجزا عن التخلص من عشيقاته القديمات ، كما كان عاجزا - أيضا - عن ان يمنع نفسه من ان يتخذ عشيقات جديدات !٠٠ على ان ايا من « المحظيات » لم تكن ذات نفوذ ، اللهم الا اثنتان : ليدى كاسلمين - التى أصبحت تحمل لقب دوقة كليفلند - ولويز دى كيروال ٠٠ الجوهرة التى كان الملك يصبو الى الفوز بها من أخته ، والتى استطاع ان يحصل عليها بعد موت مينيت ! ٠٠ وكانت كاسلمين غير متعلقة به فى الواقع ، وانما كانت متشبثة بأمواله ٠ ومع انها لم تعد ذات حظوة لديه - لما كان

يعلمه الملك من تبذلها مع سنواه – الا انه لم يقو مع ذلك عـلى اقصائها عنه !·· وعندما علم انها شغفت ببهلوان يجيد السير على حبل مشدود ، قال لها فى جفـــاء : « **عيشى ماقدر لك ان تعيشيه من عمر ، على ان تتجنبى اثارة الضجيج بقدر الامكان ·· وما دمت تحرصـــين عـلى ذلك ، فلن يعنينى من يـكون عشيقك ! »**

أما « لويز » ، فكان بكينجهام هو الذى أحضرها من باريس. وان كان قد تعمد ان يتركها فى (دييب) – لسبب أسره فى نفسه – ولم يعن بأن يزودها بما تحتاج اليه من مال ، مما أحرج السفير الانجليزى واضطره الى أن يخف لمساعدتها ·· **وعرف انها أوفدت الى الملك كذكرى من أخته الراحلة ، وان كانت فى الواقع موفدة من ملك فرنسا كتذكرة لتشاركس بمعاهدة دوفر السرية !**

ومع ان « نيل » كانت تنأى عن التظاهر ، الا انها شعرت بأنها ند للسيدتين الكريمتى المحتد ، اذ كانت ثلاثتهن أعضاء فى فرقة واحدة ·· لا فرقة المسرح فى هذه المرة ، وانما ·· فرقة المحظيات !·· لا ، بل انها كانت فرقة تمثيل أيضـــا ، وقد تركت نيل لكاسلمين الادوار التراجيدية الاولى ، فكانت هذه تتحمس وهى تهدد الملك بأن تهشم مخ آخر أطفالها منه ، على مشهد من الحاشـــية ، اذا هو لم يعترف به !·· وتركت لكيروال – أو « كارويل » كما أصبحت تدعى – أدوار البراءة ·· فكانت تلوم الملك باكية وتقول – فى سذاجة ! – انها كانت تظنه سيتخذ زوجتين تكون هى ثانيتهما ·· والملـكة ، الاولى طبعا !·· **أما نيل ، فقد قنعت بدور مضحكة الملك التى تسرى عنه ، وتمثل المناظر التى تضحكه فى « بلاط الملك » ·· كما كانت تمثلها فى « مسرح الملك » تماما !·· وكما وجدت فى المسرح أستاذا يرعاها ، فانهـــا وجدت فى البلاط أســـتاذا**

يرشدها ويتابعها بالنصح ·· ذلك هـو دوق روتشيستر الشاعر الرفيق ، الساخر ، الذى كان يتستر وراء سواه فيما كان ينظمه من أشعار فى الهجاء ·· وقد أثبتت التجارب صدق نصحه لنيل !·· كان يقول لها : « ليكن مسلكك على النقيض تماما من مسلك منافستيك ، لكى تعيشى فى سلام مع الدنيا ، وفى دعة مع الملك · وحذار من ان تكونى سيئة الطباع فتوغرى صدره على الاخريين ، وانما احرصى على أن تجعليه ينسى استغلال شهوة لن تجديك كثير نفع !·· واحرصى كذلك على ان تنشدى حبه حين يكون ميالا الى بذله ، واذكرى دائما ان ليس من حماقة أعظم من ان تتظاهرى بالغيرة ·· وانما يجدر بك ان تبذلى كل مافى وسعك – باليد والجسد والرأس والقلب وكافة المواهب ! – لتساهمى فى ارضائه وامتاعه ، واشباع كل أهوائه !·· ولا تحفلى بأية دسائس ، لكى تعيشى بمنأى عن النقمة··وتسامحى ما استطعت ، وكلما استطعت!»

★ ★ ★

• وكان على نيل ان تؤدى هذا الدور ، دون ان يكون لديها أصل مكتوب تحفظ عنه تفصيلاته ·· وما كانت – فى الواقع – بحاجة الى حفظ أو استذكار ، لانه كان الدور الذى يتمشى مع خفة قلبها ، وكرم عقلها وذكائه · ومع انها كانت من بنات الشوارع – أو ربما كان الاصح ان نقول : ولانها كانت من بنات الشوارع ! – فانها فهمت الملك كما لم تفهمه أية من عشيقتيه الرفيعتى الحسب ·· و قادها فهمها الى أن تحبه كما لم تحبه الاثنتان ! فقد استطاعت ان تتبين خلف مظهره العابث انه لم يذق المرح فى حياته قط ، بل انه كان على شاكلتها ، لم يعرف الطمأنينة الهانئة فى طفولته ، كما انه – مثلها – قضى صباه فى الفقر ، أو فى ذلة الحاجة الى نقود الغير !·· أدركت

نيل ان الملك لم يكن يختلف عن الغانية التى تطرب لصحبة الماجنين وللصخب العالى ، لانها ترى فيهما الفرار الوحيد من الوحشة والتفكير !٠٠ واكتشفت كذلك انه كان ـ برغم مباذله وخياناته العاطفية ! ـ مخلصا بطبيعته وفى قرارة نفسه !٠٠ كان مخلصا لزوجته الخاليــة من كل المواهب ، رغم انه كان يعاشر سواها ٠٠ وكان مخلصا لاخيــه المغرور ، رغم ما كان يسلقه به من ســـخرية لا رحمة فيها !٠٠ عــلى ان أعظم ما اكتشفته نيل فيه ، هو كرمه وتسامحه اللذان كانا يجعلانه يغفر ما للبشر من ضعف وزلآت ، وينقم على القسوة فيصفها بأنها « أعظم الجرائم عند الله » !

كان فى وسع نيل ان تلمس كل هذه الامور ، لانهــا ذات علاقة بالقلب الانسانى ٠٠ ولكنها لم تؤت المقدرة ـ ولاالرغبة ـ على ان تحاول اكتشاف الامور التى كانت تخطر بعقل الملك بوصفه ملكا !٠٠ لم تعن بتفهم رغبته فى ان يدعم الحكم الملكى ليسترد للعرش ماكان له فى الايام الخالية من استقرار ٠٠ ولا بادراك كفاحه ضد برلمان لايزال يرتاب فيه ، ويمسك عنه المال والسفن ، فيحول بذلك بينه وبين مآ كان يسعى اليــه من توسيع نفوذ مملكته التجارى وسلطانها الاستعمارى ؟٠٠ بل ان نيل لم تحاول ان تفهم الجهود التى كان يبذلها تشارلس لكى يوطد التسامح الدينى بين اتباع المذاهب المسيحية المختلفة من رعاياه !

لم تكن الشئون السياسية تلذ لها فى شىء ، بل كانت ـ كما جاء فى الاغنية التى شاعت عنها ـ « تكره كل مسائل الحكم من أعماق قلبها ٠٠ وتتركها لمحترفى الدعارة السياسية ! » ٠٠ **أو كما وصفت هى نفسها ، اذ قالت : « لست سوى رفيقة سرير فى سفينة الحكم ! »** ٠٠ وكانت تحب من الرجال أمثال بكينجهام وروتشيستر ، اللذين كانا يساعدانها دائما ، ولانهما

كانا ـ برغم كل تقلباتهما السياسية ـ ينسيان السياسة اذا ما مثلا بين يدى الملك ، فلا يعود لهما من هم سوى اضحاكه ! .. وكانت تكره دوق يورك ـ شقيق الملك ـ لا لاغراقه فى التعصب لمذهبه الكاثوليكى ، وانما لانه كان كالح الوجه ، كئيب المنظر .. حتى نزواته وعبثه وزلاته كانت خالية من البهجة والعاطفة !

على انها لم تكره أحدا بقدر ماكرهت « كيروال » ، اذ كانت تراها فاجرة ارتدت مسوح البراءة والسذاجة ، وهى تعقد العزم على ان تجرب كل حيلة لتحتل مكان الملكة على العرش قبل ان تحتله على سرير الملك ! .. وقد أطلقت نيل عليها لقب « الصفصافة الباكية » ، لانها كانت تحاول ان تنشر ظلالها على الملك ، وان تسيطر عليه عن طريق الدموع ، لا عن طريق الضحك والسرور ! .. على ان ما من أحد من أعضاء البلاط ـ صديقا كان أو عدوا ، كبيرا كان أو صغيرا ـ نجا من لسان نيل اللاذع .. فقد أطلقت على دوق يورك لقب « جيمى الكئيب » ! .. بل ان الملك نفسه لم يسلم من سخريتها . فأسمته « تشارلس الثالث » ، لانه كان ثالث عشاقها ، وكان سلفاه هما « تشارلس » هارت ، و « تشارلس » بوكهيرست ، على انها رغم كل شطحاتها وانطلاقاتها الجامحة التى لم يعرف البلاط لها مثيلا ، ظلت تحترم شخصية واحدة فى البلاط ، فلا تمد اليها لسانها بسخرية .. تلك هى شخصية كاترين ، الملكة ! .. فمع ان دوقة كليفلند ـ أو كاسلمين ـ الوقحة كانت تتجاهل وجود الملكة تماما ، ومع آن كيروال كانت تعامل صاحبة التاج وكأنها غريمة تافهة ، الا أن نيل كانت لا تفتأ تبدى للسيدة المسكينة ، الساذجة ، أقصى احترام وتبجيل .. اذ أنها لم تنس قط ان الملكة كانت « زوجة الملك » ، فى حين انها لم تكن سوى .. « مضحكة الملك » ! ومع انهـا خصته

وحده بكل حبها ــ كما كانت تفعل الملكة ــ ولم تحفل بسواه
مذ صارت عشيقته الرسمية ، الا أنها كانت تدرك بذكائها
مدى الفارق بينها وبين الملكة ، وكانت من الحكمة بحيث تركت
الوضعين على حالهما ، فلم تثر أى صدام او تنافس بينهما !..
ولقد عرفت لها الملكة هذا الفضل ، فأولتها من عطفها ما لم
توله لأية من العشيقتين الكريمتى المحتد ، العظيمتى القدر !
.. كذلك حمد الملك لها هذا الموقف . فمع انه لم يقو على
حمل نفسه على حب زوجته ، الا أن ضميره كان يتأذى اذا
ماعكر أحد طمأنينتها أو راحة بالها !

* * *

◆ على انه كان مقدورا على الملكة ان تعيش مهددة الطمأنينة
والبال ، لانها لم تنجب وريثا للعرش . ولم تلبث هذه المسألة
ان أصبحت موضع بحث ونقاش . فقد كان وريث العرش
اذ ذاك ، هو «دوق يورك» ، الذى كان «متهما بالولاء للبابا ! »،
والذى عزز هذا الاتهام بزواجه من « مارى » ، دوقة مودينا ،
التى كان أقل فلاحى المملكة ذكاء يدرك انها الابنة الكبرى
للبابا .. ابنة غير شرعية بطبيعة الحال !.. وللحيلولة بين
دوق يورك والعرش ، قدم الى الملك اقتراح بأن يطلق زوجته،
ويتخذ زوجة أخرى تنجب له وريثا للعرش . واذ ذاك تطلعت
لويز دى كيروال فى أمل ، اذ انها ولدت للملك ابنا كانت تراه
شرعيا ، لانها كانت تعتبر نفسها ندا للملكة زوجة الملك ،
لا يفرقها عنها سوى ان علاقتها بالملك لم تنشأ على يد أسقف !
.. غير ان الملك استشاط غضبا ، وأقسم ليشنقن كل من يجرؤ
على ان يتكلم أمامه عن الطلاق ، وقال : « من أخبث الرذائل ان
يتسبب المرء فى اتعاس سيدة مسكينة مثل زوجتى ، لانها لم
تنجب لى أطفالا .. وهو خطأ لا ذنب لها فيه ! »

وكانت نيل تكره ان يكون دوق يورك خليفة للملك ،ولكنها كانت ترجو ان لا يتم اقصاؤه عن الوراثة على حساب الملكة ! لذلك اغتبطت عندما دفع « ايرل شافتسبيرى » الى ميدان معركة الوراثة غريما جديدا ، هو « جيمس » ، دوق مونماوث، أول ابن اعترف به الملك .. والابن الذى أنجبه من عشيقته « لوسى والترز » ، حين كان يقيم فى فرنسا منفيا . وكان الشاب فى تلك السنة ــ ١٦٧١ ــ قد بلغ سن الرشد . وقيل انه كان يبدو فى تلك السن ــ الحادية والعشرين ــ وكأن « الطبيعة لم تصنع انسانا كامل المظهر مثله » ! .. ولكنه كان خلوا من المواهب النفسية ، فلم يكن ناضج العقل ولا قوى الشخصية .. وكان شافتسبيرى يدفعه الى المعركة ، أملا منه فى ان يستغل ضعفه ــ اذا ما صار الشاب ملكا ــ لخدمة مصالحه الخاصة ، فيغدو هو ــ شافتسبيرى ــ الحاكم الحقيقى للدولة !.. أما نيل فلم تر فيه الا حلا للمشكلة التى كانت قائمة .. حلا يوفر للعرش وريثا من صلب الملك، دون حاجة الى ايذاء الملكة . وكان يبدو لها فتى لطيفا ، الى جانب انه يتيم الأم ، فخفق قلبها اشفاقا عليه ، وفتحت أبواب بيتها له ولانصاره !

ولقد أثار عليها ذلك ضغائن الكثيرين ، ولكن الملك لم يبد أى اعتراض . فقد كان يثق فى قلب نيل ، ان لم يكن فى عقلها أيضا !.. كما انه آثر ان يظل على علم بما كان يقوله معارضوه تحت سقفها ، بدلا من ان يظل جاهلا بتدابيرهم . ذلك لانه وان أحب ابنه مونماوث ، الا أنه كان يرى انه ابن سفاح ، فلا حق له فى ان يغتصب ميراثا هو من حق يورك ، وان ترك العرش لشخص تشوب شرعية نسبه أية شائبة ، لخليق بأن يقضى على حكم آل ستيوارت !.. كان حبه الابوى للشاب يجعله يخلع عليه من الالقاب والرتب ما كان يفوق سنه ، ولكن

حكمته - لملك - كانت تقيم بين الحب والواقع حدا صارما منيعا !

على ان مشكلة وراثة العرش لم تلبث ان قفزت الى الاضواء بقيام الحرب الانجليزيه الفرنسيه ضد هولندا ، فى سنه ١٦٧٢ . فقد كانت هذه الحرب تثير اهتمام الشعب الانجليزى كله ، لانها كانت تبعث آماله فى القضاء على دولة بحرية تهدد تجارة انجلترا . فلما بدأت قوة فرنسا الحربيه تجتاح هولندا ، انقلب الرأى العام ، اذ بدا خطر هولندا على التجارة الانجليزية أقل من خطر استفحال النفوذ الكاثوليكى ، بانتصار فرنسا « الكاثوليكية » على هولندا « البروتستانتية » ! ومن ثم ذكت جذوة الكراهية للبابا وللملك لويس الفرنسى فى انجلترا . وما لبث الهولنديون ان أوقفوا الزحف الفرنسى بأن فتحوا السدود التى كانت تصد الماء عن أراضيهم . وعندما طلب تشارلس من البرلمان اعتمادات جديدة للحرب ، فوجىء بالبرلمان يطالبه بسحب « قانون التسامح » الذى كان قد أصدره ، وبتحريم المناصب العامة على الكاثوليكيين . وقاوم الملك هذا الاتجاه ، وهو يفكر فى آخيه الكاثوليكى ، وفى الكاثوليكيين الذين عرضوا حياتهم للخطر كى يحموا حياته أثناء فراره من كرومويل ، والذين ساعدوه فى منفاه . على انه لم يلبث ان كف عن المقاومة عندما نصحه بذلك ملك فرنسا تفاديا لقيام حرب أهلية فى انجلترا !

وكما انساق الملك الى نزاع مع البرلمان ، وجد نفسه منساقا فى البلاط الى نزاع آخر ، اذ أن اصلاحات وزير ماليته الجديد بعثت الذعر فى نفوس عشيقاته الرسميات ، ودفعت العشيقتين الكريمتى المحتد - كليفلند وكيروال - الى أن تتحدا معا للمرة الاولى فى حياتيهما ، وان تعملا معا - احداهما تثور على الملك وتصليه نيران سلاطتها ، والاخرى تبكى له ! - فى كفاحهما من

أجل الألقاب والمال والمنح السخية • واستطاعتا ان تنتزعامنه علاوات ضخمه أضيفت الى معاشيهما ، كما انتزعت منه كليفلند ألقابا وضياعا لاولادها تبقى متوارثه بعدهما • اما كيروال فقد غدت دوقة بورتسماوث • ولما امتصت الاثنتان كل ما كان فى وسع الملك أن يجـود به ، أفلتتاه ولم يبق لديه مايقـدمه للمضحكة الصغيرة سوى وعود جوفاء !•• على ان هـذه كانت تأبى ان تشقيه ، لانها كانت فى الواقع تحبه !•• ولكن هذا لم يحل دون ان تغضب • فقـد كانت تتوق الى أن تحظى بلقب يوفر لها الاحترام ، وباعتراف شبه رسمى يقر وضع أبنائهـا ، ولا سيما ثانى ابن رزقت به •• لانه فى الواقع لم يكن وليد استسلام منها للملك بحكم الحرفة ، وانمـــا كان ثمرة حب متبادل •• فكان ـ وفقا لقانونها الاخلاقى ! ـ ابنا شرعيـا ، شريف المولد !•• ومع ذلك ، فان حبها الصادق للملك جعلها تتجلد وتتظاهر بالمرح وهى تتردد على البلاط فى ملابس فخمه محتشمة • وقد شاءت دوقة بورتسماوث الجديدة ان تسخر منها ، فقالت لها مرة : « ماهذا يا امرأة •• انك لتبدين فى مظهر بديع يؤهلك لان تكونى ملكة ! » •• فأجابتها بسخريتها اللاذعة : « انك على حق ياسيدتى •• ومع ذلك فاننى مومس لا أرقى الى منصب الدوقة ! » •• فلما أشاحت كليفلند عنهـا مبدية استنكارها ، لم تتورع نيل عن ان تضربها على كتفهافى مزاح قائلة : « اننى أدرك ان أبناء الحرفة الواحدة لايمكن ان يتبادلوا الحب ! » •• واذا كانت نيل لم توفق الى أن تكون دوقة ، الا انها كانت دائما موفقة فى اضحاك الملك من دوقاته، وفى أن تحمله ـ فى مساء ذلك اليوم بالذات ـ على ان يتناول العشاء معها وحدها •• وقالت معلقة على ذلك : « تكفيك مومس واحدة فى الليلة ياصاحب الجلالة ! »

* * *

◆ **وفى** فبراير سنة ١٦٧٤ ، اضطر الملك ـ تحت ضغط اعتمادات الحرب المستنزفة ، وروح العـداء للكاثوليكية فى انجلترا ـ الى أن يوقع صلحا منفردا مع هولندا البروتستانتية، تاركا بعض فصائل من قواته فى خـدمه فرنسا .. ليستر بذلك خزيه !.. وجلب السلام رخاء ضافيا لانجلترا ، اذ ان انشغال فرنسا وهولندا بالحرب مكن لتجارتها من ان تزدهر ! .. وعاد السلام كذلك بالخير على نيل .. فقد قضت صيفا بهيجا مع الملك فى قصر (وندسور) ، لم تشاركها فيه أية من العشيقتين الاخريين . ومع ازدهار تجارة انجلترا ، نالت نيل نصيبها من جود الملك ، اذ رصد لها ٤٠٠٠ جنيه سـنويا ، وسألها ان تصبر ريثما تخلو دوقيه ، وان تنتظر حتى يدبر لها معاشا رسميا من أموال الدولة . وفى مقابل الانتظار ، منحها ٥٠٠٠ جنيه لتنفقها كيف شاءت . فابتاعت عربة وستة جياد، ومحفة مرصعة بمسامير ذات رؤوس ذهبيه ، وكست جـدران بيتها بقماش مبطن ، كما كست أثاثه بالديبـاج ، وابتاعت لمخدعها سريرا فضيا ، كمـا ابتاعت أطباقا ثمينة لمائدتهـا وأنفقت الكثير على زينتها الشخصية . ولكى تعرض كل هذا البذخ ، أقامت وليمة للملك ، وحرصت على أن تستأجر فرقة من عازفى الكمان ، اذ كان تشارلس يحب هـذا اللون من الموسيقى . فلما انتهت الفرقة من عزفها ، مد الملك يده فى جيبه ، ولكنه وجده صفراً من النقود ، فسأل دوق يورك ان يمده بشىء يمنحه للموسيقيين ، ولكن أخاه لم يكن يحمل نقودا هو الآخر ، واذ ذاك رفعت نيل يديها وهى تبتسم فى اشفاق واستهجان قائلة : « يا للفضيحة !.. أى قوم هـؤلاء الذين دعوتهم الى دارى ! »

على ان بيت نيل لم يكن مفتوحا لمجرد عرض بذخها ، بل انها ظلت تدعو اليه معارضي الملك ، لتتيح له ان يقابلهم عند انصرافهم ـ وهو يتظاهر بأنه يتمشى فى متنزه سانت‌جيمس ـ فيتحدث اليهم فى تحرر ، بعيدا عن تقاليد البرلمان وقيوده ، وعن مزاحمات السياسيين فى « هوايتهول » . على ان هذه التدبيرات لم تشغل نيل عن منافستيها فى البلاط . فلما رأت دوقة بورتسماوث ترتدى ثياب الحداد كاملة ، لوفاة أمير روهان الفرنسى ، ظهرت فى اليوم التالى فى حداد أكمل ، حتى اذا سئلت عما أصابها ، قالت فى دهشة : « ألم تسمعوا عن مصابى بفقد أمير التتر ؟ » ، فلما سئلت عن علاقتها به هتفت: « انها نفس علاقة أمير روهان بمدموازيل دى كيروال ! » .. وعندما أنعم الملك بلقب دوق ريتشموند على ابن دوقة بورتسماوث ، فى سنة ١٦٧٥ ، أطلق زهو الدوقة باللقب لسان نيل اللاذع ، فصاحت : « ان هذه الدوقة تدعى انها امرأة ذات حسب ، وتزعم ان كل فرد فى فرنسا قريب لها ، فما ان يموت واحد من علية القوم ، حتى تبادر الى ارتداء ثياب الحداد .. فاذا كان هذا حسبها ونسبها ، فلماذا تقوم بدور العاهرة ؟.. خليق بها ان تموت عارا !.. أما أنا ، فهذه مهنتى ، ولست أزعم اننى أوتيت أية مكانة أخرى . ان الملك ينفق على فى الوقت الحاضر ، ومن ثم فأنا وفية له . ولقد أنجب منى ابنا ، وأعتقد ان عليه ان يعترف به .. بل أعتقد انه سيعترف به ، لانه يحبنى مثلما يحب بورتسماوث هذه ! »

ولعله كان يحبها أكثر مما كان يحب دوقة بورتسماوث ، لانه كان يثق فيها ويطمئن اليها ، ومن ثم لم يعبأ بتلميحها عن « الوفاء له فى الوقت الحاضر » ، لانه كان فى تلك الاثناء قد تورط فى ضائقة مالية جديدة ، وكانت دوقة بورتسماوث هى الرباط الذى يربطه سرا بملك فرنسا الواسع الثراء ، الذى

كان لايزال يطمع فى ان يشترى ذمة انجلترا ويعيدها الى المذهب الكاثوليكى . فضلا عن ان البرلمان عاد يعاند الملك . وشد وزير المالية قبضته على البلاط ، فأخذ يقتر عليه . وعندما رأت كليفلند ان المال قد نضب ، رحلت الى فرنسا وراء عشيق ، وانصرفت بورتسماوث الى انتقاء ما تستأثر به من مخلفاتها .. وأصبح كل انسان فى شغل شاغل بما يهمه، فيما عدا نيل .. المرأة الوحيدة التى أولت الملك حبا صادقا.. والملكة التى كان يهملها زوجها !.. وكان من الخليق بالملكة ان تقدر نيل ، ولكنها لم تكن تملك ما تخلعه عليها سوى لقب « السيدة رئيسة ديوان الملكة الخاص» !.. **وكان هذا التقدير سببا فى ان أوشك عداء نيل لغريمتها الفرنسية ان يخمد ، وتأهبت لان تضع سلاحها ، لولا ان دخلت الميدان غريمة جديدة ، أقبلت غير مدركة انها مقبلة على معركة . فقد وفدت على لندن فى شهر ديسمبر ثلة من الفرسان ، يتقدمها فارس نحيل القوام ، ما ان بلغ غايته ، حتى قفز الى الارض رافعا عنه عباءته ، وخلع قبعته المزدانة بالريش ، فاذا به امرأة !.. وكانت هذه المرأة أجمل بنات أخ الكاردينال مازاران : هورتينس مانشينى ، دوقة مازاران !**

كانت هورتينس قد تزوجت رجلا ذا أهواء كفيلة بأن تصمه بالجنون ، فتركته وانغمست فى حياة المغامرات العنيفة . وقد أقبلت فى ثياب الرجال ، خلال ميدان القتال فى غرب أوربا ، لترى ما صار اليه الشاب الذى كان يوما يعيش فى فرنسا منفيا ، والذى رفضته فى صباها حين تقدم لخطبتها.. جيمس ستيوارت ، ملك انجلترا !.. وكانت اذ ذاك فى الثلاثين من عمرها ، ولكنها أوتيت جمالا ايطاليا نادرا ، لم تنل منه الايام .. كما كان حظها من الثقافة والتربية جد رفيع ، حتى لتبدو ثقافة دوقة بورتسماوث الى جوارها كما تبدو ثقافة

الخادم بجانب ثقافة سيدتها !

وكان الملك قد أعجب فى صباه بحيائها ، فاذا به فى نضجه يعجب أكثر بجرأتها • وأدركت دوقة بورتسماوث عجز حيلتها ازاء الجمــال الرومانى الرائع ، ففرت باكيــه الى عزله فى (تونبريدج ويلز) ، دون ان يحس الملك بغيابها !•• أما نيل، فقد أعجبت بالسيدة النبيلة ، والدور المسترجـل الذى كانت تؤديه ، بل انها صفقت لها حين رأتها تهزم دوقة بورتسماوث، وتحولت ترتدى الثياب الســوداء ، وتقيم مأتمــا •• لآمال بورتسماوث !•• غير ان الجمــال الايطالى لم يلبث ان سئم اللعبة •• فقد كانت صاحبته من الغرور بحيث لا يهفو اعجاب ملك بعقلها ، وكانت من الذكاء بحيث لا يروق لها دور «عشيقة الملك » !•• ومن ثم انسحبت من البلاط لتقيم فى دار خاصة بها ، تستقبل فيها الشعراء والفلاسفة والعلمـاء الذين كانت تستطيب مجالسهم !•• وللمرة الاولى ، خلا الميدان لنيل فى قصر الملك ، وحانت فرصتها ، فلم تشأ ان تفسد الزيارةالاولى التى قام بها الملك لمخدعهــا ، بل تريثت حتى حانت الزيارة الثانية ، فتعمدت ان تستدعى ابنها الأكبر فى حضرة الملك ، وهي تقول متظاهرة بأنها تلقى الكلام عفوا : « تعــال يا ابن الزنى ! » •• فما كان من الملك الا أن صاح فيها : « نيل !•• ألا تستطيعين ان تهذبى ألفاظك ؟ » •• ولكنها هزت كتفيهـا قائلة : « لست أجد له وصفا أفضل مما ناديته به ! » •• واذ ذاك ضحك الملك ، فأدركت انها فازت أخيرا بما كانت تصبو اليه • واذ حان عيد الميلاد ، تلقت مرسوم تنصيب ابنهــا تشارلس دوقا لبيرفورد مع منحة قدرها ١٠٠٠ جنيه سنويا ، كهدية العيد !•• وهكذا أصبحت « نيل بائعة البرتقال » أم نبيل من السادة ، فى حين أنها كانت لا تزال مجرد « مسز نيل » !

* * *

• **وحملتها** زياراتها فى العيد الى دار دوقة مازاران ، حيث وجدت سفيرا فرنسيا كان مرحه يطغى على كرامة منصبه ، كما وجدت غريمتها دوقة بورتسماوث ، التى لم تطق العزلة فى (تونبريدج) بعد ان بلغت الاربعين من عمرها ، فعادت الى البلاط . وعندما رأت دوقة بورتسمارث غريمتها نيل ، بادرت الى مغادرة الغرفة فى ترفع مقصود ، فما كان من نيل الا ان التفتت الى السفير الفرنسى قائلة : « لماذا لايبعث لى ملك فرنسا بهداياه بدلا من ان يبعث بها الى الصفصافة الحزينة ؟ .. ان تشارلس يحبنى أكثر مما يحبها .. حتى انه يضاجعنى كل ليلة تقريبا ! »

وبهت الجميع — حتى الايطالية الشابة المسترجلة — لهذا الافصاح الجرىء عن أدق اسرار الملك الخاصة ، وبادرت دوقة مازاران الى تغيير مجرى الحديث على الفور !

وما ان انتهت الحرب بين فرنسا وهولندا فى سنة ١٦٧٨ ، حتى دب فى انجلترا الذعر من استفحال نفوذ الكاثوليك ، وشرع دوق شافتسبيرى فى المطالبة جهرا باعتراف الملك بالدوق البروتستانتى — مونماوث — ابنا ووريثا شرعيا له . بيد ان الملك أصر على موقفه من عدم الاعتراف به ، فأخذت المدينة تمتلئ بأنصار شافتسبيرى من الشباب . **وادركت نيل الخطر الذى كان الدوق الشاب — مونماوث — ذو العقل القاصر منساقا اليه دون أن يدرى ، فحاولت ان تنبهه ، ولكنه أبى — وقد استثارت المغامرة عقله الصبيانى — ان يفطن الى أنه كان مجرد أداة فى يد شافتسبيرى . وراحت لندن تموج بالشائعات التى كانت تزعم ان الكاثوليكية — ممثلة فى البابا وملك فرنسا — كانت تتآمر على اغتيال الملك !..** وأخذت هذه الشائعات تنتشر وتتشعب ،

حتى أذكت نيران الذعر في لندن. ولم تكن نيل من اتباع البابا، ولكنها كانت بروتستانتية ومن أصدقاء مونماوث . لذلك راحت مكانتها ترقى ، فى الوقت الذى كان مثيرو الفتن يشوهون فيه سمعة الملكه ويتهمونها بالتآمر مع البابا وملك فرنسا على اغتيال الملك . ولو لم تكن نيل صادقة فى حبها للملك ، لسهل اذ ذاك اغراؤها على ان تتحول عن عاهل بدا انه مسوق الى الدمار ، لاسيما وان ضعف مونماوث وقصور عقله كانا يتيحان الامل فى السيطرة على قياده !.. وكان فى وسع نيل بالذات ان تتخذه عجينه ميسورة التشكيل بين يديها !.. ولكنها بقيت على ولائها لما كان يبدو انه الجانب الخاسر فى المعركة. وساهمت فى اللهو الصاخب والعبث العنيف اللذين كان الملك يجد فيهما علاجا لاعصابه المرهقة وعقله المكدود . **بيد ان الارهاق لم يلبث أن أسلمه الى مرض اشتد حتى قنط الاطباء من مغالبته ، فاستدعى دوق يورك . والواقع ان هذا القلق كان قائما على غير أساس ، اذ مالبث عقار الجزويت الجديد ـ الكينا ـ ان مكن الملك من الشفاء ، ولكن .. ليس قبل ان يشب الشغب والتمرد ازاء احتمال تولى دوق يورك العرش . وأدرك الملك ان أخاه فى خطر ، وان ابنه ـ مونماوث ـ معرض هو الآخر لان يتهم بالخيانة العظمى ، فعمل على نقلهما الى خارج البلاد**

ولكن شافتسبيرى أعاد مونماوث الى انجلترا ثانية ، حيث نادى به وريثا شرعيا للعرش . فبادر الملك الى تجريد الشاب من ألقابه ومركزه وأمره بمغادرة البلاد . وذعر مونماوث الذى لم يكن له قبل بغضب أبيه وسخطه ، فلاذ بنيل التى كانت تدرك ان الملك لايمكن ان يحول قلبه عن اول أبنائه وأعزهم عليه ، فأوته فى دارها ، ريثما توفق الى استدراج الملك الى ما كانت تعرف انه يصبو اليه .. الى الصفح ! ولكن الملك كان شديد الحنق ، فلم يلن قلبه .. بل انه أبى فى البداية ان

ينصت لها .. على انها واصلت الكفاح من اجل ابن الملك الذى انجبه من امرأة غيرها ، حتى قدر لها فى النهاية ان تنتصر ، وان تعيد للشاب رضاء ابيه !

وكأنما اراد القدر ان يكافئها على كفاحها بعكس ما كانت تستحق ، فاذا الموت يختطف منها - فى العام ذاته - أحب ابنائها اليها .. جيمس ، الذى كان قد بلغ العاشرة من عمره ! .. ثم فوجئت بمونماوث ينقلب ثانية ، ويثير من الشائعات ما أهاج الخواطر من جديد ضد دوق يورك والبابوية . وتبعه شافتسبيرى فقدم الى البرلمان مشروع قانون بحرمان دوق يورك من وراثة العرش ، وراح يهدد باقامة الحكم الجمهورى . ولكن هذه الخطوة المتهورة اوحت الى الشعب بأنه يوشك ان يهدد الدستور ذاته ، فيزعزع أعز مايتشبث به . لذلك ارتفعت الصيحات فى الجو تنادى بالاستقرار . وكان الملك هو الشخص الوحيد الذى ظل هادئا ثابتا وسط هذه الانواء !.. وفى براعة وأناة ، أخذ ينتظر الوقت المناسب ، فلما حان ، ضرب ضربته ، وأجل انعقاد البرلمان !

* * *

◆ وفى أوائل العام التالى - ١٦٨١ - دعا الملك البرلمان الى الانعقاد فى (اكسفورد) ، بعيدا عن لندن المحمومة . وبينما كان اهل اكسفورد الموالون للملك يهتفون له، اطلق شافتسبيرى شبانه فتدفقوا منادين : « لابابوية ولا عبودية ! » .. وبلغ الصخب من الشدة بحيث بدا وكأن الثورة قد انطلقت من عقالها ! .. ولكن الغوغاء لم يجسروا على التعرض للملك ذاته ، وانما أحاطوا بعربة كانت فى نهاية ركبه - حين تأهب للعودة الى لندن - وكانوا يخالون انها تضم دوقة بورتسماوث الكاثوليكية .

فلما هموا بأن يقلبوها، فوجئوا برأس انثوى صغير يطل من النافذة، ويصيح بهم فى لهجة رعاع لندن : « أرجو ان تهدأوا ايها الرجال الطيبون ٠٠ انني مومس بروتستانتية ! » ٠٠ ووجم القوم ، ثم استحال صخبهم الى ضحك !

وعاد شافتسبيرى يطالب الملك - فى الدورة الجديدة للبرلمان - بأن يقصى دوق يورك ويضع مونماوث بدلا منه فى ترتيب وراثة العرش ، ولكن الملك أصر على ان لايخرق التسلسل الشرعى للوراثة ، ثم ترك المتمردين أسبوعا فيما كانوا يدبرونه ، بينما انصرف الى لهوه مع نيل ٠ وعلى حين غرة ، أمر بحل البرلمان ٠٠ وكان هذا هو الاجراء الوحيد الذى لم يتوقع خصومه ان يجرؤ على الاقدام عليه ، فلما ووجهوا به ، بدا كالريح العاتية اذا ماهبت على الشجر فأسقطت أوراقه ٠٠ اذ تبددت كل آمالهم ٠٠ وبدلا من ان تخيم على الدولة غيوم الثورة ، جاء القرار فى وقت كان توتر الاعصاب فيه قد أرهق النفوس ، فاذا بها تبدو كحبل شد حتى أوشك ان ينقطع ، ثم أرخى فجأة ٠٠ ومن ثم تنفست البلاد الصعداء واستتب الامر للملك مرة أخرى ، وقامت الامة تستقبله فى حماس بالغ !

وزفرت « نيل » هى الاخرى فى ارتياح ٠٠ فقد كانت من الصراحة والامانة بحيث لاتستطيب المناورات السياسية ٠ بل ان مساعدتها لمونماوث لم تنبعث الا عن رثاء لسوء حظه ، وعن حب صادق للملك ٠٠ كانت هناءة الملك هى كل ماتبتغيه ، ومن ثم فان ارتياحها كان بالغا حين رأت هذه الهناءة تزداد يوما بعد يوم بازدياد تجمع الصفوف وعودة الامة الى الالتفاف حول العرش ٠ وحمد الملك لدوقة بورتسماوث - أو « مومس السياسة » كما أطلق عليها ! - اتجاهها الى الملك المرتقب « دوق يورك » ، لتحجز مكانا فى قلبه مقدما ، بينما خلا هو الى نيل !

على ان القدر كان لايزال يدخر لتشارلس أقسى ضربة أدمت

فؤاده . ففى سنة ١٦٨٣ انذره دوق يورك بأن خطر المتطرفين من رجال حزب الاحرار قد يمتد الى حياته . فضحك الملك ساخرا ، ولكنه تذكر هذا الانذار حين تعرضت عربته - فى منتصف العام - لكمين أعد لاغتياله . ومع ان المؤامرة خابت ، الا انها خلفت فى قلبه جرحا غائرا أليما . فقد كان من بين الاربعين الذين تآمروا على حياة الملك ، ابن الملك ذاته : مونماوث !.. وعلى الرغم من غضب تشارلس وأساه المرير ، فان حبه لابنه ظل دائما عارماً ، ومن ثم تركه يفر الى الساحل ليستقل سفينة الى هولندا !

ولم يعد تشارلس يجد فى نيل مجرد رفيقة فى المتعة ، بل غدت أيضا زميلة فى الحزن .. أفلم يفقد كل منهما أحب أبنائه ؟.. وازداد اقباله على قضاء اوقات فراغه معها ، فحرصت على ان تجمع حولها نخبة من أكثر الناس فكاهة وحكمة ، لبعث السرور الى فؤاده !.. **وفى تلك الأثناء ، كان الوئام يسود البلاد ، والرخاء فى اطراد . ولكن الملك كان قلقا ، لايستقر له قرار .. كان أتفه الاشياء يثير ذكرى مونماوث فى نفسه .. وكانت نيل دائما الى جانبه تشاطره حزنه وحسرته ، وتخفف عنه السأم ، وتبدد باشراق ولائها ماخلفه الغدر من ظلال فى سماء حياته !.. وعندما خفت لوعته ، فطن الى أن لاكبر أبناء نيل حقا لديه ، ومن ثم جعله « دوق سانت ألبانز » . وأسعده ان يشهد افتخار نيل بابنها ، فراودته الرغبة فى ان يتيح لها ان تفتخر بنفسها ، ومن ثم قرر ان يرفعها الى طبقة النبلاء ، ويجعلها « كونتة جرينويتش » !**

* * *

. في مساء أول أيام فبراير من سنة ١٦٨٥ ، بدا الملك

متفتح الشهية للاكل - أثناء العشاء - وراح يتحدث فى اغتباط مع أفراد حاشيته ، ثم تحول بعد العشاء يستمع الى بعض الاغانى الغرامية من فتى فرنسى ، ويتحدث الى نيل وهو يرقب افراد الحاشية يجازفون بجنيهاتهم الذهبيه فى لعب الورق . فلما اكتهل الليل ، انسحبت عائدة الى دارها لتحلم بالرتبة الرفيعة التى كانت ترتقبها فى اليوم التالى .. يوم عيد ميلادها الخامس والثلاثين . فقد كان الملك يدخر الانعام عليها برتبة « الكونتة » ليقدمه هدية فى هذه المناسبة . ولكن الملك وقع مغشيا عليه بين يدى وصيفه ، وهو يحلق ذقنه فى الصباح التالى !.. واحتمل - بجلد - الجهود التى كان يبذلها الاطباء فى الايام الستة التالية لعلاجه ، بينما أحاط أخوه وزوجته وأبناؤه بفراشه . وكان على نيل ان تنتظر مع غيرها من أفراد الحاشية فى الحجرة الخارجية دون آن يباح لها ان تراه .. اذ كان لابد للبروتوكول من ان يتبع ، ولو كان الملك يحتضر !.. وراحت تنتظر يوما بعد يوم ، بقلب واجف ، والشائعات تترى .. وكانت لاتزال تنتظر متجلدة ، حين اشتد الغموض والتوجس فى الهزيع الاخير من ليل اليوم الخامس ..

وفى الهدوء الذى ران على الحجرة ، أخذ الملك يوصى أخاه بمن كانوا فى رعايته : زوجته الملكة الباكية ، وأولاده . ثم أردف قائلا : « ولا تدع نيل المسكينة تموت جوعا ! » .. واذ دقت الساعة مؤذنة بالسادسة صباحا - من الصباح السادس - قال : « أزيحوا الستائر ، ودعونى أرى النهار مرة أخرى ! »

* * *

◆ **ومات** الملك ، ولكن نيل ظلت على قيد الحياة تفتقده ! فقد كان لسبع عشرة سنة المتفرج الوحيد الذى كان يرتاد

حياتها ، والمصدر الوحيد لمعاشها ، والبطل الوحيد في مسرحية عمرها !٠٠ وكم كانت لوعتها عاتية وهى تقـول : « لقد كان صديقى ، فكان يسمح لى بأن أفضى اليه بكل همومى، ويرشدنى - كصديق - الى ان أفرق بين اصدقائى ٠٠ وغير الاصدقاء ! »

وهبطت الستار فى دار الملك ، وارتفعت فى دار الدوق ٠ ولم يكن لدى الملك الجديد دور يعهد به الى نيل ٠ ٠ فلم تعـد « عشيقة الملك » ، ولم يعد لها معاش ملكى ٠٠ وكان مكانها فى المسرح قدشغل ، وتكاثر عليها الدائنون !٠٠ **وفى غمرة القنوط، كتبت المسكينة الى الملك الجديد - جيمس الثانى - تناشـده العون قائلة : « لو اننى عانيت فى سبيل الله ماعانيت فى سبيل أخيك وسبيلك، لما كانت بى حاجة الآن الى كرمك أوانصافك! »**

ولم يدر جيمس كيف عانت فى سبيله هـو ، اللهـم الا اذا كانت قـد قصدت بذلك دورها فى مقاومـة ايلولة العرش الى مونماوث ٠ وكان من حقه ان يثأر لكرامته ممن اسمته « جيمى الكئيب » ذات يوم ، ولكن جيمس الثـانى لم يشـأ ان يهبط بنفسه الى مستوى الثأر لجيمس دوق يورك ، ومن ثم قرر لهـا معاشا قدره ١٥٠٠ جنيه فى العام ، وكانت لاتزال فى الخامسة والثلاثين ، متألقة الجمال ، متقدة الذكاء ، محتفظة بروحهـا الساخرة الفكهة ، ومع ذلك كانت تصيح - اذا تقدم أحد يطلب يدها : « لن أدع الكلب يرقد حيث رقد الغزال ! »

وبقدر ولائهـا فى الحب ، كان عرفانهـا بالجميل ٠ فعندما أقبـل دوق مونماوث - فى يونيو سنة ١٦٨٥ - مـع ثلة من المغامرين ليطالب بالعرش ، لم يكن صوتها بين الاصوات التى هتفت له ٠٠ وعندما دفع رأسه ثمن مغامرته ، حزنت عليه فى صمت !

وفى صمت - أيضا - كانت تطوى احزانهـا فى صـدرها ،

لتبدو أمام الناس مشرقة الوجه ، ولتواصل «قفشاتها» اللاذعة. على انها لم تعد تجد فى الحياة مايغريها على ان تتشبث بها .. لم يعد العاهل ذو العينين الحزينتين على قيد الوجود ليضحك لفكاهاتها .. وكان أصدقاؤها قد تشتتوا ، ومنهم من مات .. وكانت غريمتاها قد هبطتا الى الدرك الاسفل ..وراحت الحياة تنساب بسرعة ، حتى لم يعد فى طوقها ان تسير فى ركبها . وفى مارس سنة ١٦٨٧ أقعدها شلل أصاب قدميها اللتين كانتا دائما « أصغر قدمين فى انجلترا » . وفى نوفمبر من ذلك العام، استراح القلب الذى ولد فى الوحل ثم اثبت انه انبل واسمى من القلوب التى ولدت بين الحرير والديباج !.. قلب العاهرة التى أثبتت انها اوفى من سيدات طبقة الاشراف..قلب عشيقة الملك التى أحبتها - دون سواها - الملكة .. زوجة الملك !

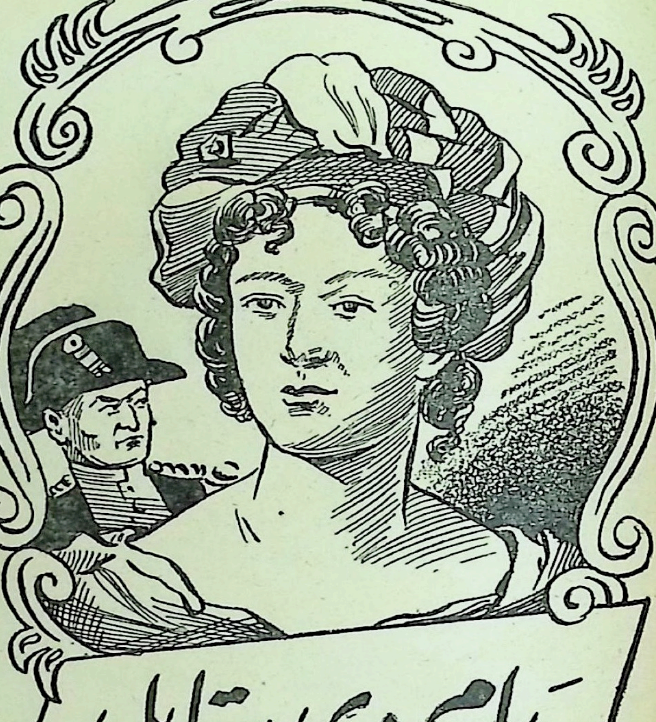

(ولدت سنة ١٧٦٦ وماتت سنة ١٨١٧)

من الصواب ان تنأى النساء عن الشئون السياسية والمدنية ، فليس ثمة ما هو اكثر تعارضا مع مهمتهن من تلك الشئون التى تزج بهن فى مجال مزاحمة الرجال . بل ان المجد ذاته لا يلبث ان يغدو – بالنسبة للمرأة – رثاء رائعا للسعادة !

مدام دى ستايل

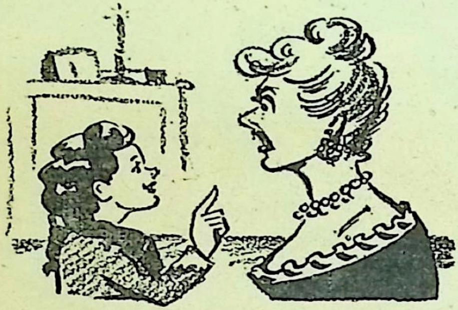

بطلة تبحث عن بطل !

ان الحب هو حقيقـة دنيا الاخلاق .. وهو لهبها وروحها واساسها .. فليس للسماء ذاتها ان تستنكره !

مدام دى ستايل

• **عندما** بلغت « جيرمين نيكر » ـ التى قدر لهـا فيما بعد أن تصبح مدام ستايل ـ الشهر الثاني من عمرها ، قال أبواها المشغوفان بها انها كانت تبدو متلهفة ، تتعجـل الاوان الذى تستطيع فيه أن تتكلم !.. فلما بلغت الشهر الثـامن عشر ، بدأت مظاهر ذكائهـا تثير اهتمـام والديهـا ! وفى سن الخامسة ، سألت دوقة تقية مسنة ـ ممن كن يترددن علـى أمهـا : « ما رأيك فى الحب ياسيدتى ؟ » .. وكان ذهنهـا ناضجا عندما بلغت الثامنة ، فكتبت مسرحية قال أحد كبار الادباء والنقاد من أصدقاء أبويها انها بديعة الصيـاغة ، وان شخصياتها حسنة التوزيع والتحديد ، وان تدرج الحـوادث نحو عقدة القصة طبيعى ومشوق !.. وبين تشـجيع الابوين

الشديدى الاعجاب بابنتهما ، وتصفيق السادة المسنين الذين كانوا يجدونَ متعة فى « استثارة الخيال اللامع » لدى الصغيرة، تفتحت نابغة القرن الثامن عشر الادبية ، قبل الاوان !٠٠على ان التربية الحديثة التى تلقتها ـ التى تطابق تعاليم جان جاك روسو ـ اجتاحت القيود والسدود العتيقة ، التى كانت تقيم شيئا من الاتزان فى النفوس ٠ **لذلك لم يكن من الغريب ان تؤدى هذه التربية الى ظهور امارات الاضطراب والقلق التهوسى لدى الفتاة الصغيرة، فكانت لاتنفك تتحدث عن رهبة الموت ،وتبكى دون ما داع ، وتتقلب على وهج انفعالاتها المشبوبة !**

وكان أبوها ـ« جاك نيكر »ـ سويسريا ، يدير فرع المصرف الدولى الكبير « تيلوسون ونيكر » في باريس ٠ وكان قصير القامة ، مكرشا ، أوتى براعة عظيمة فى تجميع الشخصيات اللامعة حوله ، مما أدى الى تعيينه مديرا عاما للمالية فى فرنسا ـ فى سنة ١٧٧٧ ـ فصار بذلك صاحب النفوذ المالى الاكبر فى البلاد ٠٠ وآن كان يؤثر أن يعتبر نفسه عبقريا سياسيا ، وليس ماليا !

أما أمها ـ « سوزان كيرشو » ـ فكانت ابنة قس سويسرى من أتباع « كلفن » ٠٠ وقد أوفدها أبوها لتكون مرافقة لسيدة باريسية كبيرة ، أملا فى ان تدخر مايكفى لصداقها (دوطتها) ، فاذا بها تتجاوز فى نجاحها ما كان أبوها يرجوه ، فتنتزع من مخدومتها خطيبها المليونير « جاك نيكر » !٠٠ واستطاع الزوجان الموهوبان ان ينجبا « جيرمين » فى سنة ١٧٦٦ ، فاذا الاسرة « ثلاثى » عجيب ، مترابط ، يعجب كل عضو من أعضائه بالعضوين الآخرين ، فى الوقت الذى يختال فيه أمامهما معجبا بنفسه !٠٠ ولكنه كان كشكل مثلث ، اذا تقارب ضلعان منه واستطالا ، صغر الضلع الثالث وتضاءل ٠٠ ومن ثم أخذت الأم تتضاءل بتقارب الأب والابنة وتقدم سنهما ٠٠

ولعل أبدع مثال لهذا الاعجاب الثلاثي المتبادل ، ان الابنـة ، عندما تولت كتابة الرثاء الذى ينقش على قبر أمها ـ بعد وفاتها ـ لم تجد ماتكتبه خيرا من : « لقـد كانت تبحث عن الكائن الفذ فوجدته وقضت عمرها معه ، ورحمهـا الله من ان يموت قبلها ! »

★ ★ ★

◆ **هكذا** كان تقـارب الابنة والأب ، حتى أصبحت جيرمين لا ترى فى الوجود من يضارع « جاك نيكر » · وكانت تصيح فى قنوط : « كان من الخليق بمصيرينا ان يتحدا الى الابد ، لو أن الله خلقنـــا متقاربين فى السن » !!·· عـلى ان طباع « جيرمين » لم تكن من النوع الذى يجعلها تخضـــع الى الابد لمثل هذه العاطفة المشبوبة والاعجاب العذرى اللذين كانت تدين بهما لابيها ، لا سيما بعد ان درست آراء « جان جاك روسو » وعرفت ان ليس للنساء ان يعشن خارج نطاق الحب ، بل ان سير حياتهن يجب أن تبدأ بالحب وتنتهى به · ومن ثم راحت تبحث عن بطل تؤلف معه سيرتها !

ورشحت لها أمها ـ قبل موتها ـ نابغة انجلترا فى الحكم والسياسـة « وليم بت » ، ولـكن جيرمين كانت ترى ان من الجنون أن يؤثر المرء وطنا آخر على فرنسا · على ان أى نبيل فرنسى ما كان ليقبل على ان يتخذ زوجة بروتستانتية ـ مثل ابنة نيكر ـ وهو كاثوليكى !·· وهنا ، بسط أبوها يده فى سخاء ، حتى استطاع أن يشترى لها زوجا · وكان هذا الزوج « اريك مانجس » بارون دى ستايل ، سفير السويد لدى بلاط فرنسا ، الذى جمع بين عراقة الاصل وضآلة الثروة ، والذى أوتى من المـكانة مايتيح لجيرمين ان تنفـذ الى أضواء البـلاط الفرنسى !

وكانت الفتاة اذ ذاك فى العشرين من عمرها ، وقداستكملت أنوثتها ، والتف عودها ، وارتفع صدرها . وكانت ذات وجه عريض الفكين ، وشعر اســود غزير ولكنه خشن . وقد تضاربت الآراء فى وصفها اذ ذاك ، فمن معارفها من رأى انها تبدو كالوصيفات ، ومنهم من رأى أنها أوتيت شـيئا يفوق الجمال ، وهناك من أكد انها كانت ذات بهاء عادى !.. **أما الكاتب الألمــانى « جيته » ، فقد قال عنها : « انهـا لا تدرك الواجب ، بل ان مطمعها الاكبر هو ان تبسط سلطانها على رجال السياسة وان تفرض عليهم آراءها ! »** .. وقال عنهـا بعض ذوى الرأى فى ذلك الحين انها « طيبة القلب .. ولكنها امرأة خطرة ! » .. كما قيل عنها انها « لو عرفت كيف تحكم نفسها لاستطاعت ان تحكم العالم ! » .. وقال عنها السياسى الفرنسى « بارا » : « ما استطعت قط ان أعرف الى أى الجنسين كانت تنتمى ! » .. **أما نابليون ، فكان رأيه : « انها تحارب بيد ، وتتوسل بالاخرى ! » .. ولعل الامبراطور الفرنسى كان على حق ، اذ كانت تحمل فى احدى يديها طموحا أدبيا عسير التحقيق ، بينما كانت تحمل فى اليد الاخرى عاطفة مشبوبة .. وكانت تحتفظ بالاثنين فى توازن عجيب !**

هكذا كانت ابنة المالى السويسرى التى تزوجت من السفير السويدى فى سنة ١٧٨٦ ، فعاشت سعيدة معه زهاء ستة أشهر ، ظهرت خلالها فى البلاط الفرنسى ، فما لبثت آراؤها المتطرفة أن أقلقت الاسرة المالكة ، فى حين ان ذكاءها الصارخ لم يرق لاحد فى البلاط .. واذا بالجميع يقيمون من أنفسهم قيودا تحد من تمرد روحها على تقاليد البلاط المنيعة !.. ومن ثم عافت نفسها البلاط الملكى ، وعادت الى السـفارة حيث حولت قاعة الاستقبال فيها الى « صالون » أو ندوة فاقت فى جوها قصر فرساى على بذخه !.. وعلى هذه الندوة ، ترددت

طلائع المبشرين بالاحــداث التى كانت مقبلة ، وأهـــل الفكر والفلاسفة وأصحاب المبادىء والآراء · وفى هذه الندوة أيضا تبين الجميع كيف ان من السهل أن تنفجر الثورة ، ولكن من العسير ان تكبح جماحها · ووجد « نيكر » المجال الذى يبشر فيه بفكرة الملكية المقيدة · وما لبث ايريك مانجس ان تلقى من مليكه « جوستاف الثالث » مذكرة يلفت فيها نظره الى أنه قد أحال سفارة السويد الى ندوة سياسية ، ولكن جيرمين لم تعبأ باللوم الملكى ، اذ كانت ترى نفسها وحرية القول فوق التقاليد الديبلوماسيه ! ·· **ودب الخلاف بين الزوجين ، اذ أن السفير السويدى لم يطمع فى ان يتزوج « بطلة » ، وانما كان كل مناه ان يحظى بزوجة يعيش معها فى دعة ، ولا يشاركهما حياتهما ساسة ولا فلاسفة !**

وفى سنة ١٧٨٧ ، رزقت جيرمين بطفلة لم يقدر لها ان تعيش طويلا ·· ونهضت الأم من فراش الوضع وقد عقدت العزم على ان لا تكرر هذه « الغلطة » مرة أخرى ·· مع ايريك مانجس على الاقل !·· وبدلا من انجاب الاطفال ، تحولت الى قلمها ، فألفت عددا من الروايات التى وصفت بأنها «على نمط روسو» ، والتى أسمتها « صورة لنفس المؤلفة » ·· وقد كتبت فى روايه « جين جراى » تقول : « آن السعادة المثالية هى الزواج من بطل معبود ، والحظوة بمباهج عقل متفوق رفيع ، والطموح الى مستقبل قد يكون لامعا وقد يكون نكبة ··ولكنه دائما مجيد !»

★ ★ ★

◊ ولم يكن ايريك مانجس خليقا بأن يحقق لهـا مستقبلا مجيدا كالذى تفكر فيه ، ومن ثم آلت على نفسها ان تعمـــل وحدها لنيل هذا المجد ، فوضعت فى سنة ١٧٨٨ أول مؤلفاتها السياسية : « رسائل عن مؤلفات جان جاك روسو » ·وقوبل

الكتاب بتوفيق كبير ، جعلهـا تتذوق طعم المجد فى بدايته . ولكن متع الفكر لم تستطع ان تغنيها عن متع القلب . وراحت تناقش فى نفسها المبادىء الخلقية للحب وللزواج ، فعاشت فى صراع لم تصل فيه الى نهاية . عـلى أنها ما لبثت ، فى العامين السابقين على الثورة الفرنسية ، ان اندمجت فى ثورة أخرى خاصة بها ، فخلعت سلطان الوفاء الزوجى عن عرشه ، ونصبت التحرر فى مكانه .. « ذلك الانطلاق السامى الذى يستطيع فى حد ذاته ان يتضمن كل الفضائل التى ذكرهـا الدين والاخلاق » !.. **وتقلبت خلال هذين العامين فى أحضان ثلاثة عشـــاق ، هم : كونت ناربون ، وأمير تاليران ، ودوق مونمورنسى .. وأصبحت تنادى بأن من واجب ذوى العقـول الراقية ان يدافعوا عن « الحب » ، بوصفه « تاج الحياة » !**

وكان « ناربون » هو أول من حظى بـ« تاج الحياة » منها.. وما كان هناك من يفوقه جدارة به ، اذ كان ثمرة حب بـين لويس الخامس عشر واحدى عشيقاته ، فورث عن الملك الراحل جماله الاسمر ، وسـحره الذى لا يقاوم ، ولطفه العـذب . وأثمرت العلاقة بين جيرمين والكونت - فى العام التالى - طفلا كان شديد الشبه بالعشيق ، وان نسب الى الزوج !

وفى ذلك العام - ١٧٨٩ - اطلعت على كتيب سياسى بقلم « شارل موريس ، أمير تاليران بيريجور » ، فابتسمت لتاليران اعجابا ، وابتسم لها تقديرا ، وكان ذا ذكاء سياسى واسـع النطاق ، وذا فتنة تأسر القلوب . ولم يكن يستهويه اقتناء المال ، وانما كان انفاق المال فى بذخ ارستقراطى هـو الذى يستهويه . ومن ثم لم يكن يسعى الى السـلطان عن طريق المال ، وانما كان سعيه الى المال عن طريق السلطان . وكان ملكيا فى عقيدته ، ولكنه لم يعتد أن يمكث فى بيت شب فيه حريق ، وقد هدته حساسيته الى أن النار قد شبت فى فرساى ،

ورأى ان سفارة الســـويد تصلح قاعدة له ، ريثمـــا ينجلى الموقف !

وظفرت فيه جيرمين بالعناصر العاطفية والفكرية التى كانت تنشدها فى بطلها المثالى ، ولكنها افتقدت فيه عنصرا مكملا .. « النابغة الذى يسير فى الحياة كرجل أعمى .. فهو كالطفـل ينشد من يقوده ، وكالخطيب ينشد من يستمع اليـــه ! » .

وسرعان ما وجدت بغيتها فى دوق « مونمورنسى » .. ابن مدام لافال التى كانت عشيقة ناربون قبلها ! .. وكان فتى مرفها ، حزينا ـ اذ منى بموت عشيقة له منذ عهد قريب ـ جميلا .. ولم يكن يهفو الى آكثر من صدر يسند اليه رأســه البديع ، ويبثه شكواه ! .. **وهكذا جمعت جيرمين بين عشـــاق ثلاثة ، أوتوا عراقة فى الاصل ، وطراوة ـ تكاد تحسب أنوثة ـ ولكن ناربون كان بلا قلب ، ومونمورنسى كان ذا ضمير ، وتاليران كان كالتمساح !**

وكانت جيرمين ترى ان « الحب يسمو فوق كل القـــوانين والآراء التى من وضع البشر » ! وقد أقدمت على تطبيق مذهبها هذا فى غير خوف ، فظهرت أمام الملأ مع أبطالها الثلاثة ، أو « بطلها » الموزع على ثلاثة أشخاص .. ومع ان هذا « البطل » كان عبئا على مواردها ، الا أن ذلك لم يثنها عن « المضى وراء نوازع النفس » كما أوصى روسو !

وكان أبوها فى تلك الاثناء ماضيا فى سياسته المـــالية ، فكان يعقد القروض باسم الحكومة ، ويقدم هذه القروض من أمواله ، ويوزع الضمانات على حصيلة الضرائب الجـــديدة ، فازدهرت حركة المصارف ، بينما نضبت موارد الملك . ولعل « نيكر » كان يهدف من وراء ذلك الى « تقييد الملكية » والحد من سلطان الملك ـ وهو رأيه القديم ـ ولكن الجمعية الوطنية ما لبثت أن ظهرت على مسرح الحكم فى فرنسا ، فبددت آمال

المالى السياسى ، وأقالته . ولكن عامة الشعب رأوا ان سياسته كانت اتجاها نحو الديموقراطية ، فردوه منتصرا الى منصبه بين هالات التكريم !.. على ان هؤلاء العامة أنفسهم ، لم يلبثوا أن تدفقوا - بعد قليل - على فرساى ، يطالبون ملكا حائرا بالخبز الذى كانت سياسة « نيكر » سببا فى حرمانهم منه.. فآب « نيكر » الى بيته الريفى حانقا على البشر وأفعالهم !

ولكن جيرمين لم تستأ لان أملها فى المجد عن طريق أبيها قد خاب ، فراحت تسعى اليه عن طريق الحب ، مركزة آمالها هذه المرة فى « ناربون » الذى راحت تدفعه الى الحكم .. **وكتبت الملكة مارى انتوانيت فى مذكراتها اذ ذاك : « ان مدام ستايل تعمل جاهدة من أجل السيد ناربون » !.. وظفرت جيرمين ببغيتها فعلا ، اذ عين « ناربون » وزيرا للحربية فى نوفمبر سنة ١٧٩١ .. واستخف هذا النصر « جيرمين » ، فلم تقنع بأن تكون القوة الكامنة خلف ناربون .. ومن ثم كانت السفيرة السويدية ترافق دائما الوزير ، فى خلال تحركاته لتفقد الجيوش والميادين** . وبايعازها ، كتب ناربون الى الجمعية الوطنية - وخطر الحرب مع النمسا يخيم على الحدود - مؤكدا ان كل شىء كان على مايرام على الحدود الشمالية الشرقية !.. وكان فى هذا القضاء على ناربون ، اذ لم تلبث القوات النمسوية البروسية ان اجتازت الحدود فى ابريل سنة ١٧٩٢ ، وأوغلت فى البلاد ، فاذا الجمعية الوطنية تقصى « وزير ستايل » عن منصبه ليبقى عشرين عاما مبعدا عن الحكم

★ ★ ★

◆ **وفى** أغسطس من ذلك العام ، دعا القائد البروسى الفرنسيين الى التسليم حتى لايدمر عاصمتهم ، فاذا الخوف والسخط والخطر تدفع الشعب الى اقتحام قصر (التويلرى)

وذبح حراس الملك ، وسـجن أفراد الاسرة المالكـة · ثم انطلق الساخطون يتصيدون النبلاء ويذبحونهم · واشفقت جيرمين على أصدقائها ، فلما عثرت على ناربون و مونمورنسى ، أوتهمـا فى دار السفارة السويدية · أما تاليران ، فكان قد أحس بالخطر الذى يتهدد نظام الحكم قبـل ذلك بعدة أشـهر ، فسعى حتى اوفد الى لندن فى مهمة خاصة · على ان ذنب ناربون – فى نظر الشعب والثورة – كان عظيما ، بسبب ذلك التقرير الذى أدى الى ضعف تعزيزات الحدود ، ومن ثم كان لابد من رشوة الذين كانت السلطة فى ايديهم · وطلبت جيرمين المال اللازم مناريك مانجس ، فأعطاها ماشاءت وهـو يقول مبتسما : « يسرنى ان طلبت المال من أجل المسـيو ناربون ، فقـد كنت أحـدس انه عشيقك ! » ·· **وان هى الا أيام ، حتى استدعى الى السـويد ليقدم للمليكه حسابا عن مسلك زوجته الشـائن !·· وما لبثت جيرمين ان غادرت باريس بدورها ، بعد ان انقذت بعض النبلاء من مذابح سبتمبر · وكانت حاملا ، فذهبت الى الدار الريفية التى اعتكف فيها ابوها ، حيث وضعت ثانى ابنائها ، ونسبتـه هو الآخر الى « ستايل » ·· أفلم يكن أبوها قد ابتاع لها الاسم بالمال ؟·· وما ان مرت ايام النفاس ، حتى استحثها أبوها على ان تلحق بزوجهـا فى السويد ، ولكنهـا لحقت بناربون فى انجلترا !**

وهناك ، استأجرت دارا بالقرب من (ميكلهام) بمقاطعـة (سورى) ، عاشت فيها مع ناربون وبعض اللاجئين الفرنسيين · ولحق بها تاليران – الذى لم يكن ليقـاوم الحياة الرغـدة التى لاتكلفه شيئا – مصطحبا معه مونمورنسى · وفى ذلك الجـو ، عكفت جيرمين على كتابة مؤلفها عن « السـعادة » ، وعلى قراءة ما كانت تكتب لرفاقها · ولم يعكر صفو القوم سوى ترامى نبأ اعدام ملك فرنسا اليهم ، ومن ثم تحولت جيرمين تدعو رفاقها

الى رسم الخطط لمعاقبة اليعقوبيين الذين اعدموا الملك ٠وعارض مونمورنسى قائلا ان الذنب كان ذنب الملكية الفرنسية ٠ وقال تاليران ان الوقت سيطول قبل ان يتمكنوا من الثأر ٠ وحاول ناربون ان يتغيب وقتا ، تهربا من جيرمين ، ولكنها أبت قائلة : « ان الرجل الذى يحظى بكل هـذا الحب المشبوب لاينبغي ان يحلم بأنه حر ! » ٠٠ فاستسلم وقد شعر انه صيد لاصائد!٠٠ غير ان اباها ما لبث انضاق بالانفاق علىطائفة منالارستقراطيين الكسالى المتعطلين ، فأمسك يده ٠ واضـطرت جيرمين الى ان ترضخ له ، فرحلت الى سويسرا وفى ذيلها حاشيتها ، ما عـدا تاليران الذى امعن فى الابتعـاد عن موطن الخطـر ، فرحل الى أمريكا ، مما أحزن العاشقة المولعة بالخيال !

وفى دارها بسويسرا ، جمعت الحاشية حولها ، وقدانضمت اليها مدام لافال ، عشيقة ناربون السابقـه وأم مونمورنسى ٠ **وهنـاك ، بدأ ناربون يشعر بسأم منها ، اذ كان اعدام أخيـه والملك قد أيقظ ضميره ، فبدأ يتوق الى التكفير عن ذنوبه ، بأن يحاول ان يهدى جيرمين الى التوبة ٠ ولكنها اختارت شـابا من نبلاء السويد ذا جمال مشرق ـ يدعى الكـونت فوق ريبينج ـ لتستثير غيرته !٠٠** وما لبث ان نفذ الى هذه الجماعـة ، رجل شديد الخجل ، يدعى « بنجامان كونستان » ٠٠ ولم يكن فاتنا، اذ كان مفرط الطول ، أحمر الشـعر ، بادى عظام الرسغين ، تعلو عينيه « نظارة » ٠ وشعرت جيرمين بنفور منه ، وما خطر لها انه سيغدو أطول عشاقها علاقة بها !٠٠ فقـد كان موهوبا مثلها ، ولكنه لم يجد من يشجعه ـ كما وجدت هى فى صغرها ـ وقد أدى هذا الكبت لمواهبه الى ان صار جبارا مشاغبـا من الناحيـة الفكرية ٠٠٠ وطفلا ضعيفـا ، من الناحية العاطفية ! فسرعان ما وجد فى اعتداد جيرمين بنفسها ومسلكها الايجابى مايكمل سلبيته ، واذا بها تصبح فى نظره امـرأة ، بل ربة

تستطيع ان تحرره من عقده النفسية ، ومن ثم تهالك على صحبتها ، محتملا كل ما كان يلقاه من ترفع ضيوفها الارستقراطيين وعجرفتهم ، وليس له من أمل سوى ان تشعر يوما بوجوده !٠٠ وقد قدر لهذا الشعور ان يراودها ذات يوم. اذ كان ناربون وريبينج قد تغيبا عن الدار ، فخيل اليها انهما ذهبا يسويان ما بينهما من حساب ، وراحت تصرخ وتولول زاعمة ان ناربون قد قتل فى الصراع ، وانها كانت السبب ٠ ودب الهرج فى الدار ٠٠ وفجأة ، أقبل الرجلان فى صفاء تام ، يحملان السمك الذى كانا قد خرجا لاصطياده ٠٠ ولم يكن ادعى

للخجل والخزى من ان يتكشف المأتم عن سمكة ميتة بدلا من عشيق ميت !٠٠ وكان خليقا بجيرمين ان تنزوى من سخرية القوم ، لاسيما حين ثار ناربون ازاء هذه الفضيحة ٠ ولكن كونستان اسرع يمد لها ذراعه كى تستند اليها ، ولو لتغيظ ناربون وتشعره بأنها قد وجدت حبا جديدا ، قبل ان تنبذ القديم ! ٠٠ ولكنها لم تفلت ناربون من الانتقام ، فكتبت اولى رواياتها الطويلة الضخمة ـ وهى رواية « زولما » ـ وجعلت فكرتها تدور حول جحود الرجل للمرأة !

ولم تر جيرمين بعد ذلك بأسا في ان تتخذ كونستان عشيقا،

اذ كان محدثا حاضر البديهة ، وسياسيا ذكيا ، و « عبدا » فى الناحية العاطفيـة • ثم انه كان جمهوريا ، وكانت الاحوال قد تطورت فى فرنسا ، فزال عهدالارهاب وقامت حكومة المديرين، ومن ثم رأت ان المجال عاد ينفسح لها،وقررت ان تعمل مستترة وراء كونستان•واسرعت تصطحبه الى باريس ، فارتجف ايريك مانجس لعودتها ، اذ كان الديبلوماسى الاجنبى الوحيد المعترف به هناك ، وكان له ان يخشى تصرفات زوجته • وصح ماتوقعه، اذ سرعان ما أصبح « صالون » داره ملتقى اصحاب الآراء من كل حزب•وكانت جيرمين تتعلل بأنها تسعى لتوحيد صفوفهم • وقد اتحدوا بالفعل ، ولكن •• ضدها هى ! وما لبث أعضاء الجمعية التشريعية أن ضاقوا بتدخلها فى اعمالهم ، مقدمـة نصحها فى كل امر ، بينما راحت هى تجر كونستان وراءها وهى تطارد « بول بارا » ، أحد المديرين الخمسة الذين كانوا يرأسون الحكومة اذ ذاك • وكان بارا يقول : « لسـت أدرى اى الاثنين كان يقود الآخر ، وايهمـا كان الرجل وايهمـا كان المرأة ! » • **ولم تنقض ستة أشهر حتى كان الملكيون يتهمونها بالخيـانة ، والجمهوريون بالتجسس ، والحكومـة بالتآمـر ، وانتهى الامر بأن طلب اليها ان تغادر العاصمة،فجرت كونستان وراءها الى دار أبيها الريفية !••** وشعر الرجل بالارتياح ، فقد ارهقه صخب المجتمع وضجيج السياسة ، وكان يهفـو الى ان يفرغ ليضع كتاباً من عدة أجزاء فى تاريخ الاديان ، بينمـا عكفت هى على تأليف كتاب عن « أثر العواطف » ، ذهبت فيـه الىّ ان المرأة يجب ان لاتمارس اعمال الرجل وتنافسه فيهـا ، وانما يجب ان تستمد كلّ سعادتها من الرجل الذى تحبه ! ولما كانت ترى ان « اسمى مبدأ هو حب المجد » ، فقد خرجت من آرائها بأن « حب الحب » لايتنافى مع « حب المجد » ، عنـدما يكون الدور الذى تقـوم به المرأة فى الحياة العامة متولدا عن

حبها للرجل الذى يرشدها ، وعندما تكون العاطفـة هى التى تملى عليها مسلكها ٠٠ **اى ان المجد الذى تنشده المرأة يجب ان ان يتأتى عن طريق الرجل !**

★ ★ ★

◆ **وفى** تلك الاثنــاء ، كان نابليون يمضى مظفرا فى حملاته فى ايطاليا ، ويدحر جيوش النمســا التى لم تدحر من قبل ٠ فخيل الى جيرمين انها قد اهتدت أخيرا الى « بطل » من النــوع الذى كانت تنشده ، فكتبت اليه تتملقه ، ولكنه تجاهلها !

وفى تلك الفترة كانت قد أوشكت ان تضع ثمرة لعلاقتهــا بكونستان ٠٠ وكان ايريك مانجس فى حاجة الى مال ٠ ومن ثم وضعت جيرمين طفلة فى دار السفارة السويدية ــ فى مايو سنه ١٧٩١ ــ نسبتها الى « ستايل » ! ٠٠ ولم ينقض اسبوع على الوضع ، حتى كانت تستقبل ــ فى صالونها ــ اليعقوبيين فى الصباح ، والملكيين بعد الظهر ٠٠ ومختلف ألوان السياسيين فى المساء٠ وكان تاليران قد عاد من امريكا وقد لوحته الشمس، وبدا موفور الصحة ، فاستقبلته فى شوق ، ورأت فيه الرجل الذى تدفعه الى أرقى المناصب فيحتفظ بمجده ــ على العكس من ناربون ! ــ ومن ثم اســتخدمت مالهــا لدى « بارا » ، وراحت تلاحقه بالحافها ، حتى لقد عرضت عليه جسدها كرشوة !٠٠ ومع انه رفض الرشوة الاخيرة ، الا انه قبل المــال ، وسـاعد تاليران على ان يصبح وزيرا للخارجية !٠٠ وما ان تولى تاليران المنصب ، حتى عول على ان يحتفظ به دون حاجـة الى عبقرية المرأة التى ابتاعته له !

ومن ثم تحولت جيرمين الى كونستان تغمره باهتمامهـــا ، ففازت له بالجنسيه الفرنسية ، وراحت تستحثه ، وتنصحه ، وتشجعه ، وترسم له كل خطوة٠ **الى ان شغلت عنه فى ديسمبر**

سنة ١٧٩٧ بوصول نابليون من ايطاليا • وسعت الى لقائه فى مكتب « بارا » • وشد مابهتت حين ألفته مهدل الثياب ، ناحل الجسم ، بادى الاعياء ، بعد ان كسب عشرين معركة !•• وبقدر ما أبدت من تهافت عليه ، أبدى نابليون اعراضا عنها ، ودخل مكتب « بارا » وأوصد الباب خلفه • على ان حكومة المديرين كانت وشيكة السقوط ، والشعب يهتف مطالبا بأن يتولى حكمه قائد عسكرى •• وكان نابليون هو القائد المنشود !•• فأخذت مدام ستايل تلاحقه وتدفعه الى التقدم ، وهو يتهرب من نصائحها السياسيه بالحديث عن الادب • وحاولت ان تستثيره من ناحية أخرى ، فسألته يوما : « ألست مشغوفا بالنساء ؟ » ••فأجابها نابليون فى جمود : « بل أنا مشغوف بزوجتى ! »

وفتنت جيرمين بهذا الرجل الذى قالت عنه انه : « لم يكن طيبا ولا كان عنيفا أو قاسيا كغيره ! » •• وانما كان بطلا تستطيع معه ان تطمئن الى المستقبل الذى كانت تتوق اليه ، والذى كانت تصفه بأنه : « سواء أكان هذا المستقبل لامعا أو كان نكبة ، فانه مجيد دائما ! » •• وظلت تتبع ــ فى تهوس ــ « الرجل الذى تستطيع عزيمته ان ترفع الدنيا » ، ولكن نابليون لم يكن لسوء حظها يعترف بالنساء « المتفلسفات » • فضلا عن انه كان قانعا بزوجته !•• ولكن جيرمين ظلت مع ذلك تطارده ، حتى لقد حاصرته يوما فى ركن من حمام داره ، ولكنه ألقى بها خارج الدار ، وأخذ بعد ذلك يوصد أبوابه دونها !•• وخطر لها ان بوسعها ان تغلب عناده بتألقها الفكرى ، فعادت الى سويسرا حيث وضعت مؤلفها : « ظروف واقعية تستطيع ان تضع للثورة نهاية » ! وعرضت آراءها فى الحكومة المثالية كسلطة عليا يدعمها المال ، على ان تكون فى أيدى « الارستقراطيين الطبيعيين » ، أى خيرة أهل الفكر ، لاسيما الكتاب !•• وهكذا أسفرت عن مبتغاها : كانت تطمع

في المســـاهمة فى الحكم ، لانها أوتيت المــال ٠٠ والعبقرية الفكرية !

وعندما أجريت انتخابات المجلس التشريعى فى فرنسا ـ مجلس الخمسمائة ـ كان نابليون فى مصر ، فحاولت انتدفع بكونستان الى المجلس ، ولكنه فشـــل مرتين ، ووصف بانه « سويسرى مأجور » ! ٠٠ وفى تلك الاثناء ، كان زوجهــا قد فقد منصبه الديبلوماسى ، فقطعت جيرمين عنه المعونة المــالية لفورها ، غير حافلة بأنه قد بات خالى الوفاض ، وليس لهمورد آخر يعيش منه !

وفى آكتوبر سنة ١٧٩٩ ، عاد بونابرت خلســة من مصر ، واعتكف فى داره يفكر فى أمرين ضروريين : ان يطلق جوزفين التى ثبتت خيانتها له ٠٠ وان يستولى عـــلى أزمة الحكم فى فرنسا !٠٠ وكان الامر الاخير أسهل منالا من الاول ! وما ان تناهت الشائعات الى جيرمين ، حتى شعرت بأن الفرصةسانحة للعمل ، فأرسلت كونستان يتحسس لها تطورات الموقف بـين السياسيين وذوى المواهب الفكرية فى تنافسهم عـــلى الحكم ، فلما عاد ينبئها بأن نابليون اختير أحد قناصل ثلاثة يرأسون الحكومة ، بكت غبطـــة ، اذ كانت ترى ان نابليون من ذوى المواهب الفكرية ، وان هذا الاختيار قد يكون بداية قيام نظام للحكم يجمع بينها وبين نابليون !٠٠ ولكنها سرعان ماصدمت، اذ عمل نابليون على ان يرأس الحكومة ـ بأن يكون قنصـــلا أول ـ ثم جعل سلطان رئيس الحكومة مطلقا ، وقيد الحريات **٠٠ ومن ثم رأت أن الضرورة تدعو الى التعجيل بالعمل ،فسعت حتى عين كونستان عضوا بالمجلس التشريعى ، ثم أوحت اليه بأن يقول فى أول خطاب له بالمجلس : « اننا ندفع فى عجلة الى اجراءات وضعت أمامنا وكأننا كنا جيشـــا معاديا » !٠٠ وحمل على القلق والتعجل اللذين كان القنصل الاول يغـــالى**

فيهما وهو يعالج شئون الحكم !

وفى تلك الليلة خلا « صالون » جيرمين من الزوار . وفى الصباح حملت عليها صحف الاحزاب كلها ، تتهمها بالتآمر ، وتعيرها بالتداعى الخلقى . وأرسل اليها نابليون أخاه جوزيف يسألها عما تبغى ، فقالت : « انما يجب ان تسأل عما أرى لا عما أريد ! » . وحين علم نابليون بردها ، أرسل الى أخيه يقول : « اطلب اليها أن تفعل شيئا من أجل زوجها .. عاملها كما تعامل رجلا سيرث ثروة مسيو نيكر ، ومع ذلك فهو يترك زوجته فى عوز ! » .. وانصاعت جيرمين - رغبة فى ان تصيب حظوة لدى القنصل الاول - فدفعت الى زوجها بضعة آلاف من الفرنكات ، وتوسلت الى تاليران أن يدعوها الى حفلة راقصة كان نابليون مدعوا اليها ، فتوسل اليها تاليران بدوره ان لا تحضر الحفلة !

وما لبثت أن رحلت الى سويسرا ، وقد نبهها موقف تاليران الى وجوب استعراض عشاقها . كانوا جميعا قد خيبوا فكرتها فى « البطل » .. ولكنها انتبهت للمرة الاولى الى أن كونستان - الذى كان قد أيقن ان لا أمل له فى الميدان السياسى مادام الحكم فى يد نابليون - يصلح لان يكون متكأ تسند اليه ظهرها ! .. **وفطنت فى جزع الى أنها كانت مشرفة على الاربعين من عمرها ، وان أعصابها كانت مرهقة ، ومن ثم أرسلت الى كونستان تدعوه الى العيش معها ، فاستجاب طائعا منصاعا !..** وحاول ان يعكف على التأليف وهو الى جوارها ، ولكنها كانت دائما تقطع عليه استغراقه لتعرض عليه آخر آرائها وتناقشه اياها !.. وكان يرضخ أحيانا ، ولكنه كان يثور أحيانا أخرى. ومن عجب انه كان يثور وهو يخشى - فى جزع - ان يؤذى شعورها ، كما قال بنفسه !.. وكانت اذ ذاك تضع مؤلفا بعنوان « فى الادب » ، تضمن تاريخ الفكر البشرى منذ عهد

هوميروس الى سنة ١٧٨٩ . **وما ان صدر الكتاب حتى تركت كونستان وهرعت الى باريس لتشهد تأثير المؤلف عند نابليون، ولكنها صدمت حين وجدت ان فلسفتها ــ الحب يهيىء النفس للفضيلة ! ــ لم تكن ذات قيمة لدى الجندى الكورسيكى ،وانه كان يرفض « تاج الحياة » من يديها ، لانه كان يصبو الى تاج فرنسا !**

* * *

◆ **ولكن** عاطفة مشبوبة كعاطفتها لم تكن مما يسهل كبته، اذ كانت كلما كتمت بحثت عن منفذ جديد .. وكان منفذها فى هذه المرة هو : البغض ! .. فأعدت كل ما كانت تملك من شجاعة ومن دهاء آنثوى ومن استغلال للطباعة ومن قدرة على السخرية ، لمحاربته !.. وقبل ان تعود الى سويسرا ، وجدت زوجها فى أقسى حالات المرض ، فأشفقت عليه ، وعنيت به . ولكنه مات بعد أيام فى فندق صغير خارج باريس !

وبعد فترة ، عرض عليها كونستان ان تقبله زوجا ، ولكنها رفضت ، لانها أبت ان تغير اسم « ستايل » ــ الذى جعلته لامعا ــ الى اسم كونستان ! وظن هذا انه قد تحرر منها بهذا الرفض .. ولكنا نجد فى مذكراته فى سنة ١٨٠٤ مايلى : **« انها تأبى الصداقة بدلا من الحب .. ولست أريد ــ بعد أن بلغت الاربعين ، وبعد علاقة دامت عشر سنوات ــ ان تطالبنى بالحب وقد نضب ماعندى منه !.. وقام بيننا شجار بغيض دام الى الساعة الثالثة صباحا .. متى ينتهى كل هذا ؟ »** ..

ولكنه لم يستطع ان يهجرها ، لان أباها ــ الذى كانت تعبده ــ مات فى أواخر ذلك العام

وظلت جيرمين طيلة السنوات الست التالية تتشبث بكونستان بأحدى يديها ، وتحارب نابليون باليد الاخرى !

وذهبت فى عدائها لنابليون الى درجة ان كانت تؤلف الروايات فى مدح انجلترا والسخرية من كل الاوضاع فى فرنسا ، عندما نشبت الحرب بين الدولتين ، حتى أن نابليون حرم عليها أن تقترب من باريس ، بل انه جعل آخر حدود يمكن ان تصل اليها على بعد أربعين فرسخا من العاصمة !

وتوسلت الى جوزيف بونابرت ليتوسط لدى أخيه فى ان يسمح لها بأن تعود لتموت فى باريس ، ولكن نابليون لم يشأ أن يطمئن اليها ٠٠ فقد كان يعتبرها مدفعا سريع الطلقات ، يهيج الرأى العام ضده فى الصالونات !٠٠ غير انها لم تخضع لهذا الحد من حريتها ٠٠ وفى كل مرة ، كان البوليس يقصيها عن باريس ٠ وأخيرا ، تبين نابليون ـ فى سنة ١٨٠٨ ـ انها كانت تراسل جاسوسا يعمل لحساب انجلترا وبروسيا ، فأمر وزير الامن « فوشيه » بأن يدرجها فى عداد الخطرين على سلامة الدولة ٠ وأمر باقصائها الى (كوبيه) ـ على الحدود السويسرية ـ حيث كانت دار أبيها الريفية

وبدأ كونستان يضيق بها ، اذ كانت المطالب الذهنية والبدنية التى تفرضها عليه قد أنهكت صحته وأضنت عينيه ! ٠٠ وكان يتهرب منها ليقابل فتاة بدأت تبادله الحب سرا ، ولكن جيرمين اكتشفت الامر ، فكأنما ثارت الصواعق والزلازل والبراكين ، وهددت بالانتحار اذا هو غاب عن بصرها !٠٠ ومع انه ظل على لقائه لحبيبته ، الا أن ضعف نفسه كان يحول بينه وبين هجران جيرمين !٠٠ على أنه ما لبث ان فر منها الى ابن عم له فى لوزان ، فتبعته ٠ و هم بأن يهرب من بيت ابن عمه ، لولا ان وجدها راقدة على السلم ، وقد تعرى صدرها ، وتهدل شعرها ، وراحت تصرخ: « أين هو ؟ » ٠٠ ومرة أخرى ، عاد معها الى (كوبيه) حيث عاش موزعا بين صراخ عشيقته وعذاب حبيبته الصابرة !

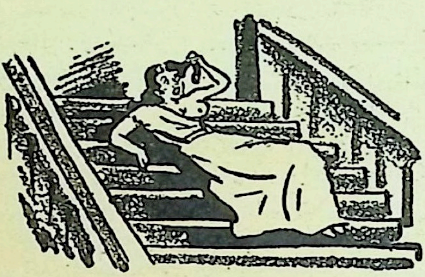

وكانت ثمة فترات عاوده فيها الامل فى الخلاص . فقد ذهبت جيرمين الى ايطاليا حيث أحبت الشاعر مونتى ، والى (فيينا) حيث عشقت ايرلنديا يدعى أودونيل ، والى (شومون) فهوت سويسريا يدعى بارنات .. ولكن حرية الحب - فى عرفها - كانت وقفا عليها وحدها ! وراح كونستان يصرخ فى مذكراته : « اما انها مجنونة واما اننى المجنون .. اللهم خلص كلا منا .. من الآخر ! »

وجرؤ فى النهاية على الزواج من حبيبته ، فاعلنت جيرمين ان هذا الزواج غير شرعى ، ولوحت فى وجه عشيقها بوثائق ديون كانت عليه لابيها ، فلما عرض ان يدفعها ، أبت ان تقبل النقود ، وارتمت على قدميه ، ثم راحت تطلق صرخات اليمة ، تفتت أصلب القلوب !.. على انها ما لبثت ان شغلت عنه بضابط ايطالى فى الثالثة والعشرين من عمره ، كان رائع الجمال . وفى سنة ١٨١١ حملت جيرمين - وهى فى الخامسة والاربعين - من « جون روكا » الايطالى ، فاذا الفضيحة تثير عليها السويسريين ، ومن ثم عاشت فى عزلة ، وأطلقت كونستان من اسارها

* * *

• **ولكنها** لم تكن قد نسيت عداءها لنابليون ، الذى كان اذ ذاك يقود جيوشه موغلا فى روسيا · **فما ان وضعت** حملها ، حتى رحلت الى بطرسبورج وهى تهيب بكبار **الاقطاعيين** الروس - فى طريقها - ان يعاونوا القيصر على توجيه ضربة قاضية لنابليون ، فى سبيل الحرية · ولم **تجد القيصر** متعجرفا ، بل انه راح يباحثها فى المسائل الكبرى فى السياسة الاوربية ، وصارحها بأنه ليس أحب اليه من ان يهزم الرجل الذى خدع كلا منهما وأساء اليه ، لولا ان عشرين ألفا من رجاله معطلون فى فنلندا خوفا من السويد · **وشعرت جيرمين بان الفرصة قد واتتها أخيرا لتلعب دورا حاسما فى تاريخ العالم ، فرحلت لتوها الى ستوكهولم** · وكانت السويد تغلى - اذ ذاك - طلبا للثأر من روسيا ، ولكن جيرمين كانت واثقة من ان فى مقدورها اقناع برنادوت - الذى كان اذ ذاك ولى عهد السويد - بالقضية التى تكفلت بالدفاع عنها · واختارت شهامته وغروره الجسكونى منفذا الى عقله وقلبه ، فلجأت اليه كامرأة مظلومة تلوذ بحماه ، وراحت - فى خلال ذلك - تلوح له بتاج فرنسا ، وتذكر له ان ليس فى العالم من هو أجدر منه بحمله ·· ومن ثم وعدها بأن يساهم بثلاثين ألف جندى لتحرير فرنسا من « الطاغية » !·· **وهكذا تحول الخطر السويدى عن روسيا ، واتجه صوب فرنسا ·· وانتشت جيرمين · وكتبت مدام شاستينى اذ ذاك تقول : « فى اوربا اليوم ثلاث قوى كبرى تحارب فرنسا : انجلترا ، وروسيا ·· ومدام ستايل ! »**

وكانت اذ ذاك قد بلغت الثامنة والاربعين ·· وحيدة ، لا تجد سميرا سوى ذكريات الماضى !·· ولم يكن فى وسعها

ان تعود الى فرنسا ، فاصطحبت عشيقها الايطالى « روكا » الى انجلترا ، حيث استقبلت استقبال الاميرات ، ولكنها شعرت هناك بالضيق والسأم • وبدأ الهم يثقل عليها ، لاسيما بعد ان تبينت ان اقصاء نابليون عن حكم فرنسا لم يفض الىحكومة « ذوى المؤهلات الفكرية » التى كانت تنشدها ، ولا الى تمكين برنادوت من عرش فرنسا ، وانما أسلم هذا العرش الى ملك من آل بوربون ، عاد على أسنة حراب جيوش أجنبية ، ليبعث الماضى الذى كان يعيش فى فرنسا قبل الثورة • على أن هذا التطور مكنها من ان تعود الى فرنسا بعد ان ظلت منفية عنها عشر سنوات • وهناك ، وجدت ما ضاعف من همها و ندمها على ما أصاب غريمها « نابليون » •• وجدت الجنود البروسيين والروس فى شوارع باريس •• وأحست بأن مجد فرنسا قد زايلها ، فكتبت تقول : « لم يعد فى الحياة شىء مهم يشغلنى أربعا وعشرين ساعة ! »

ولكن نابليون ما لبث ان فر من جزيرة (البا) ، فتحمست للحادث ، وتنازعت قلبهـا عاطفتان : كراهيتها للرجـل ، واعجابها بالبطل ، حتى لقد كتبت تقول : « أتمنى ان ينتصر •• وانْ يقتل ! »

وفى سن الحادية والخمسين بدأت صحتها تخور ، واستبد الارهاق ببدنها وعقلها بعد الصراع الجبار الذى خاضته فى عمرها لتكون « بطلا وبطلة » ، و « عشيقة وسيدا للرجال » ! •• وفى مساء ١٣ يوليو سنة ١٨١٧ سألها من كانوا حولها عما اذا كانت راغبة فى ان تنام ، فقالت : « أجـل •• نوما عميقا ، طويلا ! »

وفى يوم ١٤ يوليو ، يوم عيد الثورة الفرنسية ، أخلدت الى نومها الاخير !

(ولدت سنة ١٨١٨ وماتت سنة ١٨٦١)

ما كانت لوليتا لتشترى بالمال قط .. فقد كانت منيعة على الفساد !

لودفيج الأول ـ ملك بافاريا

المغامرة الرائعة !

« .. اخلط (لخبط) أوراق اللعب ، ووزعها ثانية ! »

لولا مونتيز

• فى سنة ١٨١٨ اضطر رجل من مدينة (ليمريك) بانجلترا - يدعى « انسيين ادوارد جيلبرت » - الى الزواج العاجل من فتاة تدعى « لولا أوليفر » لم تلبث ان أنجبت له ابنة .. بعد زمن جد قصير !.. ومن ثم فان جيلبرت كان رجلا شهما ، اذ لم يتخل عن حبيبته فى محنتها .. كما انه كان شجاعا ، لانه رفع نفسه الى مستوى رفيع بفضل بسالته فى ميدان القتال • وكان من عواقب الفضيلة الاولى ان وجد نفسه رب أسرة لايملك ان يعولها ، بينما أتاحت له الفضيلة الثانية ان يرتدى بزة عسكرية أنيقة ، فوق ثياب داخلية مهلهلة • وكانت تلك حال أى جندى يرقى بنفسه الى مصاف الضباط والسادة - فى القرن التاسع عشر - ويضطر الى آن يناضل كى يصون كرامة مكانته ، وليس له من مورد سوى مرتب لا يعادل « المصروف » اليومى لأى زميل له من ذوى المنبت الراقى !

وفى هذا الجو ـ الذى كان يجبر جيلبرت على أن يعنى بمظهره ! ـ ولدت « ماريا دولوريس اليزا جيلبرت » ٠٠ أو « لولا » كما كانت تدعى من قبيل الايجاز ٠ وانقضت السنوات الاربع الاولى من عمرها ، ثم خف الحظ ـ فى سنة ١٨٢٢ ـ الى معونة جيلبرت ، فأوفدت فرقته الى الهند ، حيث العيش رخيص والترقية العسكرية سريعة ٠٠ ولكن الحياة كانت هى الاخرى رخيصة هناك ، والموت سريع ! اذ ما لبث جيلبرت ان توفى بالكوليرا بعد ثلاث سنوات ، وسرعان ما تزوجت أرملته ـ ذات الجمال الطاغى ـ من زميل له يدعى الكابتن كريجى ٠٠ وكان رجلا ذا ميسرة ، كما كان على وشك ان ينال رتبة « كولونيل » ٠ ولم يثبت انه زوج صالح فحسب ، بل أثبت أيضا انه أب رحيم للولا ، فنعمت الصغيرة بهذه الحياة الجديدة الميسرة عاما ٠٠ وكانت قد بلغت التاسعة من عمرها ، وبدات تعابث الصبية وكأنما تفتحت فيها غريزة الانوثة مبكرة ، فما كان من كريجى الا أن حملها الى اسكتلندا حيث أسلمها الى رعاية أسرته الاسكتلندية ذات التقاليد الصارمة ٠ وهكذا انتقلت لولا من مباهج كلكتا ودفئها ، الى قيود (مونتروز) وبردها ، والى الحياة الرصينة فى رحاب أسرة محافظة متدينة٠ ولم تعجبها هذه الحياة الجديدة ، ولكنها بدلا من ان تشكو الى أمها ، شكت الى زوج أمها ، فنقلها الى (باث) ذات الجو المعتدل ، لتعيش فى رعاية صديقه « سير جاسبار نيكولز » ٠٠ وكان ارملا وأبا لعدة فتيات صغيرات ٠ وفى رفقة هذا الصديق وبناته ، رحلت « لولا » الى باريس بعد فترة من الوقت ، لتتعلم مع البنات اللغة الفرنسية وحكمة الانوثة ٠٠ وكانت اذ ذاك قد بلغت السابعة عشرة

وبدأت أمها تفكر اذ ذاك فى مستقبل الفتاة التى كانت الصور المرسلة من سير جاسبار تنطق بمدى جمالها وفتنتها ٠

ولم يكن لها من مستقبل سوى الزواج بطبيعة الحال ،فشرعت مسز كريجى تبحث لابنتها عن زوج مناسب • وتطلعت بنظرها الى ما فوق مستواها •• الى شاب انجليزى يكون حديث العهد بالهند • وسرعان ما استقر بصرها علـى سير ابراهام لوملى ، الذى كان قاضيا للمحكمة العليا فى الهند ، فضلا عن انه كان موسرا • ولكنه لم يكن شابا ، وانما كان فى الستين من عمره •• وان عاش هذا العمر عزبا ، محتفظا بوسامة طلعته وجلال مظهره ! وما ان وقع بصر القاضى على صورة « لولا » الفاتنة ، حتى نسى فارق السن ، ومحاسن العزوبه ، وقبـل الزواج ! وبادرت مسز كريجى تعلن النبأ الى زوجها مبتهجة : « انهــا ستصبح ليدى لوملى •• تصور هــذا المركز ! » •• ولكن الرجل أبدى ترددا ، وهو يقول : « انما أفكر فى لولا نفسها !» •• وكانت الأم تفكر فى « لولا » هى الاخرى ، وتشفق عليها من ان تعانى مثلها حياة الفقر !

وكانت قد انقضت عشر سنوات منذ تركت « لولا » الهند، عندما وصلت مسز كريجى الى (باث) لتصطحبها معها •• الى الهند !

★ ★ ★

◆ **ان** الجمال الكامل فى المرأة ، كالذكاء الكامل فى الرجل، نعمة نادرة ، وعسيرة الوصف • وقد كانت لولا هى الجمــال ذاته !•• كان وجهها فاتنا ، يستمد لونه من الدم الوافر الذى كان يجرى ناعما تحت بشرة عاجية • وكانت عيناها ـ تحت أهدابها السوداء ـ فى زرقة سماء الصيف الصحو الدافئة ، يعلوهما حاجبان بديعــان • أما فمها فكان شــهيا فى لونه وشكله ، كما كان جسمها متناسقا ، سمهريا ، لدنا ، ملتفــا فى بهاء !•• **ولم يكن الجمال لديها ـ كما هو لدى المرأة عادة !**

ـ غاية أو مأربا ، وانما كان سلاحا تختال به كما يختـال المحارب المظفر بسيفه • وكأنما أدركت الأم اعتداد ابنتها بهذا الجمال ، فلم تذكر لها شيئا عن القاضى المسن ، وانما راحت تبتاع لها ما كان يلزمها دون ان تنبهها الى أنهـا انما تعدها للزفاف !

وكان يصاحبهما ـ فى جولاتهما بالمتاجر ـ ضابط برتبـة الملازم يدعى « جيمس » ، التقت به مسز كريجى فى السفينة التى قدمت عليها من الهنـد ، فارتاحت الى ما كان يبذله من جهد فى مسـاعدتها • وقد أبدى تحمسـا للمضى فى تلك المساعدة ، حين صارحت الأم ابنتها فى النهاية بالزواج الذى دبرته لها ، وعارضت لولا فى حرارة واصرار •• **فقد اطمأنت مسز كريجى الى الضابط الشاب ، فوكلت اليه أمر اقنـاع ابنتها ، بينما آوت هى الى فراشها • وفى الصـباح التالى ، اكتشفت ان الشابين قد تلاشيا !**

وفى ٢٠ يوليو سـنة ١٨٣٣ ، عقد الهاربان زواجهمـا فى ايرلندا • وما لبث الزوج ان استدعى للحاق بفرقته فى الهند

وعلى السفينة التى حملت الزوجين الى الهنـد ، اكتشفت « لولا » ان زوجها كان سكيرا ، وان مظهره كان على النقيض من حقيقته •• فهو لم يؤت ذكاء ولا عاطفة يحببانه اليهـا • ومع ذلك بدا انها استطاعت أن تهنأ بالعيش معه فى الهنـد فترة • ولكنهما كانا يعيشان فى فقر مدقع ، حتى لقـد كان المشفقون على الشابة الفاتنة يخشون ان يستدرجها الفقر الى التردى • ولكن الأيام شاءت ان يجرى النقيض ، فاذا «جيمس» يهرب مع زوجة أحـد زملائه !•• وخف « كريجى » ـ زوج أمها الشهم ـ الى نجدتها ، ودس فى يدها ألف جنيـه ، ثم أرسلها ثانية لتعيش مع أسرته الاسكتلندية المحافظة ريثمـا يثوب زوجها الى رشده !

وكانت فى الثانية والعشرين ، وحيدة ، رائعة الجمال ، وعلى سفينة تمخر عباب محيط دافىء ، تحت ضوء القمر . ثم انها كانت حزينة ، تشعر بهوان لهروب زوجها منها ..عوامل كانت كلها كافية لايقاعها فى شراك الذئاب .. وكان الذئب الذى فاز بها وأقنعها بعهوده وايمانه بالحب الابدى هو .. « الكابتن لينوكس » !

وكانت « لولا » ـ حتى فى استسلامها للذئب ـ بريئة ، ساذجة ! فقد خيل اليها انها تدعم بهذا الاستسلام مبررات الطلاق الذى يفرق بينها وبين زوجها ، ويمكن حبيبها من ان يبر بوعوده ويتزوجها . **لهذا لم تذهب الى أهل زوج امها فى اسكتلندا ـ عندما انتهت رحلتها ـ وانما عاشت جهارا مع لينوكس في مسكنه بلندن . فلما ظهر جيمس أخيرا واتخذ اجراءات الطلاق ، وهو ثائر لشرفه ، مثلت أمام المحكمة واستمعت الى الاتهامات المعيبة دون أن تأسى ، اذ كانت هذه الاتهامات هى الجسر الى السعادة المرتقبة . ثم عادت الى المسكن وقد استخفها الفرح .. ولكنها وجدت لينوكس قد رحل عنه !**

وهكذا وجدت نفسها فى سنة ١٨٤٢ وحيدة فى لندن ، فى وقت احتدمت فيه الحرب بين المتطهرين ـ « البيوريتان » ـ وأنصار الفجور . ولم تكن « لولا » تنتمى الى أحد الفريقين ، فهاجماها معا . فقد نقم عليها « البيوريتان » انها عاشت فى الحب الآثم ، بينما نقمت عليها « المومسات » انها كانت تجود بالحب دون ثمن !.. وكان من الممكن ان تتخذ من آحد الرجال الذين راحوا يطاردونها زوجا يحميها ، ولكن كبرياءها جعلتها تشمخ بأنفها على الجميع ، وترفض كل من تقدموا اليها ، يعرضون حمايتهم وبينهم أحد اللوردات . **كانت قد تعرضت مرتين لغدر الرجال ، وبدلا من ان يحميها المجتمع ، اخذ يتقاضاها الثمن ، ومن ثم قررت ان تعلن الحرب على هذا**

المجتمع ، وأن تجعل همها هو الوصـــول الى غرام فوق كل القوانين والتقاليد ٠٠ غرام يرفع اسمها ويكسبه تألقا فى سماء التـــاريخ الى جانب اسم كليوباترا ٠ وانطلقت « لولا » وراء بغيتها كما ينطلق الصبى الغرير يحاول الوصـــول الى قوس قزح عند الأفق !٠٠ وكانت فى الواقع غريرة ، اذ أنهـــا لم تفطن الى أن الحسناء المعدمة ، التى لا مكانة لهـا ولا مال ، لايمكن ان تجد لجمالها ميدانا لاستغلاله الا فى أركان الشوارع ، أو على منصات المسارح ٠ واختارت الاخيرة ، فاستعانت بما تبقى من الجنيهات الألف التى أخذتها من زوج أمها عـلى الرحيل الى أسبانيا ، لتعود بعد ستة أشهر وقد ألمت باللغة الاسـبانية وتعلمت الرقص ، وانتحلت لنفسها لقبا أضفت عليـه مسحة العراقة ٠٠ فأصبحت «ماريا دولوريس دى بوريس اى مونتيز»!

وكراقصة أسبانية حديثة العهد بانجلترا ، وتنحـدر من أصل أسبانى عريق ، استطاعت ان تفوز بعقـد للظهور فى رقصات انفرادية بين فصول التمثيليات ، فى « مسرح صاحبة الجلالة » ٠ واستطاعت فى مساء ٣ يولية سنة ١٨٤٣ ـ ليلة الافتتاح ـ ان تبهر النظارة من أبنـاء الطبقة الراقية ، وان تفتنهم بجمالها وحسنها ٠ وفجأة ، ارتفع صـوت يصيح : « يا لله !٠٠ انها بتسى جيمس ! » ٠٠ وكان ذلك صوت اللورد « رينلاه » ٠٠ اللورد الذى صدته بعد طلاقها !٠٠ وتحـول التصفيق الى صفير ، فلم يستطع مدير المسرح ان يسـتبقيها خشية اغضاب اللورد « النبيل ! » ، ولم يعد فى لندن مسرح يتيح لقمة العيش لامرأة بلا نصـير ٠٠ امرأة أبت ان تكون عاهرة !٠٠ لذلك فرت « لولا » الى (بروكسل) ، وقد أوشكت نقودها ان تنفد ، فاضطرت الى أن تغنى فى الشوارع لتكسب قوتها ٠٠ وكانت هـذه خطوة رسمها القدر تمهيدا لمغـامرة جـديدة ٠ اذ تعرفت فى ذلك الوقت الى شاب ألمـانى معدم ،

ولكنه كان يجيد عدة لغات ‥ وكانت « لولا » تهفو دائما الى ثروات العقول أكثر منها الى ثروات الجيوب !

ومع هذا الالمانى رحلت الى برلين ، حيث استؤجرت لترقص فى حفلة أقامها الملك فردريك وليم لزوج ابنتـه « نيقولا » ، قيصر روسيا ٠ وعندما أبدى القيصر اعجابه ، حــذت برلين حذوه ، فتدفق المال والشهرة على الراقصة الجميلة ٠ **ولكن « لولا » لم تكن تتوق الى المال ، وانمـا أصبحت تصبو الى السيطرة على من يمسكون مقاليد الشعوب من الرجال ٠ ومن ثم استأجرت حصانا ، وحضرت عرضا عسكريا أقيم لتكريم القيصر ، فلمحها هــذا ‥ ولعلها كانت قد اختارته هدفا لمغامرتها الكبرى ، اذ ما لبث جوادها ان جمح واندفـع نحو مقصورة القيصر ٠ وتبدى انها عاجزة عن كبح جماحه ،فعرض أحد الشرطة حياته للخطر، وراح يتشبث برقبة الجواد وعنانه حتى أوقفه ، وقد أمسك الناس أنفاسهم خوف عواقب الحادث ٠ على ان « لولا » لم تحمد للشرطى صنيعه ، وانما رأت فيـه مساسا بكرامتها ، فرفعت سوطها وانهالت عـلى وجهه !‥** وعندما دعيت للمثول أمام المحقق ــ فى اليوم التالى ــ بتهمة « اهانة الزى الرسمى » ، مزقت الدعوة ، ورحلت عن المدينة مصعرة خدها فى ترفع !‥ واتجهت الى باريس ، اذ أدركت ان الحادث أغلق أمامها الباب الروسى الذى أرادت ان تجتازه الى التاريخ !

★ ★ ★

◆ **وكانت** باريس فى أوج خلاعتهـا ومجونها اذ ذاك ، فلم تكن أية امرأة طموح لتحتاج الى مؤهــلات أكثر من : ذكاء ، وخفة ، وفتنة ، لتحقق أغراضها ٠ وكانت « لولا » قد أوتيت الشىء الكثير من هــذه المواهب الثـلاث ٠ وبدأت بالمسرح ،

فأخفقت ، لا لان النقاد عابوا ماضيها ـ فان فتنتها أعشت عيونهم عن هذا الماضى ! ـ وانما لان رقصها « وان كان مثيرا ، الا أنه كان ارتجاليا » ! ٠٠ وولت « لولا » المسرح ظهرها ، ثم انتقت صيدا حطت عليه ٠٠ **وكان ذلك الصيد شابا صحفيا ممتازا يمتلك صحيفة « لابريس » ، وقد أوتى من قوة الفكر والرأى ما كان يسكبه فى صحيفته فيضاعف نفوذه ٠ ومع « شارل دوجارييه » هذا ، عاشت « لولا » ! واذ وجد الشاب انها أوتيت الى جانب الجمال الفاتن ، ذكاء خارقا ، عكف على اعدادها لدنيا السياسة ، فراح يبصرها بخبايا هذه الدنيا ، ويبين لها كيف ان التحرر كان يغلى في « أوانى » السياسة ويوشك ان يدفع ببخاره غطاء الرجعية ، وان يبعث الثورات فى أعقاب الملوك ، تطاردهم فى أوربا بأسرها !**

واستولى على « لولا » تحمس متأجج ، اذ وجدت فى هذا الجو مجالا للمغامرة ٠٠ مجالا قد تكون الفرصة فيه مواتية للمرأة أكثر منها للرجل ، لما وهبته المرأة من أسلحة خاصة ٠ وقد ذكرت « لولا » ان « دوجارييه » أوفدها فى تلك الحقبة ـ كمبعوثة سرية ـ لنشر الحركة التحررية فى سان بطرسبورج ووارسو ٠ وهكذا قدر لها ، فى سبيل أداء مهمتها هذه ، ان ترقص أمام القيصر الروسى مرة أخرى ٠ ولكن من غير المحتمل ان تكون قد حظيت بلقاء خاص مع ذلك العاهل ذى السلطان المطلق كما زعمت !

وفى وارسو ، استطاعت بفتنتها ورقصها ان تلهى البولنديين قليلا عن الفظائع التى كان الاحتلال الروسى يصليهم شواظها ٠ ومن الغريب ان أشد المعجبين بها ، كان هو ذات الشخص الرهيب القاسى الذى آلى على نفسه ان يسحق بولندا تحت طغيانه ٠٠ الامير باسكيفيتش ، نائب القيصر وحاكم بولندا ٠ وذهب به الاعجاب بلولا الى درجة ان دعاها الى

العشاء • وما كانت ـ اذ ذاك ـ بالغريزة الساذجة التى لا تفقه ما وراء هذه الدعوة ، لذلك لم يكن صدها اياه ـ بعد العشاء ـ منبعثا عن طهر وبراءة ، وانما كان مبعثه انها وجدته فى منظر فظيع يثير الاشمئزاز ! •• ولابد انهـا أدركت ان من الخطر اغضاب شخص له مثل خطورته ، لانها أعدت نفسها لمواجهة العواقب ! **فلما بث بين المتفرجين فى المسرح ـ فى الليلة التالية ـ ثلة من الجنود فى ثيـــاب مدنية ، ليستقبلوها بالصفير والاستهجان ، لم تتردد فى أن تتقدم الى حافة منصة المسرح ، وأهابت بالرواد البولنديين أن يقوها شر الانتقـام الخسيس الذى شنه « دنىء جبـــان على امرأة مسكينة عافت رغبـاته الوضيعة ! » •• و هبت الشـــهامة البولندية ـ فى تهور ـ لحماية « الحسناء العفيفة » ، فرافقها النظارة الى مسكنها فى موكب صاخب ، ثم انطلقوا فى الطرقات يرددون الاناشـــيد الوطنية ويهتفون بسقوط الحاكم • ووجه الحاكم أولى خططه نحو « لولا » نفسها ، فأرسل ضابطا لاعتقالها ، ولكنها قابلته بمسدس مسدد الى صدره ، فتراجع ، بينما صفقت الباب فى وجهه وأحكمت رتاجه !**

* * *

• **وما** كانت « لولا » لتقوى على الصمود أمام نقمةالسلطات الروسية لو لم يخف قنصل فرنسا لمساعدتها فى شـــهامة ، معلنا انها من رعايا بلاده ، ثم رافقهـــا حتى اجتازت حـــدود بولندا بسلام • ومع ان السلطات الروسية انتقمت من أهـل وارسو بسبب ذلك الحادث ، الا أن الجذوة التى أذكت «لولا» ضرامها فى نفوسهم أخذت تتقد وتتأجج • وانتشت المغـامرة الشابة عندما رأت نفسها تنتصر فى اصطدامها مع الطغيان ، فتحرك ثورة قوم مظلومين ! •• وكأنمـــا شـــاء أستاذهـــا

« دوجاربيه » ان يربط هذه القوة السياسـية الى عجلته ، أو لعله كان قد تدله فى هواها ، اذ عرض عليها الزواج عنـدما عادت الى باريس • ولكن الحملات الصحفية لم تعد تستهوى خيالهـا ، فأبت الزواج من الصحفى الشـاب • وما لبث « دوجاربيه » ان قتل بيد منافس صحفى ، فبكته « لولا » بكاء مريرا ، وحزنت عليه حزنا صادقا ، وان حمدت للقدر ان مكنها من ان تحتفظ بحريتها لتطلق العنان لروحها الثائرة المتطلعـة الى المغامرة •• وأية مغامرة !•• **انها لم تصب قط الى اهداف سهلة المنال ، بل جعلت غايتها الكبرى بسط سـلطان الحرية على الارض •• وكرست الثروة التى تركها « دوجاربيه » لها ـ وكانت عشرين ألفـا من الفرنكات ـ لاعلان الحرب على الرجعية •• باسم التحرر !**

على انها كانت من الفطنة بحيث لم يغب عنها ان لابد للمرأة المكافحة من رجل تتخذه سلاحا ما ان تتمكن قبضـتها منه ، حتى توليه الوجهة التى ترتضيها • وراحت تستعرض حكام الامارات الاوربية الصغيرة ، ولكنها لم تجد بينهم السيف الذى تطمئن اليه ! وبدأت تجيل بصرها فى الافق قلقة ، ثم يممت شطر ميونيخ ، حيث كان « لودفيج الاول » متربعا على عرش بافاريا • وكان اذ ذاك فى الحادية والستين من عمره ، ولكنه كان مهيب الطلعة ، وقد بثت فيه تربيته نزعة الى الفن والديموقراطية ، مما بعث فى نفسه الامل فى ان يجعـــل من عاصمته مركزا يشع على الدنيا أضواء الفن والادب والفلسفة !•• وقد أثبت ـ مذ تولى العرش فى سـنة ١٨٢٥ ـ أنه أكثر ملوك أوربا تحررا وثقافة • على ان نظريته فى الديموقراطيـة كانت تقوم فى الاصل على الحكومة ، لا على الشعب !

ولم يكن لزوجته « تيريزا » ـ أميرة سيكس هيلد بيرجهاوزن ـ من شكوى سوى امعانه فى البحث عن الجمال الذى لم تكن

تملك منه قدرا يرضيه . أما هو ، فلم يكن لديه مايشكو منه، اذ كانت زوجته وفية ، صالحة ، وفرت له السعادة العائلية ، وأنجبت له سبعة من الاولاد . **انما كان مبعث همه الوحيد ،ان الرجعية قامت بعد حروب نابليون فوحدت صفوفها ، ومن ثم خاب كل أمله فى ان تزدهر الفنون والآداب . ولما كان قد ولد فى باريس ، فى طلائع الثورة ، وشـــهد اشبينيه ـ لويس السادس عشر ومارى انتوانيت ـ يقتلان ، فقد كان يذعر دائما حين يسمع عن ســلطة تنتقل الى أيدى أى شعب .** وانتهى به هذا الذعر ـ عندما أطاحت ثورة يوليو ســـنة ١٨٣٠ بحكم شارل العاشر فى فرنسا ـ الى أن يفقد كل رجاء فى الحركة التحررية رغم ان الحركة التحررية بالذات هى التى أفقـدت شارل ملكه !

★ ★ ★

◆ وكان من جراء ذلك، ان ساعد لودفيج على تعزيز التحالف بين الكنيسة والتاج ـ فى مملكته ـ و سن القوانين الدينية المتزمتة ، واقام محكمة دينية ، وفرض رقابة شديدة على الكتب والصحافة ، ولم يعد يخاطب رعاياه بلقب «المواطنين» .. واشتد اساه لاخفـاق مبادئه ومثله ، فاستسلم للهم والقنوط !.. وهكذا كانت حاله حين التمست « لولا » الاذن لترقص فى المسرح الذى كان يرعاه ـ مسرح هوف ـ فى أكتوبر سنة ١٨٤٦ .ولكن مدير المسرح كان على علم بسمعتها وبنشاطها السياسى التحررى ، فرفض أن ياذن لها . وأبت « لولا » ان تقبل الهزيمة ، فيممت لفورها شطر القصر الملكى ، والتمست الاذن بان تمثل بين يدى الملك نفسه . ولما كان كبير امنائه يعلم مدى شغفه بالجمال ، فقد مهد لها سبيلها . وما ان مثلت « لولا » أمام « لودفيج » ، حتى رمق كل منهما الآخر طويلا .. كان لقاء قد نجد له مثيلا فى الخيال ، ولكنه نادرا مايتخلل صفحات التاريخ . اذ انجذب كل من الملك الذى كان فى الحادية والستين ، والراقصة التى كانت فى السابعة والعشرين .. انجذب كل منهما الى الآخر ، وكانمـا ولد القدر فيهمــا نوعا من المغناطيسية التى تنشد التكامل دائما باجتمـاع قطبيها !.. ولم يحتج الامر الى مقدمات او مغازلات ، بل اندمج عقلاهما وروحاهما منذ اللحظة الاولى ، لقد وجد الملك فى الراقصة الجراة السامية التى كانت آراء شبابه تتطلبها ، كما وجدت الراقصة فى الملك السلطان الذى يحيل تلك

الآراء الى حقائق .. ورأى عاشق الجمال فى « لولا » جمالا يفوق رؤى الاحلام ، كما رأت المغامرة الشابة فى « لودفيج » مغامرة كبرى !

ولم يتمالك لودفيج من ان يصارح وزراءه بعد يومين اثنين بانه «مسحور».. كان يخضع لسحر الهدف الذى ظل يتطلع اليه طوال حياته .. فقد وجد الجمال بكل « روعته وغموضه ووضوحه ! » متجسدا هذه المرأة !.. ولقد اكد - فيما بعد - ان « لولا » لم تكن خليلته ، وانه لم يمس جسدها قط . وسواء أصح هذا التأكيد أو لم يصح ، فانها أصبحت حبيبة قلبه وعقله وحياته ومستقبله ومصيره !.. وكأنما بكعبى نعليها الاسبانيين اللذين اعتادت أن تدق بهما أرض المسرح ، قد حطما جليد الهموم والاستسلام والشيخوخة ، واطلقا من جديد ينابيع المثالية التى كانت تفيض فى أعماق لودفيج فى شبابه !.. اما هى نفسها .. أما «لولا» ، فقد أيقنت انها اهتدت أخيرا الى مغامرتها الكبرى ، فطرحت عنها ما ران على نفسها من شوائب ومتاعب خلال البحث الطويل المضنى ، ونهضت - فى جلال وشجاعة ونشاط - تسعى الى غايتها .. فاذا الملك يعود فيشهر سيف التحرر . وما ان انقضت خمسة أيام على لقائهما ، حتى جمع رجال بلاطه وقدم اليهم رفيقته رسميا وأمرهم بأن يوقروها !.. وبعد أسابيع قلائل ، انتزع شئون التربية والتعليم والعبادة من وزير داخليته - الذى كان من حزب الكنيسة - فحرر بذلك المدارس والمعابد من ربقة النفوذ الكاثوليكى. وتعرضت « لولا » للاتهام بانها من « الفريماسون » - أو الماسونيين الاحرار - تلك الهيئة الغامضة التى كان الكاثوليك يرهبونها . وبدأ رجال الدين ينتقدون شئون الملك الغرامية لاول مرة فى عهده كله ، ويرمون « لولا » بانها ليست مبعوثة الشيطان فحسب ، وانما هى مبعوثة « بالمرستون » ايضا .. اذ كانت حكومة بريطانيا فى ذلك الحين تكافح الرجعية الدينية فى كل مكان من اوربا !

★ ★ ★

◆ على ان « لولا » لم تكن مبعوثة أى انسان أو أى حزب ، وانما كانت مبعوثة خيالها والهامها ، وكان الحافز بسيطا .. ولكنه - مع ذلك - كان أكثر غموضا من السياسة الدولية !.. كان الحلم الذى راود « لودفيج » دائما هو العودة الى الآراء التى لم يقدر لها قط ان تتحقق ، وكانت هى عين الآراء التى كانت « لولا » تكافح من اجلها فى اخلاص المغامرة الصادقة التى تجرى وراء المستحيل !.. وكان هجومها فى هذه المرة قويا ، عنيفا ، فلم تنقض أشهر قلائل ، حتى غدا لها من السلطان ماجعل « ميترنيخ » - داهية السياسة الاوربية اذ ذاك - يعترف بانها « غريم يجب عدم اغفال شأنه » !.. على انه رغم دهائه أخطأ الحكم على حوافزها ، اذ ظنها تعمل بوحى مصلحتها الخاصة ، فعرض

عليها معاشا دسما مقابل ان تبرح بافاريا ، فامدها ذلك بسلاح شهرته نحـو صدره امام الرأى العام

وافرد لها الملك بيتا انيقا لا يليق الا بملكة - كما وصفته - ففتحت ابوابه للفنانين والكتاب والعلماء و صفوة اهل الفكر ٠ وكانت تذهب الى القصر فى كل يوم ، فتخلو الى الملك ساعات يتدارسان فيها شئون الحكم ، ممـا اوغر صدور وزرائه ، فسعوا حتى حصلوا على تفصيلات ماضى حياتهـا ، واطلعوه عليها ٠ ولكن ذلك الماضى لم يزده الا تقديرا لها ، فانعم عليها بلقب رفيع ٠ ولما كان هذا يتطلب منحها الجنسية البافارية ، فقد ارسل الملك طلبا بذلك الى وزير داخليته الذى لم يصدق عينيه ، فكتب له مذكرة اوشكت ان تكون انذارا ، قال فيها ان منح « لولا » الجنسية البافارية « خليق بأن يكون اعظم نكبة تحيق ببافاريا » ، وذكر له ان كبير الاساقفة يسكب الدمع اسى عـلى مسلك مولاه ، وان الصحف الاجنبية تثير فضيحة فى الخارج حول عـلاقته بالراقصة ٠٠ وانه وزملاءه الوزراء يلتمسون من الملك ان يقصى عنه هذه المرأة « او يقبل استقالتهم » ٠٠! واغرقت «لولا » فى الضحك ، حين اجاب الملك ملتمس الوزراء ٠٠ فاقالهم !

وتكتل الوزراء - خارج الحكم - ضد الوزراء الاكثر تحررا الذين خلفوهم وكونوا ماعرف باسم « حكومة لولا » ٠٠! وتحدثت عنها الصحف الاوربيـة والامريكية كشخصية سياسية لم تصبح « ملكة بافاريا غير المتوجة » فحسب ، بل غدا لها عملاء وجواسيس فى بلاطات ملوك اوربا ٠٠! ووصـفها صحفى امريكى بانهـا اكتسبت من النفوذ ما لم تكتسبه امرأة بعد « الامبراطـورة ثيودورا » زوجة « جستنيان » ، فى الامبراطورية الرومانية ٠ اما « ميترنيخ » فوصفها بانها « اداة فى ايدى التقدميين » ٠٠ وكانت تقابل كل هذه الاوصاف بهزة من كتفيها ، تتبعها بقولها : « ان الملكة ملكة فقط ٠٠ اما انا ، فاحكم !» ٠٠ وقد حكمت فعلا بحكمة وبراعة ، ولكنها لم تفطن الى ضعف واحد فى كيانها ٠٠ ذلك هو انها - على الرغم من اهمالها للدين - كانت تنحدر من سـلالة اعتنقت مبادىء « كلفن » ، وكان اتباع هذه المبادىء هم الد أعداء الجيزويت، فاخذ هؤلاء يرصدون عليها كل حركاتها وسكناتها ٠٠ واضطرت « لولا » الى ان تخوض المعركة ضد « الكثلكة السياسية » ، فشغلها الصراع عن خطر آخر كان يستفحل فى تلك الاثناء ، هو خطر الاحرار المتطرفين الثوريين !

وكانت فى تلك الاثناء قد حصلت على الجنسية البافارية ، واصبحت فى فبراير سنة ١٨٤٧ « كونتة لاندسفيلد » ، وعضوا فى« نظام القديسة تريزا »، الذى كانت تراسه الملكة ٠ فلما قوبل ذلك بمعارضة من ارفع سيدات المملكة شأنا ، حذرهن الملك من ان يعتبر معارضتهن جرحا لكرامته ! اما الملكة وابناء

الملك ، فلم يحقدوا عليها ، لانهم لم ينظروا اليها كعشيقة للملك ، وانما كانوا يعتبرونها شخصية سياسية ذات حظوة لدى صاحب التاج !

على ان اللقب الرفيع اقام حاجزا بينها وبين عامة الشعب الذين كانوا يعتبرونها « بطلتهم المدافعة عن حقوقهم » ·· وبددت المكانة الرسمية الجديدة ما كانوا يرونها محوطة به من خيال وشاعرية !·· وكانت « لولا » فى هذه الاثناء قد غدت القوة الكامنة خلف العرش ، والقوة العاتية التى تقف امامه ، فطهرت الحكومة من معارضى الملك ، فاذا بهم يتكتلون بدورهم ضدها ،ويتخلون « الجامعة » مركز دفاع لهم ، فقررت انتنتزعهم منها، وهاجمها الطلبة متذرعين بالقوانين الخلقية التى عادت تبسط سلطانها على اوربا · ولكن من الطلبة من هبوا لمناصرتها ، مكونين هيئة مسلحة اسموها « اليمانيا » لحراستها ، فاذا الملك يعترف بهذه الهيئة رسميا ، ويخلع عليها الامتيازات ·· وهكذا اصبحت الجامعة نهبا لفريقين من المتطرفين المتحمسين ! وحدث ان عقد احد اساتذة الجامعة مؤتمرا للاحتجاج على اقالة الوزراء السابقين ، وللدعوة الى تعضيد القوانين الخلقية ، ففصله الملك وفصل اربعة من زملائه · وثار انصار الاساتذة ، وتجمعوا أمام دار « لولا » ينادون بسقوطها · وكانت اذ ذاك تجلس الى المائدة ، فقامت الى النافذة وفى يدها كاس مترعة بالخمر ، ولوحت بها نحوهم ثم شربتها ·· وانهال الطوب على الدار ، كرد على هذه التحية· و خف البوليس الى نجدة لولا ، فتحولت المظاهرة الى معركة ، خرج الملك خلالها وسار الى دار « لولا » وهو يهيب بالمتعاركين : « اخلعوا القبعات احتراما للملك ! » ، ثم دخل الدار ، ووقف فى النافذة الى جوار « لولا » !

★ ★ ★

◆ وفى شتاء ١٨٤٧ ـ ١٨٤٨ ، بدأت العناصر الثورية المتسترة تقوى وترفع أصواتها علنا الى الاسماع ، واخذت تردد ان « الملكية جحيم » و « الجمهورية نعيم » !·· ووجدت الصحف الثورية فى علاقة الملك بلولا مادة للتدليل على مباذل الملكية وطغيانها ، وراحت ترمى الاثنين باقذع السباب · وبينما انصرف الملك الى جمع ما كان يكتب ، واجهت « لولا » خطرا جديدا ·· فان الوزراء الاحرار الذين رفعتهم بنفسها الى الحكم ، بداوا ينقلبون عليها ، لمجرد شعورهم بانهم كانوا مدينين بمناصبهم لها ، كما كان انتصار الراى الحر فى المملكة راجعا الى فضلها · وبداوا يرون ان محفة الملك مثقلة ، ففكروا فى تخفيف حملها بالقاء « لولا » الى الذئاب الثورية !·· وتاهبت « لولا » لمواجهة أعدائها ، ولكن الملك الذى كان اعرق منها تجربة وخبرة ، بدا يبحث ـ فى قلق ـ عن طريق للتقهقر !

وفي يناير سنة ١٨٤٨ ، مات احد اساتذة الجامعة المناوئين للولا ، فخرجت الجامعة كلها تشيع جنازته ، وكان لابد من ان يصطدم انصار « لولا » باعدائها .. واسرع كل عنصر ثوري الى الانضمام لهؤلاء ، فما كان من « لولا » الا ان خرجت الى الطريق على قدميها لتواجه اعداءها في شجاعة وبسالة نادرا ما ابداهما رجل !.. وكان من المحتمل ان يحترم الطلبة هذا التصرف منها ، لولا العناصر الثورية الاخرى ، التي ما ان التقت بالموكب حتى تصاعدت هتافاتها : « لتسقط مومس الملك ! » .. وفي هدوء ، لوحت « لولا » بسوطها ، وقالت : « حسنا .. سأغلق الجامعة ! » .. وكان ردهم ان انقضوا عليها ، فارتدت مذهولة الى احد الجدران ، بينما انهالت عليها اللكمات والصفعات ، حتى انهارت على الارض ، فداستها الاقدام ، وكادت تموت لولا

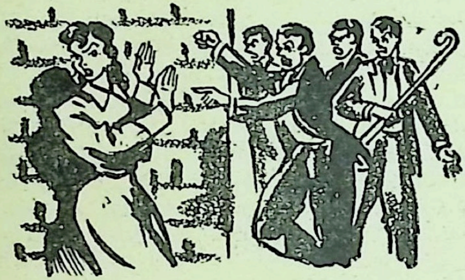

ان استطاعت فلول انصارها ان تنتشلها وتدفع بها الى اقرب باب ، وكان باب السفارة النمسوية !.. ولكن الباب اوصد في وجوههم ، ولم تجد « لولا » ملاذا الا في كنيسة كاثوليكية .. فبسط اعداؤها حمايتهم عليها !

وخف الملك اليها ، وهي تغادر الكنيسة في حماية فصيلة من الشرطة ، فبسط لها ذراعه لتتكيء عليها ، ثم قادها الى القصر الملكي . ولم تمض عشرة ايام حتى اغلقت الجامعة لمدة عام ، وامر جميع الطلبة الذين لا يقيم اهلهم في ميونيخ بمبارحة العاصمة . واثار هذا التصرف الطبقة التي لم تكن من قبل معنية بالنزاع .. طبقة التجار واصحاب الحوانيت ، الذين قدموا ملتمسا الى الملك لاعادة فتح الجامعة . ولعل هذه الورطة اضافت ثقلا الى العبء ، فلم تستطع روحه المعنوية ان تحتمل مزيدا ، ورأى ان يسترضي الشعب بان يعد بانه سيفكر في اعادة فتح الجامعة في منتصف الصيف . ولكن هذا الوعد كان دليل التراجع ، مما شجع الجانب الآخر على الهجوم ، والاصرار على

فتح الجامعة فى الحال ، وطرد « لولا » من البلاد !٠٠ وراح الاحرار الثوريون يسبون الملك علنا فى صحفهم ويتهمونه بتبديد عرق الفقراء على عشيقته وانصارها !٠٠ ولم يعد الامر مجرد شغب ومظاهرات ، بل انطلقت الثورة عاتية فى شوارع ميونيخ ، ولم تقنع ببيت « لولا » وانما سارت الى قصر الملك ٠٠ وحانت المعركة الكبرى ، فتاهبت لها « لولا » بشجاعة وتحمس ، بينما عقد الملك اجتماعا لمجلسه الاستشارى ٠ وسمع الوزراء الذين كانوا يدينون بمراكزهم للولا ، ينصحونه باقصائها عن البلاد ، فصاح فى اول الامر غاضبا : « اننى اوثر ان افقد تاجى على ان اقصيها ! » ٠٠ ولكن الهموم والمتاعب كانت قد انهكت قواه ، فما لبث ان تداعى ، ووقع مرسوما بتجريد « لولا » من جنسيتها البافارية !

وكان الشعب قد تجمع عند بيت « لولا » ليشهد تنفيذ الامر ٠٠ وابت « لولا » ان تصدق حتى رات بعينيها توقيع الملك ٠٠ وحتى اذ ذاك ، احست ان عقلها عاجز عن ان يفقه ماكان يجرى ، فاطلت من احدى النوافذ ، لترى ان الحراس قد انصرفوا ، وان الطرقات خالية من الشرطة والجنود ، وليس ثمة من يحميها من الجماهير الضارية !

وبهتت اذ تبينت ان الملك لم يجردها من نفوذها فحسب ، بل جردها ايضا من حماية رجاله دون سابق انذار ! ورات افرادا من الثوار الهائجين يتسلقون سور الدار ٠٠ وكانما امدها الياس بقوة جديدة ، ففتحت باب الدار ، وخرجت الى الثوار ٠٠ واذا بهم يتراجعون ويتركونها تنصرف خلال صفوفهم ، وقد اذهلتهم جراتها !٠٠ وما ان انصرفت ، حتى تحطم السحر ، فانقضوا على الدار يدمرونها ٠ واستمد الملك من اساه جراة ، وخرج يشهد تحطيم دار احلامه . فاذا بوقح يضربه على راسه بقطعة من الحطام ٠ وعاد متخبطا مضعضع الحواس الى القصر الملكى الذى افتداه البيت الصغير وانقذه من الدمار !

* * *

◆ على ان كل هذا لم يحطم من روح « لولا » المعنوية ، فاذا بها فى الصباح التالى تعود الى المدينة متنكرة فى زى فتى ، وتسعى الى حضرة الملك . ولعلها فعلت ذلك على امل ان تبث الشجاعة فى فؤاده ، او لتنصحه بان يعتزل العرش حتى لا يتحمل ذلة النزول عنه قسرا !٠٠ وسواء اكان هذا او ذاك ، فانه نزل عن عرشه بعد اسابيع لابنه مكسمليان الثانى !

ولكن « لولا » لم تكف عن الامل ، فلاذت بالجمهورية السويسرية ــ التى رحبت بها لما عرفته عن مناصرتها للحرية ــ ومن هناك ، راحت الراقصة التى

هزت بقدميها معاقل الرجعية تشهد هذه المعاقل وهى تتهاوى امام زحف التحرر الذى اجتاح اوربا باسرها . ولابد انها طربت لذلك ، ولكنها كانت ايضـا تعانى عذاب الوحدة ، والوحشة .. وكانت تعانى ما هو اقسى وامر ..كانت تعانى اليأس وهى ترى ان لا مكان لفاتنة الرجال فى الديموقراطية الجديدة التى كانت تسعى لتحقيقها .. وكانت تعانى لوعة الحسرة وهى ترى دورهـا يتراجع ليصبح مجرد ذكرى فى أدراج الماضى .. أو أسطورة عن امراة جاهدت كما يجاهد الرجال !

وانتهت مغامراتها ، ولكنها واصلت العيش فى شـجاعة ، ولم تكف عن السعى وراء مغامرة جديدة ، بنفس الروح المتحمسة المتوثبة .. ولكنها كانت تتبين فى كل مرة انها انما كانت تسعى وراء سراب !

وتزوجت ضابطا انجليزيا غنيا ، ولكن المجتمـع الارستقراطى لم ينس قط انها كانت « بيتسى جيمس » فطرد زوجهـا من الجيش ، ثم طردت هى من البلاد . ورحلت الى امريكا حيث عادت الى المسرح ، وتبعت المغامرين فى موكب البحث عن الذهب فى كاليفورنيا ، حتى شب حريق فى منطقة المناجم ، فالتهم الاكواخ الخشبية ، وحرمها البيت الوحيد الذى اقامته فى حياتها بنفسها !

وتزوجت بعد ذلك مرارا ، وطلقت مرارا ، وانهالت بسوطها على رجال ، ثم كونت فرقة مسرحية رحلت بها الى استراليا حيث فقدت كل مالها ، فرجعت الى امريكا لتعيش من القاء محاضرات عن « الجميلات » و « بطلات التـاريخ » و « الشهامة » !.. وانتقلت الى انجلترا لتحاضر عن امريكا ، ثم عـادت الى امريكا فحاضرت عن انجلترا !.. وكتبت مذكراتها ، فلم يجرؤ احد على نشرها، ولكن كتابها عن « فنون الجمال » أكسبها بعض الثراء . وهكذا راحت تجاهد، وهى تفقد فى كل خطوة بعض جمالها، واشراقها ، ولكنها لم تفقد قط شجاعتها !

وفى سنة ١٨٦٠ انهارت صحتها كما نضب جيبها ، ولم تجد من يشفق على امراة تعسة سقيمة .. بل انها لم تجد فى نيويورك من يهتم بها ، ولو ليسخر منها !.. وفى يوم من ايام الشتاء القارسة ، كانت تهيم فى الطرقات بائسـة حين التقت بصديقة قديمة أوتها وكفلت لها الراحة .. ولكن راحة نفسها كانت أكبر وأشمل من راحة جسدها ، اذ وجدت اخيرا ان هناك من يحترم الصداقة ويشفق على المسكين بدافع الشعور الانسانى البحت !

وكانت اذ ذاك فى الثالثة والاربعين ، ولكن رحلاتها ومغامراتهـا كانت قد اضافت الى عمرها ما لم تضفه اثقال العمر ذاته .. ففى ١٧ يناير سنة ١٨٦١، اغمضت عينيها فى دار صديقتهـا ، وهى تهمس : « أواه !.. كم انا متعبـة مكدودة ! »

النساء في التاريخ، كالكواكب التي تسير في فلك الشمس، لا تضيء بنور من ذاتها، وإنما تعكس ضوء الشمس.. وكذلك تعكس النساء أضواء الرجال!.. ولكن منهن نساء كالشهب يتحللن من كل قيد. وقد يحطمن في اندفاعهن نظام الحياة.. وقد يحطمن أنفسهن!.. وما بلغنا عن أولئك النساء الشهب، كتب بأقلام الرجال.. الرجال الذين تمردن على سلطانهم، فلا يعقل أن يقفوا منهن موقف الإنصاف!

و"مطبوعات كتابي" - في حرصها على أن توافيك بأروع الشوامخ العالمية - تقدم لك اليوم ما كتبته امرأة عمن تركن آثاراً لا تنسى من بنات جنسها. فهي تحدثك عن: مدام دي مونتسبان، مدام دي ستايل، آن بولين، لولا مونتيز، كليوباترا.. الخ..

إن بينهن من كانت نبيلة، سامية، ومن كانت طامحة أو أفاقة أو مستهترة أو مبتذلة..

ولكنهن جميعاً كن:

"فاتنات الرجال"!